

صفحات مجهولة
من تراثنا
الشعري الفكاهي
شخصيات ومواقف
الدكتور
مصطفى رجب
منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net
العلم والإيمان
للنشر والتوزيع

صفحات مجهولة

من تراثنا الشعري الفكاهي

شخصيات ومواقف

الأستاذ . الدكتور
مصطفى رجب

العلم والإيمان للنشر والتوزيع

البيـــــانـــــات

عنوان الكتاب — Title	صــفحات مجهولـــة مـــن تراثنـــا الشـــعري الفكـــاهي (شخصيات ومواقف)
المؤلف - Author	الأستاذ. الدكتور مصطفى رجب
الطبعة — Edition	الأولى .
الناشر - Publisher	العلم والإيمان للنشر والتوزيع .
عنوان الناشر Address	كفر الشيخ - دسوق - شارع الشركات ميدان المحطة تليفون : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١
بيانات الوصف المادي	عدد الصفحات Pag. : ٢٦٨ — مقياس النسخة Size : ١٧,٥ × ٢٤,٥ — التجليد : مجلد
المطبعة - Printer	مؤسســة رؤيـــة
عنوان المطبعة Address-	ش مدرسة ابن النفيس - المعمورة تا ٥٦٢٣٣٤١
اللغة الأصل	اللغة العربية .
رقم الإيداع	٢٠٦٣٧- ٢٠٠٧م
الترقيم الدولي I.S.B.N.	977- 308 - 136 - 2
تاريخ النشر - Date	2008

إهداء

أستاذي وشيخي الجليل

الأستاذ محمد قطب محمد

أنت أول من حبّب إليّ الأدب حين كنت تعلمنا اللغة العربية في مدرسة (شطورة) الإعدادية أواخر الستينيات من القرن الميلادي العشرين ، وهأنتذا ترى نتاج غرسك ، فإن تقبلته راضيا فذلك فضل منك نحمد الله عليه ، وإن كان غير ذلك ، فنستغفر الله ، لتقصيرنا عن تحقيق أملك فينا .

فجزاك الله عنا ما لا نقدر أن نجزيك به من حمد وشكر .

تلميذك المحب

مصطفى رجب

الفهرس

الفهرس

مقدمة

هذا الكتاب عمره ثلاثون عاما أو أكثر ، فقد كانت لي عادة – وما تزال – أن تكون معي كراسة تلازمني وأنا أقرأكتابا مهما أو جديدا . فأسجل فيها معلومة تروقني، أو طرفة تعجبني ، أو مسألة أعتزم الرجوع إليها .

وكراساتي التي تحفل بنوادر من التراث كثيرة سجلت فيها كل ما كنت أحفظ أو ما أعجبني من كتب التراث الأدبي التي قرأتها على مدار الأعوام الثلاثين الماضية وهي أكثر من أن تحصى ، فلما اكتمل لي من ذلك مادة ضخمة صنفتها ورأيت أن أنشرها في كتاب يستمتع به محبو الفكاهة وعشاقها ، كتاب أحاول فيه تضييق الفجوة بين شبابنا وتراثه الأدبي الذي يقاطعه شبابنا بسبب فساد الذوق الأدبي نتيجة المناهج التعليمية العجماء الشوهاء التي "يعانيها" شبابنا في المدارس فتصرفهم صرفا عنيفا عن تذوق جماليات لغتهم وروائع تراثهم .

فهذا الكتاب – ومعذرة لأدعياء التواضع من إخواننا المؤلفين – لا مثيل له في المكتبة العربية في منهجية تأليفه ، وإن كان له مثيل في موضوعه ، فموضوع الطرائف والنوادر باب مطروق ومألوف ومعروف ، ولكن جمع الشوارد من عصور شتى وكتب شتى في موضوعات مجهولة نادرا ما يتطرق إليها الكتاب ، لم يصادفني قبل هذا الكتاب . فإن صح تقديري فالحمد لله الذي أعانني عليه ، ووفقني إلى نشره وإن لم يصح تقديري ، فالحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه !! وحسبي أنني

حاولت واجتهدت أن أرسم البسمة على وجهك أيها القارئ الكريم مراعيا مسألتين مهمتين :

الأولى : أن يخلو الكتاب من أي إسفاف خلقي مما تموج به طرائف تراثنا

الثانية : أم يخلو الكتاب من أي نادرة مشهورة .

وأسأل الله تعالى أن يجعل منه علما ينتفع به كاتبه وقارئه . إنه سميع مجيب

د. مصطفى رجب

سوهاج

ذو الحجة الحرام ١٤٢٨- ديسمبر ٢٠٠٧

القسم الأول :

مواقف ضاحكة

الشعراء والبراغيث

صراع دام لا ينتهي ...!!!

من أمتع صفحات تراثنا الأدبي ، تلك المواقف الطريفة التي سجلتها لنا كتب الأدب ، ودواوين الشعراء، عن الليالي " الحمر " أو " السود" التي بات الشعراء فيها يتقلبون ألما وسهدا وعذابا ، من تلك البراغيث التي تسومهم سوء المنام !! وتقض مضاجعهم ، حتى إذا استيقظوا، أو لنقل : إذا تنفس الصبح [لأنهم لم يهنأوا بنوم] فزعوا إلى الشعر يبثونه شكواهم ، ويصفون ما انتابهم من أرق وعذاب أليم.

وقد تفنن العرب في التعبير عن معاناتهم من البراغيث ،بل ووضعوا في هذه المعاناة من القصص والحكايات ما يسر النفوس ، ويضحك العبوس ، فقد قالوا : إن البرغوث إذا دخل في أذن أحد ، ووضع الإنسان يده على سرته ، أو أصبعه في سرته وقال : " سبقتك " فإن البرغوث يخرج فورا من أذنه !! روى ذلك الصفدي في " أعيان العصر".!!

وروى الوطواط في " غرر الخصائص الواضحة " من الخرافات الموضوعة على ألسنة الحيوانات في مدح الصمت وذم الكلام أن برغوثا وبعوضة اجتمعا وتفاخرا فقالت البعوضة للبرغوث: " إني لأعجب من حالي وحالك !! أنا أفصح منك لسانا وأرجح ميزانا ، وأوضح بيانا ، وأكبر منك شبابا ، وأكثر طيرانا، ولي في بحر العبودية سباحة ، وفي ساحته سياحة ،ومع هذا كله فقد أحاط بي الخضوع ، وحرمني الجوع الهجوع ، وأنت – على علاتك – في جميع حالاتك تأكلين وتشبعين ، وفي نواعم

الأبدان ترتعين ، قالت البرغوث : نعم !! أنت بين العالم مطنطنة ، وعلى رؤوسهم مدندنة وطول لسانك سبب حرمانك !!وأما أنا فالتلطف بضاعتي ، والصمت صناعتي وإنما توصلت إلى قوتي بسكوتي !!"

ووصف الشاعر الأندلسي ابن شهيد البرغوث نثرا فقال : " أسود زنجي وأهلي وحشي، كأنه جزء لا يتجزأ من ليل ، أو نقطة مداد ، أو سويداء قلب فؤاد شربه عب ، ومشيه وثب ، يكمن نهاره ، ويسري ليله ، يدرك بطعن مؤلم ، ويستحل دم كل كافر ومسلم ، مساور للأساورة ، يجر ذيله على الجبابرة ، يتكفر [أي : يتغطى] بأرفع الثياب ، ويهتك ستر كل حجاب ، ولا يحفل ببواب ، يرد مناها العيش العذبة ويصل إلى [المناطق] الرطبة ، لا يمتنع منه أمير ، ولا ينفع فيه غيرة غيور ، شره مبثوث ، وعهده منكوث ، وهكذا كل برغوث !!!

ويحكي لنا أبو هلال العسكري حكاية ليلة حرم النوم فيها من تكاثر البراغيث والبعوض حوله فيقول :

وبدا فغناني البعوض مطربا فهرقت كاس النوم إذ غناني
ثم انبرى البرغوث ينقط أضلعي نقط المعلم مشكل القرآن

وقال الشاعر لسان الدين بن الخطيب شاكيا حاله وواصفا معاناته :

زَحِفَتْ إليّ رَكائِبُ البُرْغوثِ ثمَّ الظَلامُ بركْبِها المَحْثوثِ
بالَحبّةِ السَوْداء قابَلَ مَقْدَمي لله أيّ قِرىً أعدّ خَبيثِ !!
كَسَحَتْ بهنّ ذُبابَ سَرْحِ تجَلُّدِي لَيْلاً فحَبْلُ الصَبْرِ جِدُّ رَثيثِ
إنْ صابَرَتْ نَفْسي أذاهُ تعَبّدَتْ أو صِحْتُ منهُ أنِفْتُ من تحْنيثي

جَيْشانِ منْ لَيْلٍ ويُرْغوثٍ فَهلْ جَيْشُ الصّباحِ لصَرْختى بُمغيثٍ؟

وهذا الأديب المؤرخ الشهير العماد الأصفهاني يصف لنا ليلة دامية قضاها محاصرا بجيوش من البق الذي انهال عليه يسفك دمه بشراسة، والبراغيث تتراقص حول البق الهاجم فتؤازره طربة قد أخذ منها الطرب كل مأخذ، مما اضطر شاعرنا إلى خلع ملابسه ليتخلص من تلك الجيوش التي تسكن طيات ثيابه، فإذا به يكتشف أن لون جلده قد تحول إلى قميص أحمر مما سال من دمائه:

يا لحى اللّه ليلةً قرصَتني في دياجيرها البراغيثُ قَرصا

شَربتْ بَقُّها دمي فتغّنت وبراغيثُها تواجَدْنَ رَقْصا

قد تعرَّيتُ من ثيابي لكربي غيرَ أنّي لبستُ منهنَّ قُمْصا

كلّما ازْددْتُ منعهنَّ بحرصٍ عن فراشي شرهن فازددن حرصا

من براغيثَ خِلتُها طافراتٍ طائراتٍ جَناحُها قد حُصّا

عرَضَتْ جيشها الفريقانِ حَوْلي وهي أوفى من أنْ تعدَّ وتُحصى

وبات أعرابي عند امرأة فآتاه البرغوث فقال يدعو على مضيفته ويذم بلدها ويسأل اللّه ألا يعيده إليها حتى لا تتكرر معه ليلة قضاها يتقلب من أذى البراغيث حتى كأنه جمل أجرب يحك جلده في مبركه من شدة أذى الجرب:

يا أمَّ مثواي عدِمت وجهك أنقذني ربُّ العُلا من مصرك

ولذع بُرغوثٍ أراه مُهلكي أبيت ليلي دائب التحكّك

تحكّك الأجراب عند المبرك

وقال آخر وكان في مجلس شراب فلما سكر هو وأصحابه لم ينج من وخز البراغيث ، فخيل إليه أن البراغيث أصابت نصيبا من السكر حتى إذا زادت جرعته عليها قاءت ما شربته من دمائه على ثوبه :

للبراغيث صارَ جسمي مَقيلاً ففؤادي من شرّهم في عَذاب

طفح السكر والشراب عليهم فتقـافوا دمـي علـى أثـوابي

وقال علاء الدين الوداعي في البراغيث وهو يستخدم فنون المقابلة والتورية والاقتباس :

براغيثنـــا فـــيهم جـــرأة فبالأسـر والقتـل لا يرجعونـــا

كـــثيرو الإســـاءة مـــع أنهـــم " قليلاً من الليل ما يهجعونا"

وقال رجل من بني حمدان، تطوع مع جند الشام في حروبهم ، فرابط ذات ليلة مع جند الحدود في بعض حصون الساحل في مكان مملوء بالبراغيث والبق فقال متندما عازما على ترك الجهاد بعد هذه الليلة حتى ولو أعطوه على الجهاد ماشاء من المال :

أأنصر أهل الشام ممن يكيدهم وأهلي بنجد ذات حرص على النصر

براغيـث تـؤذيني إذا النـاس نومـوا وبق أقاسيه على ساحل البحـر؟!

فـإن يك فـرضٌ بعدها لا أعُدْ لَـهُ وإن بـذلوا حُمْـرَ الـدنانيرِ كـالجمْر

وقال آخر وقد زار إمارة " الري" فهاله ما وجد فيها من هواء طيب ، وحياة رغدة وفوق هذا كله حاكم عادل هو يحيى بن خالد أمير " الري" ، وتذكر أيامه

الخالية في بغداد ، تلك الأيام التي لم يذق فيها للنوم طعما ، بسبب تلك البراغيث السود المتوحشة التي تتقافز عليه إذا ما جنه الليل، وهي براغيث سمينة قوية حتى لكأنها بغال البريد :

هنيئاً لاهل الرَّي طيبُ بلادهم وأن أميرَ الريِّ يحي بن خالدِ

تطاولَ في بغدادَ ليلي ومن يكُنْ ببغدادَ يلبثْ ليله غيرَ راقدِ

بلادٌ إذا جنَّ الظلامُ تقافزتْ براغيثها من بين مثنى وواحدِ

ديازجةٌ سود الجلود كأنها بغالُ بريد أرسلت في مداودِ

وبات أعرابي عند امرأة فآذاه البرغوث فقال يدعو على مضيفته ويذم بلدها، ويسأل الله ألا يعيده إليها حتى لا تتكرر معه ليلة قضاها يتقلب من أذى البراغيث حتى كأنه جمل أجرب يحك جلده في مبركه من شدة أذى الجرب:

يا أمَّ مثواي عدِمت وجهك أنقذني ربُّ العُلا من مصرك

ولذع بُرغوثٍ أراه مُهلكي أبيت ليلي دائب التحكّك

تحكّك الأجراب عند المبرك

وقال آخر وكان في مجلس شراب فلما سكر هو وأصحابه لم ينج من وخز البراغيث ، فخيل إليه أن البراغيث أصابت نصيبا من السكر حتى إذا زادت جرعته عليها قاءت ما شربته من دمائه على ثوبه :

للبراغيث صارَ جسمي مَقيلاً ففؤادي من شرّهم في عَذاب

وقال علاء الدين الوداعي في البراغيث وهو يستخدم فنون المقابلة والتورية والاقتباس :

براغيثنا فيهم جرأة　　فبالأسر والقتل لا يرجعونا
كثيرو الإساءة مع أنهم　　" قليلاً من الليل ما يهجعونا"

وقال رجل من بني حمدان، تطوع مع جند الشام في حروبهم ، فرابط ذات ليلة مع جند الحدود في بعض حصون الساحل في مكان مملوء بالبراغيث والبق فقال متندما عازما على ترك الجهاد بعد هذه الليلة حتى ولو أعطوه عللى الجهاد ماشاء من المال :

أأنصر أهل الشام ممن يكيدهم　　وأهلي بنجد ذات حرص على النصر
براغيث تؤذيني إذا الناس نوموا　　وبق أقاسيه على ساحل البحر؟!
فإن يك فرضٌ بعدها لا أعُدْ لَهُ　　وإن بذلوا حُمْرَ الدنانيرِ كالجمْر

ولم تكن البصرة بأحسن حظا من الشام وبغداد ، فهذا أعرابي رمته أقداره ذات مرة في البصرة فآذته براغيثها أذى شديدا ، وبات ليلته في حرب عوان لا تكاد تنتهي حتى طلع الصباح فقال:

ظللت بالبصرة في مراش
وفي براغيث أذاها فاشي
من نافر منها وذي خش
يرفع جنبي عن الفراش

فـأنا في حرب وفـي تــخراش

يترك فـي جنبـي كالحواشــي

ولم تكن مصر بأقل من الشام والبصرة وبغداد في حفاوتها بالبراغيث ، فهذا أعرابي آخر هو أبو الرماح الأسدي يقول كما قال سابقوه :

تطاول بالفسطاط ليلي ولم يكن ... بحنـو الغضـى ليـل علـي يطـول

يــؤرقني حــدب صــغار أذلــة ... وإن الــذي يؤذينــه لــذليل !!

وذكرت البراغيث عند أعرابي من قيس، فقال يصفها: ليلها ناصب ومددها دائب.

وذكرت البراغيث عند رجل من كلب، فقال: أخزاها الله، ما أدنأ صغارها وما أشر كبارها، وأخفى أنظارها، وأقبح آثارها.

وهذا شاعر آخر يصور إلحاح البراغيث عليه حتى لكأنهن من قوم لهم عنده ثأر فهن يطالبنه بدمه مقابل مالهن عنده من دم ، وواضح هنا أنه يستخدم التورية بكلمة الدم فيقول :

مـا للبراغيـث أخـزى الله ليلتهـا ... من يلق منهن ما لا قيت لم ينم

كـأنهن وجلــدي إذ ظفــرن بــه ... وضـمني مضـجعي، يطلبـنني بـدم

وقد يستخدم الشعراء البراغيث في سياقات أخرى أكثر إيلاما، فهذا شاعر يريد أن يصف قوما بالبخل فيقول إنه وجماعة من أصحابه باتوا ضيوفا عند هؤلاء

القوم الذين اشتهروا بحلاوة حديثهم ، فما وجدوا عندهم إلا بخلا بالطعام ، وسوء مرقد ، فقال:

وليلة بتنا لدى معشر قد غرت الناس أحاديثهم
فما أكلنا عندهم قدر ما قد أكلت منا براغيثهم !!

وهناك من استخدم البراغيث في سياق آخر كوصف مجلس فن وسماع مثل قول ابن رشيق القيرواني:

لك مجلس كملت بشارة لهونا فيه ولكن تحت ذاك حديث
غنى الذباب فظل يزمر حوله فيه البعوض ويرقص البرغوث

وأسبق منه إلى هذا المعنى الشاعر أحمد بن أيوب- من شعراء اليتيمة - في قوله :

لا أعذل الليل في تطاوله لو كان يدري ما نحن فيه نقص
إذا تغنى بعوضه طرباً أطرب برغوثه الغنا فرقص

وأما الشاعر السلامي فقد ابتكر استخداما طريفا للبرغوث حين قال في صبى يعرف بابن برغوث:

بليت ولا أقول بمن لأني إذا ما قلت من هو يعشقوه
غزال قد نفى عني رقادي فإن غمضت أيقظني أبوه !!

وفي مجموعته الطريفة " المواعظ والأمثال" - وهي حكايات ألفها الشاعر محمد عثمان جلال منتهى القرن التاسع عشر الميلادي، وأفاد فيها من خرافات

أيسوب اللاتينية ـ يحكي لنا قصة رجل ضاق بالبراغيث فراح يستغيث بالله من شرها:

فحل من الرجال يستغيث في فراشه يأكله البرغوث

فهم يشكو بصياح عالي وهو ينادي سيد الموالي

يقول يا من خلق البرية بعونك ارفع هذه البلية

قالت له زوجته ما نابك ومن أذى البرغوث ما أصابك

أمسكه بين الإصبعين باليد واظفر به لا تستغث بأحد

عجائب عجائب عجائب إنك والله العظيم خائبُ

مثلك في الناس كثير العدد في كل حلة وكل بلد

من طبعهم ودأبهم حب الكسل أنبيك عن أخلاقهم إذا تسل

في كل عارض صغير زائل يرجون في تصريفه كل ولي

إن العظيم يدفع العظيما كما الجسيم يحمل الجسيما

وهذا شاعر قديم ضاق بالبراغيث وجافاه النوم فآثر أن يقضي ليلته متهجدا متعبدا يتلو القرآن ويصلي ويسبح ربه ولكن ... هيهات !! فلم ترحمه البراغيث :

إن البراغيث قد باتت تشيبني فبتُّ أحيي الدجى نسكاً وأيمانا

فلو رأيتهم يستخرجون دمي رأيت أكثر خلق الله عدوانا

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا !!

ولكن الشاعرابن كاتب المرج اختلف عن كل الشعراء السابقين ، فهو يصرح بأنه ممن يصبرون أنفسهم على ألم وخز البراغيث ، وعذاب قرصها وعضها ، حتى ولو

أجبرته على البقاء عريانا ، لكن ما يكاد يفقده عقله من أفاعيلها هو دخولها إلى أذنيه فيقول :

لن أشتكي البرغوث يا قوم إنه أراق دمي ظلماً وأرق أجفاني
وما زال بي كا لليث في وثباته الى أن رماني كالقتيل وعراني
إذا هو آذاني صبرت تجلداً ويخرج عقلي حين يدخل آذاني

ولأحد شعراء اليتيمة قصيدة وجهها للصاحب بن عباد يصف فيها مرضه بالحمى في مدينة "جرجان" وتأذيه بهوائها وبراغيثها وبقها ويستأذن منه للعودة إلى أصفهان منها :

أقمت بها أعالج كلَّ بؤسٍ من الأعلال لا العيش المهاد
تحدِّثني بحمّى لو تبدّت بخيبَر ألحقتها بالبوادي
ملازمةٌ إذا لسعت شقياً فكلُّ زمانها وقت العداد
تعاونها عليَّ سموم صيفٍ بلفحٍ من لظاهُ واتّقاد
وذبَّانٌ أُشرِّدها فتأبى وترجع كالمراغم ذي الكياد
كأني حين أطردها وتأبى أفرِّق بين ذي سغبٍ وزاد
ويا ويلي من الليل الموافي فإني حين يطرق في جهاد
له جيشاً براغيثٍ وبقٌّ يطلّ عليَّ إطلال الجراد
ولي فرشٌ هي الميدان فيه براغثه وخمشي في طراد
وبقٌّ فعله في كلِّ عضوٍ فعال النار في يبس القتاد
عصائب ينتحين على عروقي بعوجٍ كالمباضع في الفصاد

فترَوى ثم ترجع عاطفاتٍ ... عليَّ وهنَّ كالهيم الصوادي
وأنقف بعضهنّ وفي حشاها ... دمىً فأنال ثأراً من أعادي
تفرّق بين جنبي والحشايا ... وتجمع بين جفني والسهاد
ولو أني ثملت وملت سكراً ... لحالت بين طرفي والرقاد
واستر دونها وجهي بكفّي ... وعطف الردن وهو لهنّ بادي
وأظهر في صباحي كلّ يومٍ ... بوجهٍ مجدرٍ قلقِ الوساد
وأدمن حكّ ما تركت بجسمي ... فيحسبني جربت ذوو عنادي
وقد وقف الوزير على بلائي ... بما ضاقت به حيلي وآدي
وإني لا نهار أقرّ فيه ... ولا ليلٌ يقيني منه فادي
صديقي في دجى ليلي عدوي ... وعبدي لا يجيب إذا أنادي
وأُترك في ظلام دجاه وحدي ... فأذكر ضيق لحدي وانفرادي
وفي يمناي مروحةٌ فطَوْراً ... أذود بها وما يغني ذيادي
وطوراً أستريح إلى انتصابي ... وطوراً أنثني ويدي اعتمادي
وعلّمني البعوض بلطم خدّي ... خلائق لسْنَ من شيمي وعادي
فهل للصاحب المأمول عطفٌ ... على عجزي عن الكرب الشداد
بإذنٍ لست أسأله اختباراً ... ولكنّ اضطراري في ازدياد
شقاءٌ لا يعاقبه رخاءٌ ... وبلوى تستنيم إلى التّمادي
وسيّدنا أدقّ الناس حدساً ... وأعرفهم بدخلةِ من يصادي
وحسبي ما بلاه في اختياري ... وشاهد من ولائي واعتقادي

وقد أحسن الأديب كمال الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى في ذم دار كان يسكنها حيث قال واصفا ما فيها من حشرات وآفات :

دار سكنت بها أقل صفاتها ... أن تكثر الحشرات في جنباتها
الخير عنها نازح متباعد ... والشر دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته ... كم أعدم الأجفان طيب سناتها
وتبيت تسعدها براغيث متى ... غنت لها رقصت على نغماتها
رقص بتنقيط ولكن قافه ... قد قدمت فيه على أخواتها
وبها ذباب كالضباب يسد عين ... الشمس ما طربي سوى غناتها
أين الصوارم والقنا من فتكها ... فينا وأين الأسد من وثباتها
وبها من الخطاف ما هو معجز ... أبصارنا عن وصف كيفياتها
وبها خفافيش تطير نهارها ... مع ليلها ليست على عاداتها
وبها من الجرذان ما قد قصرت ... عنه العتاق الجرد في حملاتها
وبها خنافس كالطنافس أفرشت ... في أرضها وعلت على جنباتها
لو شم أهل الحرب منتن فسوها ... أردى الكماة الصيد عن صهواتها
وبنات وردان وأشكال لها ... مما يفوت العين كنه ذواتها
أبداً تمص دماءنا فكأنها ... حجامة لبدت على كاساتها
وبها من النمل السليماني ما ... قد قل ذر الشمس عن ذراتها
ما راعني شيء سوى وزغانها ... فتعوذوا الله من لدغاتها
سجعت على أوكارها فظننتها ... ورق الحمام سجعن في شجراتها

وبهــا زنـــانير تظــن عقاربــاً ... حــر السموم أخـف مـن زفراتهــا

وبهــا عقــارب كالأقــارب رتــع ... فينــا حمانــا الله لــدغ حماتهــا

كيف السبيل إلى النجاة ولا نجاة ... ولا حيـــاة لمـــن رأى حياتهـــا

منســوجة بــالعنكبوت سماؤهــا ... والأرض قـد نسـجت علـى آفاتهـا

فضـجيجها كالرعـد في جنباتهــا ... وترابهـــا كالرمـــل في خشـــناتها

والبــوم عاكفــة علــى أرجائهــا ... والـدود يبحـث في ثـرى عرصـاتها

والجــن تأتيهــا إذا جــن الــدجى ... تحكـي الخيـول الجـرد في حملاتهـا

والنــار جــزء مــن تلــهب حرهــا ... وجهـــنم تعـــزى إلى لفحاتهـــا

شــاهدت مكتوبــاً علــى أرجائهــا ... ورأيــت مســطوراً علــى جنباتهــا

لا تقربـــوا منهـــا وخافوهـــا ولا ... تلقـــوا بأيـــديكم الى هلكاتهـــا

أبــداً يقــول الــداخلون ببابهــا ... يــا رب نــج النــاس مــن آفاتهــا

قــالوا إذا نــدب الغــراب منــازلاً ... يتفــرق الســكان مــن ســاحاتها

ويـــدارنا ألفـــا غـــراب نـــاعق ... كــذب الــرواة فــأين صــدق رواتهــا

صـــبراً لعـــل الله يعقـــب راحـــة ... للــنفس إذا غلبــت علــى شــهواتها

دار تبيــت الجــن تحــرس نفســها ... فيهـــا وتنـــدب بـــاختلاف لغاتهـــا

كــم بــت فيهــا مفــرداً والعــين مــن ... شــوق الصــباح تســح مــن عبراتهــا

وأقــول يــارب الســموات العــلا ... يــا رازقــاً للــوحش في فلواتهـــا

أســكنتني بجهـــنم الـــدنيا ففـــي ... أخــراي هــب لــي الخلــد في جناتهــا

واجمــع بمــن أهــواه شملــي عــاجلاً ... يــا جــامع الأرواح بعــد شــتاتها

طبيب شاعر يرثي ثوراً ... !

دأبت أكثر الكتب المدرسية على الحط من شأن عصر حكم المماليك الذين خلفوا الأيوبيين عام ٦٤٨هـ ، وطالت مدة حكمهم حتى عام ٩٢٤هـ وكأن مؤلفي تلك الكتب نظروا إلى السياسة وجانبوا الفكر، واعتنوا بالحروب، وغفلوا عن التأليف ذلك أن سلاطين المماليك حاولوا تقليد أسلافهم الأيوبيين في توريث الحكم، مما أدى إلى كثرة الانقلابات والاضطرابات.

ولعل الأحداث الحافلة التي شهدتها قرون حكم سلاطين المماليك مثل بداية الحملات الصليبية بغزو الفرنسيين لدمياط، وسقوط الخلافة في بغداد (٦٥٦هـ) وهزيمة التتار في عين جالوت (٦٥٨هـ). لعل تلك الأحداث الكبرى قد استحوذت على اهتمام المؤرخين المعاصرين ، مما قلل من اهتمامهم بالاطلاع على آداب تلك القرون ، فتعجلوا في الحكم عليها بالضعف والتهافت.

على أن عصر المماليك ضم نخبة من ألمع علماء الإسلام في تخصصات شتى مثل الفقيه ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، والمحدث ابن حجر العسقلاني، والمؤرخين ابن شاكر الكتبي، وابن دقماق، والقلقشندي والسيوطي وابن الأثير، والمفسرين كابن كثير والأطباء كابن أبي أصيبعة وابن النفيس وابن الأكفاني.

وضيفنا في السطور القادمة واحد من هؤلاء الأطباء ، غير أن شهرته لم يكتسبها من مهنة طب العيون التي امتهنها ، وإنما اكتسبها من كونه شاعراً هازلاً اتخذ الفكاهة منهج حياة ، وسمة شخصية مع أنه كان حاد الطبع، عصبياً، ضيق

الصدر ويبدو أن هذه سمة معظم الفكهين حين يصنعون النكتة، ويبدعون البسمة فيما هم في حياتهم الخاصة – يعانون أشد المعاناة.

وقد كان ضيفنا كحالا [وهو لقب طبيب العيون آنذاك] ولد بالموصل ، ونال فيها تربية وتعليماً بين أهله وذويه ، وكان مولده عام ٦٤٦هـ ، فلما دخل المغول الموصل (٦٦٠هـ) بعد سقوط الخلافة في بغداد بسنوات أربع. ضاق صاحبنا الحكيم شمس الدين محمد بن عبد الكريم بن دانيال بن يوسف الخزاعي، ضاق بحياته تحت احتلال المغول ، فهاجر من الموصل إلى مصر، ومارس مهنة الكحالة (طب العيون) وذاع صيته في مهنته ، ولكن الذيوع الأكبر ناله من تفرده بفنونه الشعرية.

فقد عرفت مصر في عهده البواكير الأولى لفن المسرح، وكانت تلك البواكير أشبه شيء بما يسمى الآن (مسرح العرائس) وكان الاسم الذي اشتهرت به تلك البواكير المسرحية الأولى هو " طيف الخيال " حيث كان الجمهور يشاهد دمى تتحرك وتتحاور، تختفي ملامحها تحت أغطية كثيفة، ولكن أحداثها واضحة مسموعة.

ومع الأسف الشديد ، لم ينل هذا الفن ، ولا هذا الشاعر ما يستحقانه من عناية ودراسة ، فلا نعلم دراسة تخصصت فيه إلا ذلك الكتيب القيم الذي نشره الدكتور ابراهيم حمادة عن الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر [الهيئة العامة للكتاب حاليا]بعنوان " خيال الظل ومسرحيات ابن دانيال" . وكان ذلك في السبعينيات على وجه التقريب.

وكان ابن دانيال يكتب كثيراً من الأشعار التي يرددها أبطال "طيف الخيال" ومعظمها أشعار فكهة ساخرة ، تمثل لوناً جديداً من ألوان النقد الاجتماعي الساخر الهادف، لم يكن لأدبنا العربي القديم عهد به قبل تلك الفترة.

وديوان ابن دانيال حافل بأشعار متنوعة الأغراض، ففيها السخرية الشخصية والسخرية العامة، ونرجح أن هذا الديوان لم ينل عناية كافية من الباحثين لما يكثر فيه من ألفاظ عامية، وإن كانت أحياناً فصيحة الأصل، ولما يكثر فيه من معان جارحة للحياء العام. غير أن أبياته التي تشيع في كتب تاريخ الأدب هي تلك التي وصف فيها بيته الضيق المكتظ بالحشرات فذلك حيث يقول:

أصبحتُ أفقرَ مَن يَروحُ وَيغتدي ... ما في يَدي من فاقة إلاّ يَدي

في مَنزلٍ لم يَحوِ غيريَ قاعداً ... فمتى رقدتُ ، رقدتُ غيرَ مُمَدَّد

لَمْ يبقَ فيه سوى رسومِ حَصيرةٍ ... ومخدّةٍ كانتْ لأُمِّ المهتدي

تُلقى على طُرّاحةٍ في حَشْوها ... قملٌ شبيه السمسمِ المتبَدِّدِ

والبقُّ أمثالُ الصّراصرِ خِلقةً ... من مُتهمٍ في حَشوها أو مُنْجدِ

وترى بَراغيثاً بجسمي عُلِّقَتْ ... مثل المحاجمِ في المساءِ وفي الغدِ

وكذا البعوضُ يطير وهو بريشهِ ... فمتى تمكّنَ فوقَ عرقٍ يفصُدِ

كما اشتهر ابن دانيال، بلون آخر من الشعر، أسماه بعض الدارسين شعر "تحصيل الحاصل" وهو شعر فكاهي رائع ، تأتيه الفكاهة وخفة الظل من بنيته الفنية التي تأخذ شكل شعر الحكمة، أما مضمونه فبعيد عن أية حكمة !! ، بل هو كلام شديد السذاجة صب في شكل حكمة غالية نادرة فمن حكمه تلك المزيفة " إنك

إذا رأيت رجلا عاريا مرتعدا في الشتاء فسوف يسألك ثوبا أو غطاء يقيه البرد !!!" ومن يقتل أفعى نهارا فقد تؤذيه !! والذي يعاني من الصداع لن ينفعه الكحل إذا اكتحل!! والطفل يضحك حين تمنحه الحلوى ، أما إن أخذتها منه فإنه يبكي !! وقد يخدش القط من يلاعبه ، والكلب يعوي إذا أوجعه الضرب !!! فتأمل من درر تلك الحكم قوله:

إذا وَجَـدْتَ في الشِـتاءِ عاريـاً ... مُرتَـعِداً ، نـادى عَليْـكَ بالدّفـا

مَـنْ قَتَـلَ الحيّـة في هاجـرةٍ ... عـرَّضَ نَـفْسَهُ يقينـاً للبلـى

وَكـلُّ مَـنْ يَشـكو صُـداعَ رأسِـهِ ... فلـيسَ يَشـفي مـا بـه كُحْـل الجـلا

ولـيسَ مَـنْ يسـكُنُ قاعـاً صَفْصَفـا ... مثـلَ الـذي يسـكُنُ بيتـاً بالكِـرى

والقـطُّ قـد يَخْـدِشُ مَـنْ لاعَبَـهُ ... والكلـبُ إنْ أوجَعَـه الضَـرْبُ عـوى

والطّفـلُ قَـد يَضْـحكُ إنْ أطعَمْتَـه ... الحلـوى وإن أخذتـَها منـهُ بكـى

والخُبْـزُ للجـائعِ أدمٌ كلُّـهُ ... والصّـيْفُ أدفـا زمنـاً مـنَ الشتـا !!

ويشـبعُ الجـائِعُ بالخُبـزِ ولا ... يَشْبَعُ مَنْ مَصَّ - مِنَ الجوع - النّوى!!

وإذا كان تراثنا الشعري القديم قد حفل بقصائد أو مقطوعات قصيرة، لشعراء تأثروا لفقد بعض حيواناتهم الأليفة كالخيل، والحمير، والقطط والكلاب ، فإن شاعرنا ابن دانيال هذا قد تفرد - في حدود علمنا المتواضع - بقصيدة مطولة رثى بها ثوراً كان له ونفق !! ، ولا يستطيع قارىء القصيدة [التي تقع في عشرين بيتاً] أن يجزم برأي فيما إذا كان هذا الشاعر يرثي ثوره رثاءً حقيقياً، أم أنه يهزل كما

رأيناه يهزل في تلك الأبيات النادر مثلها في تراثنا ، وهي التي تمثل لوناً من " الحكمة الزائفة" !!.

يقول ابن دانيال إنه فوجىء بوفاة ثوره العزيز الذي يلقبه ب "ذي القرنين" ذي اللون الأصفر الجذاب الذي يشبه لون الشفق، فكأن الشفق كسا هذا الثور درعاً وبروداً :

على مثلهِ ثَوراً ، بُكايَ يَزِيدُ ... فَلاَ بَرَدا جفنايَ وهو يجودُ

رزئتا بذي القَرنَيْن بأساً وَنَجْدَةً ... لهُ عَدَدٌ من بأسهِ وعديدُ

بدا وهَلالُ الأُفقِ تاجٌ لرأسهِ ... ومَنْ شَفَقٍ دِرْعٌ لهُ وبَرودُ

فَلَو أنه في ليلةِ العيد لاحَ لي ... لَقُلْتُ هلالٌ قد أطلَّ وعيدُ

وذي أربَعٍ قد قُمِّعَتْ بزَبرْجَدٍ ... وهضيهاتَ يحكي ما أقلَّ عمودُ

وفي الجزعِ من رَوْقيه شبْهٌ ولَوْنُه ... عقيقٌ وَنَظْمُ الوَدْعِ منه عقودُ

وقوله " فلا بردا جفناي " إما أن يكون متعمدا للتفكه – على نهج الحلمنتيشيين المعروف- أو أن يكون قد استعمله على لغة معروفة في الفصيح يسميها النحويون تظرفا لغة " أكلوني البراغيث"، وجاء عليها قوله تعالى :

﴿ ...وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ... ﴾ (1)

ويتحسر شاعرنا على نفوق ثوره مصطنعا لوناً من التلاعب اللفظي بين هذا الفقيد، وبين برج " الثور " أحد الأبراج الفلكية المعروفة بأن مواليدها يكونون غالباً

---

1 . سورة الأنبياء : من الآية ٣ .

من السعداء الذين ترتفع أقدارهم يوماً بعد يوم كما يذكر أن ثوره كان من تلك الثيران التي تهزم مصارعيها فيولون الأدبار مستسلمين للهزيمة. ولسنا ندري على وجه اليقين أكانت مصر والشام- حيث عاش ابن دانيال - تعرف آنذاك مصارعة الثيران أم أن هذا الوصف، كان خيالاً محضاً من هذا الشاعر العجيب ؟ فهو يقول كم من فارس من مصارعي الثيران تصدى لصراع هذا الثور ، فلما أن رأى بأسه وخشي الهلكة وخسارة الرهان ، أسلم الريح ساقيه ، وكانت مسافة البريد [وهي مسافة أربعة فراسخ] هي أقرب مكان توقف فيه هذا الفار من المصارعة !! :

حَلا منهُ برج الثورِ والشَرَفُ الـذي سعودٌ له نحو العُلا وصعـودُ

فَكمْ - لرِهانٍ - فَرَّ منه محـاربٌ هزيماً وأدنى ما وراهُ بَريـدُ !!

ثم يأخذ شاعرنا في تعداد مآثر ثوره الفقيد، فيذكر أنه حين كان ينكث في الأرض بقرنيه، فيثيرها تراباً يصاعد إلى عنان السماء، لم يكن يفعل ذلك عبثا ولهوا بل سعياً إلى مواجهة "عسكرية" مع خصم من بنى قومه يسمع به ولا يراه . هذا الخصم هو ذلك الثور المجهول الذي زعموا أنه يحمل الأرض على قرنيه . فإذا نال منه التعب نقلها إلى قرنه الآخر فيحدث فيها ما يحسه الناس من الزلازل والهزات الأرضية . وهذا الاعتقاد الشعبي كان سائداً في تلك العصور، وذكره ابن إياس المعاصر لشاعرنا ابن دانيال - أحد مؤرخي العصر المملوكي في كتابه الشهير " بدائع الزهور في وقائع الدهور ".

فكأن ثور ابن دانيال، كان – حين ينطح الأرض – يبحث عن ابن عمه حامل الأرض على أحد قرنيه لعله يعينه في حملها، و ينتزعها منه، أو يدخل معه في مصارعة: أيهما أشد قوة وأعظم بأساً؟.. فيقول شاعرنا:

وَقالوا تَراهُ يَبحثُ الأرضَ ناطحـا   فَيَصْعَدُ نحوَ الجوِّ منه صعيـدُ

فقلتُ لَهم يبغي الذي يحملُ الثـرى   بقّرنيه فالأرضونَ منه تميـدُ

ويصف ابن دانيال، ما كان يتمتع به ثوره النافق من مزايا. فهو ثور عظيم النفع كان يستعمله صاحبنا في إدارة ساقيته ليجلب الماء من الترع فيسقي أرضه لتجود له بالخير الوفير.

ويتغزل في جمال ثوره إذا تأمل ما في وجهه من حسن التقاطيع، وتناسقها. كما يتحلى إلى جانب صباحة الوجه، ووسامته، بسيما الأتقياء الصالحين فهو إذا تهادى في "الزريبة" وسط البهائم راعك ما يبدو عليه من الوقار والاتزان فكأنه قائم من سجود وهو يسبح في كل صباح:

مرابـع فيهـا قـائمٌ وَحَصيــد   وما زالَ يسقي الحرثَ ريّاً فأخصَبَت

شـهيٌ رضـابِ المرشِـفَين بَــرودُ   فآهـاً لـهُ ورد الشّبابِ أخـا لمـى

وذي أربَـعٍ قـد قُمّعَـتْ بزَبرْجَـدٍ   وهضيهاتَ يحكي مـا أقلَّ عمـودُ

إذا اجتـازَ في سـاجِ الزرائـبِ خلتـهُ   مُسَبحَ صبْحٍ قـدْ عـراهُ سجــودُ

ويذكر ابن دانيال أن ثوره ما نفق إلا لأن الحاسدين الأشرار رموه بنظراتهم النارية المدمرة. فأردوه قتيلاً. فيا ليت حاسديه ماتوا بحسرتهم، وعاش هذا الثور

يؤدي واجبه مع صاحبه ، فهذا الثور الوفي النبيل يستحق في نظر صاحبه ابن دانيال أعلى درجات الحب والتقدير، حتى إنه ليؤكد لنا أن الهنود والبراهمة إنما حرموا أكل لحوم البقر إكراماً لثور ابن دانيال ، الذي اغتالته يد المنية فبكت عليه قواديس السواقي ، والتروس التي كانت تربطه إلى تلك القواديس ، وبكت عليه "قلوب" النخيل بما تحمله من جريد أخضر:

رَمَتْهُ عُيونُ الحاسدينَ بنظرةٍ ... فَلَيْتَ بَقِي دهراً ومَاتَ حسودُ
ومَنْ أجلهِ قد حَرّمتْ لحمَ مثلهِ ... بَراهِمةٌ في شَرْعِها وَهنودُ
بكته قَواديسُ السّواقي بأدمُعٍ ... غِزارٍ لَها بَينَ الحياضِ مُدودُ
وأنت لهُ الأتراسُ حُزناً وحرقةً ... وَذابَ لهُ قلبٌ عليهِ جريدُ

وتصل ذروة ألم شاعرنا لفراق ثوره الأصيل ، أنه رفض شراء ثور غيره تهيم إليه قلوب البقر ، لأن ثوره كان من نوع نادر من الثيران ، حتى إنه لو عاش قبل عصره وأدرك أيام نبي الله موسى عليه السلام لعبده بنو إسرائيل ولاتخذوه إلهاً يتقربون إليه:

ومَن بَعدِهِ ما عانقَ الباب سيّد ... له كل أبقار البلاد عَبيدُ
ولا جازَ من تحتِ الجوائزِ مثلُهُ ... وسرقينُه مِسْكٌ يفوحُ وعودُ
فلو كانَ في أيامِ موسى صَبا إلى ... عبادَتهِ - في المشركين - يهودُ

وهو في هذا البيت الأخير يشير إلى ما كان من أمر قوم موسى حين خدعوا السامري حتى صنع لهم عجلاً من الذهب فعبدوه في أثناء غياب موسى عليه السلام منهم وذهابه لميقات ربه.

إن هذه القصيدة نموذج فذ لنوع من الشعر الفكاهي اتسعت له قريحة الوجدان الفني العربي في عصوره المتتابعة، وبلغ هذا النموذج مستوى عالياً عند شاعر "تحصيل الحاصل" ذي الحكم المزيفة ابن دانيال الموصلي !!.

يا زوجات الشعراء .. صبرا عليهم !!!

البيوت أسرار، هذا صحيح إلا عند الشعراء، فبيوت الشعراء كأبيات الشعر تنم عما وراءها، فلا تكون لبيوتهم أسرارها الخاصة.

فالشعراء غالباً ما يلجئون إلى الشعر يستظلون به من قيظ حيواتهم الخاصة وزوجات الشعراء فدائيات بغير شك، إذ يقبلن الحياة مع رجال ليلهم نهار ونهارهم ليل، أحزانهم طويلة، وأفراحهم طفولية مفاجئة، آمالهم معلقة بخيوط أشعة القمر الفضية، وسعادتهم تبدأ مع شقشقة العصافير.

وقد حفظت لنا كتب التراث العربي الأدبية نماذج شتى من حياة الشعراء الذي وصفوا مشاكلهم الزوجية، كما زخرت تلك الكتب بقصص الشعراء العشاق الذين حيل بينهم وبين محبوباتهم حيناً بسبب صرامة التقاليد، وحيناً بأسباب أخرى.

ولما كان الشعر أقرب إلى حياة الألم والحرمان والعذاب، منه إلى حياة النعيم واللذة والهناءة، فإننا سنستعرض فيما يلي بعض أشعار القدماء، أو بتعبير آخر سنتسلل إلى بيوتهم لنرى كيف كانوا يعيشون حياتهم الزوجية.

وأول شاعر سترون بيته هو يزيد بن حبناء، أحد شعراء الخوارج الفرسان إنه مسافر في إحدى الغزوات الإسلامية على الحدود، وهاهي ذي زوجته تكتب إليه رسالة، لا تبثه فيها شوقاً وحنيناً، ولا تسطر له فيها سطوراً تثبت أقدامه عند الحرب، لا تحدثه عن الشجاعة أو البسالة. وإنما تحدثه فيها عن نفسها وتسأله عن

السبب في عدم إرساله الهدايا إليها ، وتلومه على تقصيه في إرسال الغنائم إليها وهاهو ذا يزيد يخلو إلى نفسه فيدندن قليلاً ، ثم هاهو ذا يستخرج من جيبه ورقة وقلماً ويخط إلى زوجته رسالة يشرح فيها ظروفه لزوجته التي يحبها يسألها فيها ألا تعجل ، وأن تتريث لأنه لم يجمع من المال ما يكفي لشراء هدايا لها :

ذري اللوم ، إن العيش ليس بدائم ... ولا تعجلي باللوم يا أم عاصم

فإن عجلت منك الملامة فاسمعي ... مقالة معني بحقك عالم

ولا تعذلينا في الهدية ، إنما ... تكون الهدايا من فضول المغانم

ونترك يزيد بن حبناء يتلطف مع زوجته في الرد ، ويذكر لها أنه يعرف حقوقها ويعني بها ، وأن الهدايا ستجيئها في وقتها عندما تزداد مغانمه .

وننتقل إلى شريح القاضي فنراه يلوم زوجته ، ويعيق بها وهو يربيها ويؤدبها فيشرح لها أن حبه لها لن يستمر إذا ما دأبت على استفزازه ، وينصحها أن تتركه وشأنه إذا رأته غاضباً ساخطاً لأن الحب والغضب يتصارعان إذا اجتمعا في القلب فينهزم الحب :

ومَن بَعدِهِ ما عانَقَ الباب سيِّد ... له كل أبقار البلاد عَبيدُ

ولا جازَ من تحتِ الجوائزِ مثلُهُ ... وسرقينه مِسْكٌ يفوحُ وعودُ

خذي العفو مني ، تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في سورتي حين اغضب

فإني رأيت الحب في القلب والأسى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

ثم ننتقل إلى بيت شاعر يضطرب الرواة في ذكر اسمه فيذكرونه أحياناً باسم أبي دهبل الجمحي ، وأحياناً باسم أبي دعبل القريعي ونحن نختار الاسم الأول لأنه

أكثر شيوعاً ، ولعل الاختلاف مرجعه إلى التصحيف ، إن أبا دهبل هذا رجل رزقه الله زوجة غير صالحة ، تسومه العذاب ، وتنكد عليه حياته ، إنه منزو في ركم من أركان بيته يلفه حزن عميق ، وتلوح على خده دموع ندم غزار ، ما هذا ؟ إن أبا دهبل يبكي وإنه يدعو على نفسه ، يتمنى أنه لم يخطب زوجته تلك .

فهول يقول ليت بعيري ضل بي الطريق يوم ذهبت أخطبها وليتني سرت عشرة أيام في طريق مائل بعيد عنها ثم رجعت دون أن ألقاها أو أخطبها :

يـا ليـتني يـوم ذهبـت خاطبـاً　　لقـــاني الله طريقـــاً شـــاطبا

لا أممـــا منهـــا ولا مقاربـــا　　حتى إذا مـا سرت عشرا دائبـا

فلنترك الرجل لحزنه ولنتسلل قبل أن يرانا فيفتك بنا ، وكفاه ما به من ندم وحسرة .

وإذا كان أبو دهبل يتحسر على زواجه ممن خطبها ، ويتمنى أن لو كان قد أخطأ الطريق ، فها نحن أولاء نرى رجلاً آخر يثار لنفسه من مخطوبته التي رفضته

إنه حنظلة الخير بن أبي رهم بن حسان أحد بني الغوث من قبيلة طيء ويسيمه الرواة الراهب الطائي ، كان حنظلة قد غزا مع كسرى فهلك قومه ، وضاعت أموالهم ، فعاد خائباً ، وبعد وقت غير طويل تقدم امرأة فرفضته لأنه لا أهل له ولا مال فقال :

تلـك ابنـة العـدوي قالـت بـاطلاً　　أزرى بأهلـك قلـة الأمـوال

إنـــا لعمـــر أبيـــك يحمـــد ضـــيفنا　　ويسـود سـيدنا علـى الأقـلال

غضبت علي أن اتصلت بطيء ... وأنا امرؤ من طيء الأجيال

أحلامنا تزن الجبال رزانة ... ويزيد جاهلنا عن الجهال

فهو يرد على اتهامها له ويزعم أنه من قوم تشكرهم ضيوفهم ، ويسود سادتهم ولو قلت أموالهم ، ويفخر بأنه من طيء التي تشبه الجبال في الثبات والرسوخ وتتصف بالحلم وهو علامة الحكمة والجهل (الظلم) وهو علامة القوة . وقد أشار الآمدي إلى أن الفرزدق سرق بيته المشهور :

أحلامنا تزن الجبال رزانة ... وتخالنا جناً إذا ما نجهل

من البيت الأخير من أبيات حنظلة الطائي .

وممن خطبوا فرفضوا أيضاً فراصي بن عتبة الأزدي ، خطب ابنة عم له وكان يهواها فلم يزوجوه إياها ، وتزوجت من غيره ولكنه لم ييأس . ولم يستطع أن ينسى حبه القديم ، فهو سينتظر عسى أن يطلقها زوجها ، أو يموت عنها فيتقدم إليها من جديد :

تربص بها ريب المنون لعلها ... تطلق يوماً أو يموت حليلها

ثم ننتقل إلى فريق آخر من الشعراء الذين أصاب حياتهم ألم بسبب زوجات آبائهم . فهاهو ذا القلاخ بن زيد أحد بني عمرو ابن مالك . تزوج أبوه بعد وفاة أمه امرأة مشاكسة تكيد الابن وتعمل على التفرقة بينه وبين أبيه . فهو يتحسر على نفسه ويتوجه بالحديث عن أبيه وجهة المعاتبة واللوم ، فيذكره بأنه أقرب رحماً إليه من زوجته الجديدة ، فهو ابنه الذي يذود عنه إذا دهمه بأس ، ويقاتل عنه إذا

كانت الحرب ، أما زوجته فلن يكون شأنها إذا اشتد البأس إلا شأن سائر النساء البحث عن زينتها ولهوها :

يخصص زيد زوجه فيطيعها ... علي ، وللواشي أغش وأكذب

فلو جاء يوم ينشف البأس ريقه ... لقاتلت عنه اليوم ، وهي تخضب

ولا يستوي يا زيد درج ومجمر ... وصدر سنان في الحروب محرب

وهذا الفرات بن أبي الخنساء الجشمي (من بنى تميم) خطب امرأة فرفضته ثم تزوجت أباه ، فهو يهزأ من اختيارها ويصف زوجها - أباه - بأنه عجوز أشمط شاب شعره وزاغ بصره ، ووهن عظمه ، فلا خير فيه لزوجة شابة ما زالت في ميعة الصبا ومقتبل العمر وشرخ الشباب :

يا أم علوان هلا كنت قلت لهم ... إذ يقرنونك : إني أبغض الشمطا

ما خير زوج فتاها لا يداعبها ... وإن تنقط ألا يبصر النقطا

ألم تري شيخكم شابت مفارقه ... واللحم عن عضده قد ضل واختلطا

أما الشعراء المحرومون الذي يحل بينهم وبين معشوقاتهم فظلوا يتباكون على حبهم القديم ، ويتسقطون أخبار محبوباتهم من بعيد . فمنهم عثمان بن سالم أحد موالي الحجاز ، كان يعشق امرأة من بنى عمرو بن كلاب تسمى شعثاء وشاءت الأقدار أن تتزوج شعثاء هذه الفضل بن الربيع الوزير ، وذهبت مع زوجها إلى الحج وبينما هما عائدان مر العاشق القديم عثمان بن سالم فرأى محبوبته وقد ضربت لها

قبة فخمة يقوم حولها جنود غلاظ شداد فثارت كوامن أشجانه ، وتذكر ألمه القديم الجديد :

نأت شعتاء عنك فما تزور ولطت دونها عنك الستور
فراحت في القباب الحمر خود مبتلة لها وجه نضير
وأمست دونها حرس شديد وأبواب مظاهرة ودور
أتانا البين من شعتاء بغتا وذلك عندنا حدث كبير

ومنهم عبد الله بن جحش الذي يبدو من حديث المؤرخين عنه أنه كان يعاني من زوجة مشاغبة ، تلومه إذا تأخر عن موعد وصوله إلى البيت ، ربما لأنها كانت تعلم أن له عشيقة أخرى تسمى ظمياء يزورها فيقضي معها وقتاً سعيداً يستروح فيه أنسام سعادة لا يراها في بيته . . فهو يقول :

خليلي من عوف عفا الله عنكما ألما بها إن كان يرجى كلامه
فإن مقيلاً عند ظمياء ساعة لنا خلف من لومة سنلامه

وهذا رجل تشيع قصته في كتب التراث دون أن يذكر لنا المؤرخون شيئاً عن اسمه أو عصره تزوج امرأة جديدة ، فكانت جارية المرأة الجديدة تمر على بيت المرأة القديمة وتنشد قول الشاعر:

وما يستوي الثوبان : ثوب به البلى وثوب بأيدي البائعين جديد

فأرسلت المرأة القديمة جاريتها لتمر أمام بيت المرأة الجديدة لكي تنشد قول الشاعر :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

ويروون أحياناً قصة مشابهة ، تمر فيها جارية المرأة الجديدة على بيت القديمة فتنشد :

وما يستوي الثوبان : ثوب به البلى وثـوب بأيـدي البـائعين جديـد
قـالوا نكحت صغيرة فأجبتهم كم بين أشـهى المطـي إليّ مـا لم يركـب
حبـــة لؤلـــؤ مثقوبـــة نظمـت ، وحبـة لؤلـؤ لم تثقـب

فتمر جارية القديمة ببيت الجديد فتنشد :

إن المطيـة لا يلـذ ركوبهـا حتـى تـذلل بالزمـام وتركـب
والـدر لـيس بنـافع أصـحابه حتـى يؤلـف بالنظـام ويثقـب

وقد اجتهد الشعراء في بذل النصح للشباب الذي لم يتزوجوا ، فوضعوا لهم صفات المرأة التي تستحب خطبتها حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم ممن عاشوا حياة كئيبة خالية من السعادة فيروي لنا الأبشهي قول الشاعر :

صفات من يستحب الشرع خطبتها جلوتها الأولي الألباب مختصرا:
صبية ذات دين زانه أدب بكر . ولود حكت في نفسها القمرا
غريبة لم تكن من أهل خاطبها تلك الصفات التي أجلو لمن نظرا
فيها أحاديث جاءت وهي ثابتة أحاط علماً بها من في العلوم قرا

ويروي لنا الأستاذ يحيى حقي هذه الطرفة القصصية الرائعة والتي نختتم بها المقال :

بعـث امـرؤ لأبـي عزيـزة مـرة برسالة يبكي ويضحك ما بها

فيهـا يقـول أريـد منـك صـبية ... حسناء معروف ليدكم أصلها

وأديبـة وعفيفـة ولطيفـة ... وكريمـة وحليمـة في عقلـها

قد أحرزت في العلم غير شهادة ... وعلى النسا تفوق بفضلها

وتكـون أيضـاً ذات مـال وافـر ... تعطيه من بعد الزواج لبعلها

وأريـد منهـا أن تكـون مطيعـة ... أمـري فتتـبعني وتـترك أهلـها

فرد عليه أبو عزيزة قائلاً :

وافـى كتابـك سـيدي وقرأتـه ... وعرفـت هاتيك المطالب كلـها

لو كنت أقدر أن أرى من تشتهي ... طلقـت أم عزيـزة وأخـذتها

وهكذا يقدم لنا تراثنا الشعري العربي صوراً رائعة للإنسان الشاعر في حياته الخاصة ، سعيداً ، محروماً ، قلقاً ، معذباً ، حائراً ، عاشقاً ، صابراً . . . وهي سمة يتميز بها عطاء تراثنا المعطاء .

عشاق.. في مواقف محرجة!!

يموج تراثنا الأدبي بقصص العشاق الشعراء الذين ملؤوا الدنيا نحيباً ، ومزقوا نياط القلب بشكاواهم ونواحهم ، ومفرداتهم الشعرية تزخر بمرادفات : البين والهجر والبعد والضنى والنوى والجوى . . إلخ .

ولكننا اليوم نستضيف طائفة خاصة من الشعراء الذين عبروا عن أشواقهم تعبيراً فطرياً عكس لنا روحاً مرحةً وظلا خفيفاً وفطرةً سمحةً يندر أن نجد أمثالها عند العشاق التقليديين اللهم إلا أن جادت قريحة أحدهم مرة بفكرة طريفة كالعباس بن الأحنف المتغزل الخفيف العفيف حين يقول :

هل تأذنون لصبّ في زيارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر

لا يضمر السوء إن طال الجلوس به ... عف الضمير ولكن فاسق النظر

وأول ضيوفنا شاعر لم يذكر لنا الرواة اسمه ، ولكنهم رووا لنا قوله :

فما نطفة من ماء مزن تنسمت ... رياح لأعلى متنه فهو قارس

بأطيب من فيها – وما ذقت طعمه ... ولكنني فيما ترى العين فارس!

فهو يوازن بين ريق محبوبته – الذي لم يذق طعمه – وبين سقيط الماء البارد الذي تشتهيه النفس ، ويعتمد في هذه الموازنة (التي تقوم على حاسة الذوق) على تحليلاته العميقة (التى تقوم على حاسة الرؤية) ! وهو يدعي الفروسية في الرؤية !!

وهذا شاعر آخر لا ندري أكانت حبيبته مخيفة الشكل إلى هذا الحد ؟ أم أنه كان ضعيف الشخصية إلى هذا الحد ؟ ذلك الحد الذي يجعله إذا خلا إلى نفسه يرتب الأحاديث وينسقها وينمقها ويدققها ويرققها حتى إذا التقى مع حبيبته

أصابه العي أو الوجوم أو الدهشة أو الخوف ، أو ذلك كله فراح يحدثها أحاديث عجيبة لا صلة لها بمشاعره :

أفكــر مــا أقــول إذا التقينـــا فترتعد الفرائص حين تبدو

وأحكــم دائبــاً حجــج المقــال وأنطق حين أنطق بالمحال

ولعل محبوبته كانت شرطية !!

وهذا شاعر سيئ الحظ ، أوقعه حظه العاثر في حب امرأة غليظة القلب لا ترضى منه بظاهر العشق ، بل تريده أن يتريث حتى تظهر عليه علامات المرض الذي لا يرجى له برء ، والسقم الذي لا يؤمل له شفاء ، إنه يشكو إليها ما يلاقي من عذاب هواها فترد عليه في دلال شكواه وترجوه أن ينتظر حتى يذهب جلده وعظمه وحتى يعيبه الخرس .

وبعد ذلك ترضى عنه !! فيقول :

شكوت إليها الحب قالت : كذبتني ألست أرى الأجلاد منك كواسيا

رويدك حتى يبتلي الشوق والهوى عظامك حتى يرتجعن بواديا

ويأخذك الوسواس من لوعة الهوى وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا شاعر يقدمه إلينا الجاحظ دون أن يذكر لنا اسمه . شاعر فارغ العين مولع بتتبع النساء ومغازلتهن .

وقد أعجبته امرأة محتجبة الوجه فتبعها لما رأى من حسن جسمها . فلما أسفرت عن وجهها (فإذا هي غول !!) .

كما يقول الجاحظ . فقفز الشاعر هارباً لما رأى من بشاعة وجهها وقال :

وأظهرهـا ربـي بمـن وقـدرة ... على ، ولولا ذلك مت من الكرب

فلما بدت سبحت من قبح وجهها ... وقلت لها : الساحور خير من الكلب

والساجور : خشبة تعلق في عنق الكلب ، يعني أن مرآها مغطاة خدعه عن حقيقتها ، وأن ما ظهر منها خير مما بطن .

وهذا شاعر يضرب به المثل في الحمق والغفلة يقول : أنه سيظل يعشق حبيبته ما عاش ، فإذا أحس بدنو أجله يعطي تفويضاً لعاشق آخر يكمل مهمته التاريخية وهي العشق ، والعشق فقط ! فيقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت ... أوكل بدعد من يهيم بها بعدي!!

وهذا شاعر مضطرب إذا التقى بحبيبته وخلال لهما الجو لم يفض لها بما يعتلج في نفسه من شوق ، ولم يبثها ما يعتمل في قلبه من حنين ، وإنما يشكو إليها ألماً يجده في كبده !! وهذا الألم سببه خوفه من الفراق !! فيقول :

ولما خلونا واطمأنت بنا النوى ... وعاد لنا العيش الذي كنت أعرف

أخذت بكفي كفها فوضعتها ... على كبد من خشية البين ترتجف!!

والمألوف عند الشعراء العشاق أن أكثرهم إذا انصرفت عنه محبوبته بكى واشتكى وذرف الدموع غزاراً على ذكريات حبه ، وما يزال يستشفع ويسترضي ويستلين قلب محبوبته عساها ترجع إليه . وبعضهم تتركه محبوبته وتتزوج غيره بعد أن تيأس منه وتشك في صدق عاطفته فيظل يبكي حبه القديم أو يعرض عن الزواج بغير محبوبته ، أو ينتظر طلاقها أو موت زوجها ، كذلك الذي تركته حبيبته وتزوجت غيره فقال مخاطباً نفسه :

تـربص بهـا ريـب المنـون لعلـها تطلق يوماً أو يموت حليلها

أما الذين يقفون مع المحبوب وقفة حازمة فما أقلهم من الشعراء العشاق فمنهم الذي يقول :

سلام عليها ما أحبت سلامنا فإن كرهته ، فالسلام على أخرى!!

وهذا شاعر من الأعراب ملته محبوبته وتركته غير عابئة بحبه، وهجرته هجراً غير جميل ، ولعلها بعثت إليه تخبره بأنها تركته سأماً ومللاً ورأت أو وراءها أوسع من أمامها ، أي أن لها بديلاً خير من عاشقها الذي يقف " محلك سر " فبعث إليها يقول :

فـإن تشـبعي منـا وتـروي ملالـة فـنحن – وبيـت الله – أورى وأشبع

وإن تجدي مـا خلـف ظهـرك واسـعاً فمـا خلفنـا مـن سائر الأرض أوسـع

وإن تنقضي العهد الذي كـان بيننـا فـنحن لمـا ضيعت أنسـى وأضـيع !!

وهذا شاعر آخر أشد غلظة من صاحبه ، وأعظم منه جفاء وسوء خلق ، فهو يدعو على محبوبته ويلعن حبه لها في لغة غليظة جافية تنم عن غيظ دفين ونفس سئمة فيقول :

أميطي الهوى عمن قلاك وعرضي لغيري به ، واسترزقي الله في الستر

فلو كنت لي كفاً إذن لقطعتها ولو كنت لي أذناً رميتك بالوقر

ولو كنت لي عيناً إذن لفقأتها ولو كنت لي قلباً نزعتك من صدري

وقد يكون الشاعر عاشقاً وفياً ولكن أقداره تقذف به بعيداً عن محبوبته فيضرب في الأرض يبتغي من فضل الله وما أن تمر عليه ليالٍ معدوداتٍ حتى يشفق

على نفسه الوحدة والغربة وقسوة الفراق ، فيكتب ويكتب ويظل ينتظر الجواب بلا جدوى . . وهذا واحد من هؤلاء ترك حبيبته وكتب إليها يبثها شوقه وحنينه وندمه على فراقها ويبدو أنها لم تعبأ به فقال :

أترحل عن حبيبك ثم تبكي ... عليه ؟ فمن دعاك إلى الفراق؟

كأنك لم تذق للبين طعما ... فتعلم أنه مر المذاق

أقم وانعم بطول القرب منه ... ولا ترحل وتكتب باشتياق

فما اعتاض المفارق من حبيبٍ ... ولو يعطى الشآم مع العراق

وهذا الحطيئة يهم بالسفر ويهيئ له أصحابه دابته وزاده ثم يخاطب زوجه في غلظة ليست غريبة على طبعه المعروف فيقول :

عدي السنين – إذا رحلت – لرحلتي ... ودعي الشهور فإنهن قصار..!!

فتقول له مستعطفة محذرة :

اذكر تحنننا إليك وشوقنا ... واذكر بناتك إنهن صغار...!!

فتدمع عيناه ، ويرق قلبه – على مافيه من جفوة – ويقول : حطوا ، فوالله لا رحلت أبداً .

وهذا زهير بن أبي سلمى الذي قضى عمره يتغزل في محبوبته أم أوفى ، يكتب عليه السفر أو يكتب على أم أوفى ، فينظر في أمره فيرى أنه متأثر بهذا الفراق ويتسقط أخبار أم أوفى ، فلا يرى فيها تأثراً بفراقه فيشكو :

لعمرك والخطوب مغيرات ... وفي طول المعاشرة التقالي

لقد باليت مظعن أم أوفى ... ولكن أم أوفى ما تبالي

وروي أن بشر بن مروان كان في معسكر له بالبصرة قرب حدودها فبلغه أن كثيراً من الجنود يتركون المعسكر ويترددون على المدينة فأصدر أوامره بمعاقبة من يوجد في المدينة من الجنود عقاباً غريباً ، وهو أن تسمر يداه بمسامير ، وكان في الجنود فتى عاشق ولهان لم يستطع أن يزور حبيبته فكتب إليها يقول :

لولا مخافة بشر أو عقوبته وأن تسمر في كفي مسمار

إذا لعطلت ثغري ثم زرتكم إن المحب إذا ما اشتاق زوار

(عطلت ثغري : أي تركت الثغر وهو مكان تجمع الجنود على الحدود) .

فكتبت إليه محبوبته تقول :

ليس المحب الذي يخشى العقاب ولو كانت عقوبته في كيه النار

إن المحب الذي لا عيش ينفعه أو يستقر ومن يهواه في الدار

فهرب الجندي العاشق ونزل البصرة ، فلما أمسكه الحرس جاءوا به إلى بشر فسأله عن سبب هروبه فقال هذه الأبيات ودفعها إليه ، فقرأها بشر وضحك ثم أمر منادياً ينادي :

من أحب المقام في المعسكر فليقم ، ومن أحب دخول البصرة فليدخل .

وهذا عاشق أحمق يشكو بثه وحزنه إلى أحد العلماء فيقول : إني صنعت شعراً وأريد عرضه عليك ، فيقول له : هات ما عندك ، فينشد :

إن جسمي سل من غير مرض وفؤادي لجوى الحزن غرض

فيقول له العالم : أحسنت ، ثم ماذا ؟ فيكمل :

كجــراب كــان فيــه جــبن دخـل الفـأر عليـه فقـرض

فيضحك العالم من حمقه وسذاجته

ومن الشعراء من يستعظم دلال محبوبته فيعاتبها في لغة ساذجة تعبر عن فطرة نقية ويختار صورة بسيطة من بيئته التى يعيش فيها أو يعبر عن ضيقه بمحبوبته تعبيراً فيه صراحة ومباشرة مقبولتان لظرفهما .

فهذا شاعر هجرته حبيبته فهو يعاتبها لأنها لم تبعث له(إنذاراً) حتى يتمكن من الاستعداد (لإخلاء الطرف) من عهدته فيقول :

أحـين ملكـتني أعرضـت عنـى؟ كـأني قـد قتلـت لكـم قتـيلا

فهـلا إذ هممـت بصـرم حبلـي جعلت إلى التصبر لي سبيلا؟

وهذا شاعر يعاتب حبيبته في حوار داخلي مع نفسه ، فهو يتحدث إلى نفسه شاكياً إليها محبوبته التي أطعمته في الوصال فظن أنها رضيت به وقبلته عاشقاً ولكنها لم تلبث أن خذلته ونسيت حبه ، فلما عاتبها طلبت منه أن يتركها وشأنها لأنها تريد العفاف ، ولعلها كانت تريد أن تتزوجه أو تتخلص منه لتفرغ لشؤونها ، فقال :

أطمعتنى فقلـت أخـذاً بكفي ثـم عـادت مـن بعـد ذاك بخلـف

زعمــت أنهـــا تريــد عفافـــاً قلـت : ردي علـى قلـبي وعفـي

وهذا شاعر يعاتب حبيبته في حوار داخلي مع نفسه ، فهو يتحدث إلى نفسه شاكياً إليها محبوبته التي أطعمته في الوصال فظن أنها رضيت به حبيبا وقبلته

عاشقاً ولكنها لم تلبث أن خذلته ونسيت حبه ، فلما عاتبها طلبت منه أن يتركها وشأنها لأنها تريد العفاف ، ولعلها كانت تريد أن تتزوجه أو تتخلص منه لتفرغ لشؤونها ، فقال :

أطمعتـنْي فقلـت أخـذاً بكفـي ثـم عـادت مـن بعـد ذاك بخلـف

زعمــتْ أنهــا تريــد عفافــاً قلـت: ردي علـيّ قلـبي وعِفّـي !

وهذا شاعر فاته قطار الزواج فيما يبدو ، حتى شاب شعره ، وتقدمت به السن ، فصبغ شعره وتقدم خاطبا شاعرة تدعى أم العلاء بنت يوسف بن حور المجلسي الحجارية، ذكرها صاحب المغرب، وقال: من أهل المائة الخامسة. فكتبت إلى ذلك الخاطب الأشيب تسفهه :

يــا صــبح لا تبــد إلى جــنح والليــل لا يبقــى مــع الصــبحِ

الشـيب لا يخـدع فيـه الصـبا بحيلــة فــاسمع إلى نصــحي

فـلا تكـن أجهـل مـن في الـورى تبيـت في الجهـل كمـا تضـحي!!

وكصنيع هذه الشاعرة ، صنعت شاعرة أخرى هي عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية .

قال أبو حيان في المقتبس لم يكن في زماننا في حرائر الأندلس من يعدلها علماً وأدباً وشعراً .

وفصاحة، تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة!! وكانت حسنة الخط .

تكتب المصاحف ، وقد ماتت عذراء سنة أربعمائة. لأنها لم ترض أحدا ممن خطبوها .

وخطبها ذات مرة بعض الشعراء ممن لم ترضه فكتبت إليه كما كتبت سابقتها تزجره زجرا عنيفا فقالت في غير رحمة ولا شفقة بهذا الخاطب الولهان إنها لا تحب أن تتزوج مطلقا ، ولو أرادت لاختارت من هو خير من هذا الخاطب التعس :

أنـا لبـوة لكـنني لا أرتضـي ... برقى مناخاً طول دهري من أحدْ

ولو أننى أختار ذلك لم أجب ... كلباً وكم غلّقت سمعي عن أسدْ

ويبدو أن المرأة إذا اجتمع لها الجمال والأدب والشعر ، صارت أكثر قسوة من غيرها كما رأينا في المثالين السابقين ، وإذا شئنا أن نعززهما بثالث تذكرنا موقف الشاعرة عائشة الإسكندرانية المعروفة بزهرة الأدب!! قال ابن سعيد: كان مجلسها يعرف ب"الروض" فقد قالت تخاطب شاعرا رقيقا [رومانسيا !!] بعث إليها بشعر ذكر فيه أن قلبه من الحب يتقلب في جمر الغضا.فكتبت إليه تسخر من مشاعره ، وتخشى على رواد مجلسها من الأدباء والأديبات من حر نار أشعار ذلك العاشق المسكين فنصحته أن يحتفظ لنفسه بمشاعره تلك الساخنة ، وقالت له :

إذا كـان قلبـك ذا صـاحبٍ ... فـلا تبعـثنّ بأسـراره !!!!!

فـإني لأشـفق مـن نـاره ... على " الروض" أو بعض أزهاره

وهذا شاعر عصبي ابتلى بعشق امرأة عصبية فهو يشكو وهي تشكو وهو يجادلها وهي تجادله ، ويبدو أنهما اتفقا على ألا يتفقا فهو يقول :

شكوت ، فقالت : كل هذا تبرماً ... بحبي ؟ أراح الله قلبك من حبي

فلما كتمت الحب قالت : لشد ما ... صبرت وما هذا بفعل شجي القلب

فشكواي تؤذيها وعتبي يسوءها ... وتغضب من بعدي وتغضب من قربي

فيا قوم هل من حيلة تعرفونها؟ ... أشيروا بها واستوجبوا الأجر في الصدِ

ونحن لا نجد له لا حيلة ولا حولاً ، ولا نريد من وراء مشورته أجراً ولا طولاً مادام غبياً ، لا يرى في هذه الدنيا الواسعة الآفاق إلا هذه المرأة الضيقة الأفق . . فلا حيلة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

هؤلاء الشُّعَرَاءُ .. وحِيَلُهُم الظَّرِيفة !!

كثيراً ما يقع الشعراء في مآزق بسبب طول ألسنتهم وسلاطتها، فيعرّضُون أنفسهم لما لا يطيقون من البلاء والمكروه.

وهنا نعرض بعض مواقفهم التي لجأوا فيها إلى الحيلة والذكاء وخفة الظل هروباً من العقوبة ، أو تخلصاً من موقف محرج ، أو تلطفاً في التعبير، أو إظهاراً لما حباهم الله تعالى إياه من ذكاء وفطنة، أو رغبة في قضاء مصلحة دون أن يفطن لذلك من يخشون بأسه.

ومن هذا النوع الأخير ما روي عن عاشقين شاعرين متعاصريْن هما: جميل بن معمر، وكثيّر بن عبد الرحمن .

فقد اشتاق جميل إلى بثينة بعد أن حيل بينه وبينها ، فقصد صديقه كثيّراً .

وقال له: "إن بثينة تقيم مع عمها، وحاشية عمها كثيرة. فاذهب إليها وخُذ لي منها موعداً نلتقي فيه". فأطرق كثيّر وهو يفكر فيما قد يناله من أذًى على أيدي حاشية عمها، وبعد تفكير عميقٍ اهتدى إلى حيلة يلبي بها رغبة صاحبه جميل .

فسأل جميلاً: متى كان آخر عهدك بها؟

قال : يوم كذا .

قال : وأين كان اللقاء بينكما؟

قال : في "وادي الدوم".

وقد أصاب ثوبها شيء فغسلته يومذاك.

فأتى كثيِّر إلى حي بثينة، فأخذ يتعرف إليهم، ويحادثهم، حتى انتهى إلى مجلس عمها قريباً من خيمتها فأخذ يحادثه. ثم رفع صوته وقال لعمها: سأسمعك أبياتاً قلتها في محبوبتي "عزة" حضرتني الآن.

قال: هاتها.

فأنشد بصوتٍ عالٍ لكي تسمعه بثينة .

قائلا :

بأن تجعلي بيني وبينك موعداً   وأن تأمريني ما الذي فيه أفعلُ

أما تذكرين العهد يوم لقيتكم   بأسفلِ وادي الدوم، والثوبُ يُغسَلُ ؟

ففطنت "بثينة" إلى أنه يقصدها .

فصاحت بصوت يسمعه عمها: اخسأ .

فصاح عمها : ما أخسأت؟

قالت : كلباً يعترينا ليلاً ثم رأيته الساعة !! فرجع كثيّر إلى جميل .

وقال : انتظرها الليلة فإنها ذكرت الليل !!.

وهذا شاعرٌ آخر نزل ضيفاً على قومٍ بخلاء فمكث فيهم ثلاثة أيام يعاني جوعاً شديداً.

فلقيه بعض أصحابه فسأله عن حاله مع مضيفيه البخلاء. فقال له مواربًا: كيف أصبحت؟

فقال الشاعر :

وصامتْ ثلاثاً ناقتي بفنائهم   ولو مكثتْ فيهم ثلاثاً لصلّتِ!!

فهو يقول : إن ناقته لم تعتلف علفاً لثلاثة أيام ، ولو مكثت ثلاثة أيام أخر فسوف تهلك وتموت !! [وصلّت هنا معناها: تلفت وماتت، وفيها تورية لمقابلتها مع كلمة "صامت" من قولهم: صلّ اللحمُ، وأصَلَّ: إذا أنتن وهو نيء . وحمّ وأحم : إذا انتن وهو مطبوخ]. فخرج الشاعر بهذه الحيلة من الإحراج مع هؤلاء البخلاء.

وحكى الربيع قال : حججت مع أبي جعفر المنصور، فلما دخل المدينة المنورة أمرني أن أبحث له عن رجل يسايره ويريه شوارع المدينة ومنازلها، فوجدت رجلاً ظريفاً منقطعاً ، فأحضرته له. فسار معه وكلما سأله المنصور عن شيء أجابه وحدثه بما يطربه.

فقال له المنصور: أين منزلك؟

قال : لا منزل لي ولا زوجة ولا ولد ولا جارية!!.

قال له : فمن أنت؟

قال : رجلٌ مغمورٌ لا تبلغك والله معرفته .

قال : قد أمرت لك بأربعة آلاف درهم!! فرمى نفسه فقبّل رجليه.

ثم خاف الرجل أن ينسى أمير المؤمنين ما وعده به ، فطلب من الربيع أن يتنجز الوعد من أمير المؤمنين .

قال الربيع: فقلت له: إنه راحل غداً فابحث لنفسك عن حيلة.

وفي اليوم التالي ، ركب المنصور فدعا بالرجل ثانياً ليحدثه، فبينما هما يسيران إذ مرّا على موضع .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي ذكره الشاعر الأحوص فلم يفطن المنصور لما يقصده الرجل .

وقال له : أنشدني الشعر. فخاف الرجل لأن القصيدة كانت مدحاً لعمر بن عبد العزيز، وهو أموي، والمنصور عباسي .

فقال : إنه يمدح عمر بن عبدالعزيز يا أمير المؤمنين؟! قال: وإن كان .

فأنشده الرجل :

يا بيت عاتكة الذي أتعزّلُ حذر العدا ، وبه الفؤاد موكّلُ

إنّي لأمنحك الصدود وإنني -قسماً- إليك مع الصدود لأمْيَلُ

إلى أن بلغ قوله :

وأراك تفعل ما تقولُ، وبعضُهم مذْق اللسان يقولُ مَا لا يفعلُ

فضحك الخليفة وفهم حيلة الرجل ، وأمر الربيع أن ينفذ له الوعد .

وروي أن رجلاً كان يختلف إلى الخليل بن أحمد ليدرس عليه علم العَرُوض وكان رجلاً بطيء الفهم ، غبياً ، فتبرّم منه الخليل ، ولكنه كره أن يحرجه ، فقال له ذات يوم : قطّع قول القائل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

ففهم الرجل غرض شيخه وانقطع عن درس العروض .

فقال الخليل : "ما رأيت أفطن منه على ما فيه من بَلَهٍ !!".

ويُحكى أن ابن دُريد تشوق لزيارة بغداد من كثرة إغراء أصحابه وتشجيعهم إياه على زيارتها.

فلما زارها لم تعجبه، لما رأى من أخلاق أهلها السيئة. فلما سأله بعض أصحابه عن رأيه فيها، أراد أن يعرّفهم حقيقة شعوره من غير أن يستفز أهل بغداد فيفتكوا به.

فقال لهم :

سمعتُ بذكرِ النّاسِ هنداً، ولم أزَلْ أخا صَبْوةٍ، حتى نظرتُ إلى هِندِ

فلما أراني اللّه هنداً وزرتُها تمنيتُ أن أزدادُ بُعْدًا على بُعدِ!!

وقيل: إن شاعراً كان يحترف الغناء، فزار يوماً بعض أصحابه، وكانوا قد انتهوا من تناول طعام الغداء. فطلبوا منه أن يشاركهم الشراب فشرب معهم - وهو جائع - ثم طلبوا منه أن يغني لهم.

فما زال يغني وهو يكابد مكروهاً عظيماً من الجوع فلما فاض به الكيل غنى لهم:

خليليَّ داويتما ظاهراً فمن ذا يداوي جوًى باطِنا؟

ففطن صاحب الدار إلى قصده وأمر له بطعام عاجل ..

وروي أن الفرزدق دخل على بلال بن أبي بردة، فوجده يذمّ في قبيلة مضر ويمدح اليمن .

فقال الفرزدق : إن فضل اليمن لا يستطيع إنكاره أحد لا سيما إذا عرف ما فعله أبو موسى مع رسول اللّه ﷺ. فقال بلال وقد شعر بالخوف من لسان الفرزدق:

"إن فضائل أبي موسى كثيرة، فأيها تعني؟".

فقال الفرزدق : إن رسول الله ﷺ غَلَبه دمه في بعض أسفاره فحجمه أبو موسى .

فقال بلال : "أجل .

لقد فعل ذلك برسول الله ﷺ ولم يفعله بأحدٍ قبله ولا بعده"-أي أنه لا يحترف الحجامة لأن الفرزدق أراد تعييره بهذه الحرفة- فقال الفرزدق : "إن الشيخ [يعنى أبا موسى] كان أتقى لله وأعلم به من أن يُقدم على حجامه نبيه ﷺ بغير حذق"!! [أي بدون خبرة سابقة بهذه الصنعة] فسكت بلال مفحما ، وعدها العلماء من جوابات الفرزدق المسكتة التي اشتهر بها!!.

وقيل : التقى رجلان أحدهما من بني تميم والآخر من بني نمير، في مجلس من المجالس ، فخاضا مع الخائضين في ذلك المجلس، حتى قال التميمي : "يعجبنى من الجوارح: البازي".

فرد النميرى في الحال قائلا : "لا سيما إذا كان يصيد القطاة (الحمامة).

فضحك الجالسون إذ فطنوا إلى ما قصده الرجلان.

فقد أراد التميمي قول الشاعر جرير:

أنـا البـازي المطـلُّ علـى نـُميرٍ أُتِحْتُ من السماء - لها- انصباباً

وأراد النميرى قول الطرماح :

تميمٌ بطرق اللـؤمِ أهـدى من القَطَا ولو سَلَكتْ طُرْقَ المكارمِ ضَلَّتِ!

وقد يتخذ الشعراء من إعاقاتهم البدنية حيلاً لطيفة كما فعل الشاعر الأحول أبوحفص الشطرنجي حين قال :

حمدتُ إلهي إذ بُلِيت بحبّها | على حَولٍ يُغني عن النـَّظَرِ الشَّزرِ

نظرتُ إليها، والرقيب يظنني | نظرتُ إليه، فاسترحتُ من العذرِ

ولما أصيب الشاعر رجاء بن الوليد الأصفهاني بضعف السمع الذي يكاد يصل إلى الصمم ، كان يتحين الفرص للحديث مع محبوبته لكي تلصق وجهها بوجهه وترفع صوتها حتى يسمع ، فأخذ قول أبي حفص الشطرنجي وغيّر فيه ، فقال مستخدماً صيغة المذكّر:

حمدتُ إلهي إذ بُلِيت بحبّه | على طَرشٍ يُشفي ويُغنى عن العُذْرِ

إذا ما أراد السرّ ألصق خَده | بخدي اضطراراً ليس يدري الذي أدري!!

أي : هو في حاله يتكلم ، وأنا في حالٍ أخرى من الصبابة والوله والسعادة لالتصاق الخدين .!!

ولما ورد الأحنف على معاوية، كان في مجلسه عمرو بن العاص، فقال عمرو لمعاوية : أتأذن لي أن أمازح الأحنف؟

قال : لا تفعلْ فإنه جاهز الجواب .

فأبى عمرو إلا أن يمازحه.

فقال : يا أحنف ما معنى قول الشاعر يزيد بن الصعق الكلابي :

إذا ما مات ميْتٌ من تميمٍ | وسرّك أن يعيش فجيءْ بزادِ

بخبزٍ ، أو بسمنٍ ، أو بتمرٍ | أو الشيء الملفف في البِجادِ

فقال : أراد السخينة (لون من الطعام) يرحمك الله!!.

فضحك معاوية وقال لعمرو بن العاص : ذُقْ عَقَق!!.

والسخينة طعام كانت تُعيّر به قريش . هجاها به كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه ، وقبله خداش بن زهير العامري. وغيرهما من الشعراء.

وأما قول معاوية (دُقْ عَقَقْ!) فهو معدول عن قولهم :(يا عاقّ) ، أي : تحمل نتيجة اختيارك لمازحة نهيتك عنها فعققتني .

وهاهوذا الأحنف قد عيّرك بما يُخجلك .!!

وذكر أبو الحسن الماوردي : أن أبا جعفر المنصور بلغه عن جماعة من كتاب دواوينه أنهم زوروا فيها وغيروا ، فأمر بإحضارهم، تمهيدا لمحاسبتهم وبتأديبهم فقال كاتب شاعر شاب منهم معتذرا عما جنوه :

أطال الله عمرك في صلاحٍ وعز يا أمير المؤمنينا

بعفوك نستجير فإن تجرنا فإنّك عصمةٌ للعالمينا

ونحن الكاتبون وقد أسأنا فهبنا للكرام الكاتبينا

فأمر بتخليتهم ، ووصل هذا الشاعر الفتى وأحسن إليه.

وقريب من هذه الحيلة أعني التوسل بالشعر لاستعطاف الحكام ماورووه من أن أبا نواس حبس مرة في عهد الرشيد فأرسل إليه يستعطفه قائلا :

بعدلك بل بجودك عذت لا بل بحبّك يا أمير المؤمنينا

فلا يتعدّرنّ عليّ عفوٌ وسعت به جميع العالمينا

فإنّي لم أخنك بظهر غيبٍ ولا حدّثت نفسي أن أخونا

براك الله للإسلام عزاً وحصناً دون بيضته حصينا

فقد أوهنت أهل الشّرك حتى تركتهم وما يترمرمونا

تــزورهم بنفسـك كـلّ عـامٍ زيـــارة واصــلين لقاطعينـــا
ولـو شئت استرحت إلى نعيمٍ وقاسـى الأمـر دونـك آخرونـا
فشفّع حسـن وجهك في أسيرٍ يـدين بحبّـك الـرّحمن دينـا
إذا مـا الهـون حـلّ بمسـتجيرٍ فلـيس لجـار بيتـك أن يهونـا

فأطلقه الرشيد بعد أن سمع الأبيات وتشفع له وزيره الفضل بن يحيى، ثم تكرر حبسه في عهد ابنه الخليفة الأمين ، ففعل معه كما فعل مع أبيه الرشيد وكتب إليه يستعطفه :

تـذكّر أمين الله والعهـد يـذكر مقـامي وإنشـاديك والنـاس حضّـر
ونثـري عليك الدّرّيـا درّ هاشمٍ فمـن ذا رأى درّاً علـى الـدرّ ينتثـر
مضت لي شهورٌ مذ حبست ثلاثةٌ كأنـّي قـد أذنبـت مـا لـيس يغفـر
فإن كنت لم أُذنب ففيم تعنّتي وإن كنـت ذا ذنـبٍ فعفـوك أكـبر

وروى الرياشى عن الأصمعي أنه قال : مدح نصيب بن رباح عبد الله بن جعفر، فأمر له بمال كثير، وكسوة شريفة ، ورواحل موقرة براً وتمراً.

فقيل له : أتفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود؟

قال : أما لئن كان عبداً ، إن شعره فيَ لحر، ولئن كان أسود إن ثناءه لأبيض وإنما أخذ مالاً يفنى ، وثياباً تبلى ، ورواحل تنضى، وأعطى مديحاً يروى ، وثناء يبقى .

وذكروا عن أبي النجم العجلي مأزقا عنيفا وقع فيه أبو النجم ثم احتال بذكائه وخفة ظله حتى تخاص منه ، وذلك أنه أنشد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملكَ شعره الذي يقول فيه:

الحمـــــــد لله الوهـــــــوب المجـــــزل

وهو من أجود شعره، حتى انتهى إلى قوله:

والشـــــمس في الجـــــو كعـــــين الأحـــــول

وكان هشام أحول ، فأغضبه ذلك ، فأمر به فطرد .

فأمل أبو النجم رجعته ، فكان يأوي إلى المسجد. فأرقَ هشام ذات ليلة فقال لحاجبه : ابغني رجلاً عربياً فصيحاً يحدثني وينشدني .

فطلب له ما سأل ، فوجد أبا النجم ، وهو لا يعرف موقف الخليفة منه ، فأتى به.

فلما دخل عليه قال : أين كنت منذ أقصيناك؟

قال : حيث ألفاني رسولك .

قال : فمن كان يعولك ؟

قال : كنت عند رجلين أتغدى عند أحدهما وأتعشى عند الآخر.

قال : فما لك من الولد؟

قال : ابنتان .

قال : أزوجتهما ؟

قال : زوجت إحداهما .

قال : فبم أوصيتها ليلة أهديتها؟

قال : قلت لها :

سبى الحماة وابهتي عليها   وإن أبت فازدلفي إليها

ثم اقرعي بالعود مرفقيها   وجددي الخلف به عليها

قال : هل أوصيتها بعد هذا؟

قال : نعم :

أوصيت من برة قلباً برا   بالكلب خيراً والحماة شرا

لا تسأمي خنقاً لها وجرا   والحي عميهم بشر طرا

وإن كسوك ذهباً ودرا   حتى يروا حلو الحياة مرا

قال هشام : ما هكذا أوصى يعقوب ولده .

قال أبو النجم : ولا أنا كيعقوب ولا ولدي كولده .

قال : فما حال الأخرى ؟

قال : هي ظلامة التي أقول فيها :

كان ظلامة أخت شيبان   يتيمة ووالداها حيان

الرأس قمل كله وصئبان   وليس في الرجلين إلا خطيان

فهي التي يذعر منها الشيطان

قال هشام لحاجبه : ما فعلت بالدنانير التي أمرتك بقبضها؟ قال : هي عندي وهي خمسمائة دينار.

قال له: ادفعها لأبي النجم ليجعلها في رجلي ظلامة مكان الخيطين.!!

هؤلاء الشعراء .. وألقابهم الحيوانية!!!

من الطرائف الغريبة التي يزخر بها تراثنا الأدبي القديم ، تلك الأسماء والكنى والألقاب العجيبة التي عرف بها بعض أعلام هذا التراث من قضاة ووزراء وكتاب وشعراء.

ومن تلك الألقاب والأسماء العربية نستضيف في السطور القادمة ستةً من الشعراء ذاعت شهرتهم بأسماء لها طابع حيواني!! فمنهم من تأذّى منها ، ومنهم من أحسن التعايش معها ، وصنع مادةً فكاهية من غرابتها.

أو... لعلها كانت وراء شهرته. وهؤلاء الضيوف هم – ولا مؤاخذة أيها القراء:-

١. ابن الفرس.
٢. ابن الحمارة.
٣. ابن خروف.
٤. أبو العجل.
٥. أنف الكلب.
٦. جحشويه.

فهيا بنا نتجول في حدائق التراث، لنرى ما ذا حملت لنا كتب الطبقات والتراجم من أخبار هؤلاء وأشعارهم.

١. ابن الفرس :

ابن الفرس من كبار علماء الأندلس؛ فقد كان قاضيًا شهيرًا في غرناطة واسمه الحقيقي عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم بن أحمد الخزرجي المالكي

تفقه على والده وجده، في علمي أصول الدين والفقه، وله كتاب في "أحكام القرآن" وصفه الصفدي في "الوافي بالوفيات" بأنه "من أحسن ما يصنع في ذلك".

وقد تُوُفِّيَ ابن الفرس سنة سبع وتسعين وخمسمائة للهجرة (٥٩٧ هـ).

وكانت عادة القادة العرب المسلمين قديمًا أنهم إذا قتلوا رأسًا من رؤوس الكفر من أعدائهم، علقوا رأسه على سن رمح ، وطيف بها ليراها الناس فتشتفي صدورهم من قادة أعداء الدين .

وقد حدث مثل هذا الصنيع في عصر ابن الفرس، فقال يصف رأس عدو من الأعداء الذين قتلهم زعماء عصره بالأندلس :

بعثوا براس "العلج" عنه مخبِّرًا ... يا من رأى ميْتًا يقول ويُخبِرُ

فَسَما به متنُ القناةِ كواعظٍ ... يسمو به بين المعاشر مِنبَرُ

وكأنه قد أثمرته قناته ... يا من رأى غصنًا برأس يثمرُ

على أن كتب التراث لا تدلنا على سر تلقيبه بهذا اللقب الغريب ، مما يجعلنا نظن أنه لم يكن المراد به الذم ، كما هو الحال في ألقاب أخرى كثيرة ، بل لعله اسم جد من جدوده ، على عادة العرب في التسمية بأسماء الحيوانات ، ككلب ، وأنف الناقة وغيرهما ، من غير تأثم ولا شعور بالحرج.

٢. ابن الحمارة :

منح التاريخ هذا اللقب العجيب لرجل موهوب ذي شخصية فذة ، برع في الموسيقى ، وبرع في الشعر ، وكان له اهتمام بالفلسفة فقد تتلمذ لفيلسوف الأندلس الشهير ابن باجة.

ثمَّ هو فوق هذا كله: رجل دولة معروف فقد تولى الوزارة. وترجم له ابن سعيد في "المغرب في حلى المغرب" وترجم له المقري في "نفح الطيب" وغيرهما.

والذين ترجموا له لم يذكروا لنا سنة مولده ولا سنة وفاته، ولكنهم في الغالب اتفقوا على أنه كان ذا شعر جيد .

كما اتفقوا على أنه حمل هذا اللقب الغريب ، وإن كانوا لم يشرحوا لنا سر هذا اللقب .

ويتميز شعر ابن الحمارة بالرقة والعذوبة والسلاسة ، ورقة القافية .

فمن ذلك قوله يصف آلام الغربة والشوق إلى الأحبة:

ألا يا ليلُ: هل لك من صباح	وهل لأسير نجمك من سراح
ألا يا ليلُ: طُلت عليَّ حتى	كأنك قد خُلقت بلا صباح
فهل باتت فطيمةُ فيك تشكو	كما أشكو اغترابي وانتزاحي
أردد زفرة المَضنى كأني	جريح أنَّ من ألم الجراح
يقلبني الأسى جنبًا لجنبٍ	كأني فوق أطراف الرماح

فهو يشخص الليل ، ويخاطبه راجيًا أن ينزاح عنه ، ويأذن بطلوع النهار رحمةً بهذا العاشق الدنف المضنى الذي يبيت أسيرًا للنجوم في حركتها البطيئة وتتلاحق أنفاسه الحرَّى كأنها آهات جريح مطعون .

ثمَّ يترك الليل وخطابه ، ويتجه إلى محبوبته فطيمة التى يكنِّيها بأم عمرو فيصف لها لهفته إلى لقائها ، وكيف أنه تجشم مشاق السفر ليزورها، فلم يستطع

رؤيتها ؛ لأن أهل بلدتها أنكروه، فعاش بينها غريبًا ، مأزومًا ، وحيدًا ، يتجرع مرارة الغربة ومرارة الحرمان :

دعاني الحب نحوك أمَّ عمرو فطرتُ إليك خفَّاق الجناح
ولو أسطيع من طربٍ وشوق ركبتُ إليك أجنحة الرياح
أحبتنا رويدكم علينا فقد جمح الهوى كلَّ الجماح
هو القدر المتاح جرى علينا ومن يسطيع للقدر المتاح؟

ويبدو أن شاعرنا كان مبتلى بحراس معشوقاته الذين يسهرون على أولئك النسوة ، فيمنعونهن لقاء أولئك العشاق المتطفلين.

فهؤلاء الحراس يتكرر ذكرهم مع امرأة أخرى غير أم عمرو، يسميها أم طلحة فيقول في قصيدة أخرى مكررًا نفس الشكوى: الحب ، والحرمان ، والخوف من الحراس :

يا أمَّ طلحة والديار قريبةٌ والنجمُ من غفلات قومك أقربُ
يا سرحةً حَرُمتْ عليَّ، وإنها لألذ من ماء الحياة وأعذب
ما بعد ظلك لي مقيلٌ فاعلمي كلا، ولا لي بعد مائك مشربُ

ويعود ابن الحمارة إلى موطنه تاركًا ديار أم طلحة، آيسًا من لقائها، ولكنه يتحسر على أيامه الخاليات معها. فيقول في قصيدة أخرى:

ألا ليت شعري هل تعود كعهدنا ليالٍ طويناهنَّ طيَّ المراحل
إذا ذكرتْها النفس كادت من الأسى تَسَرَّبُ في أولى الدموع الهوامل

ويسرف في لوم نفسه على فراقه لأم طلحة التي تغلغل حبها في دمه ، وسكن شرايينه ومفاصله

إنه يشبه بفراقه إياها ، إنسانًا شاردًا في الصحراء ، اشتد به الإجهاد والظمأ فلما وجد ماءً وهمَّ بالشرب منه طلع عليه قوم شداد بأيديهم أسلحة ماضية فأبعدوه عن الماء .

فانظر إليه وهو يصور هذا المعنى الدقيق لتجسيد الحرمان فيقول:

وإني وتركي أم طلحة بعد ما ... تسلسل مني حبها في المفاصل
كظمآنَ قفرٍ أبصر الماء حسرةً ... وقد ذيد عن أطرافه بالمناصل

٣. ابن خروف :

ابن خروف أحد مشاهير النحاة، فقد وضع شرحًا لكتاب سيبويه ، وشرحًا لكتاب (الجُمل) ، ودرَّس في الأندلس ومصر وحلب، وله إسهامات في علم الأصول والمواريث ، وتوفي سنة تسع وستمائة للهجرة (٦٠٩ هـ).

وقد وردت ترجمته في كثير من كتب الطبقات ، مثل : "وفيات الأعيان" لابن خلكان ، و"البداية والنهاية" لابن كثير ، و"عقود الجمان" لابن الشعَّار ، ولقبه الأصلي هو نظام الدين ، وكنيته أبو الحسن ، واسمه علي بن محمد بن علي بن محمد الأندلسي. ولكن لقب ابن خروف هو الذي غلب عليه.

ويبدو أنه كان يضيق بهذا اللقب ، بل لعله اتخذ منه مادةً للفكاهة يتندر بها ليدفع عن نفسه ما قد يضمره جلساؤه من سخرية ، فقد ورد في شعره ما يدل على "توافقه" مع هذا اللقب العجيب!!

فقد دعاه صديق يدعى نجم الدين بن اللهيب إلى طعام، فاعتذر لأن أباه (خروف) ، ولأن أبا صديقه (اللهيب).

فلو لبى الدعوة لاحترق الخروف في اللهيب حتى تتم (الطبخة).

فهو يقول مازحًا وساخرًا من صديقه الذي خانته نباهته فلم يراعِ هذه المفارقة:

ابن اللهيب دعاني دعاءَ غير نبيهِ
إن سرتُ يومًا إليه فوالدي في أبيهِ!!

وكتب مرةً إلى القاضي بهاء الدين بن شداد، يطلب منه هديةً تقيه البرد الشديد، فهو يطلب فراءً من صوف الغنم فيقول مخاطبًا القاضي أنه طلب هذا الكساء ليتقي به الأمطار الشديدة (الأنواء)، فيقول:

بهاءَ الدين والدنيا ونورَ المجد والحسبِ
طلبتُ مخافة الأنواءِ من نُعماك جلدَ أبي
وفضلك عالمٌ أني خروفٌ بارع الأدب!!

وكان ابن خروف خبيث الهجاء، حاد اللسان، إذا هجا أوجع، وقد أورد له الصفدي في "الوافي بالوفيات" أبياتًا هجا فيها طبيبًا شاعرًا مَن معاصريه من أعلام الطب في العصر الأيوبي، وهو مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الملقب بالدّخْوار (ت ٦٢٧ هـ)، وكان أعرج.

فقال ابن خروف يهجوه بأنه دميم الخلقة لو اطلع عليه المتطبب (المريض) لولى منه فرارا ولملئ منه رعبا من شدة دمامته، وهو - مع دمامته - جاهل بالطب فلو أن لديه بصرا بالطب لسارع إلى علاج نفسه مما يعانيه من عرج في رجله، وما يعتريه من تكبر وغطرسة وغرور وإعجاب بنفسه:

لا ترجونَّ من "الدّخوار" منفعةً فلو شفى علتيه: العُجْبَ والعرَجا

فإنــــه إن رأى المطبــــوبُ طلعتــَـه لا يرتجـــى صـــحةً منهـــا ولا فرَجـــا

وفي قصيدة أخرى يهجوه أيضًا متهمًا إياه بالجهل المطبق، فهو لا يعرف من الطب ظاهرًا ولا باطنًا .

ويقول : إن المريض يجيء إليه وهو بين الحياة والموت فيعجل بموته لما يصف له من الدواء الخطأ فيقول ساخرًا:

إن الأعـــيرج حـــازالطـــب أجمعـــه أســـتغفرالله : إلا العلـــم والعَمَـــلا

ولـــيس يجهـــل شـــيئًا مـــن غوامضـــه إلا الـــدلائل والأمـــراض والعلـــلا

و(الدلائل – والأمراض – والعلل) هي أسماء العلوم التى كان يتعين إتقانها على كل من أراد تعاطي مهنة التطبيب ، ويقول شاعرنا إن هذا الطبيب واسع الخبرة في التعجيل بموت مرضاه، ولكنه ضعيف الحيلة في شفائهم :

في حيلة البُرْء قلَّت عنده حيَلٌ بعـد اجتهـاد ، ويـدري للـردى

الـروح يسـكن جثمـان العليـل علاتـه ، فـإذا مـا طبَّـه رحـلا

وقـالوا: إن ابـن خـروف كـان يعشق فتًـى نصرانيًا جميل الطلعة، وحـدث أن هذا الفتى ، أو غيره ممن يشبهه ، أدين في قضية فحبسه قاضي القضاة . فكتب ابن خروف أبياتًا إلى القاضي ، يقول فيها إن هذا الفتى الوسيم يقتل عشاقه بجماله دون عقوبة، فكيف يحبسه القاضي من أجل دراهم معدودة ، وتبالغ كتب الطبقات في ذكر غرام ابن خروف بهذا الفتى.

فيقول مخاطبًا القاضي:

أقاضـــي المســـلمين حكمـــتَ حكمًـــا أتـــى وجـــه الزمـــان بـــه عبُوســـا

حبسـتَ علـى الـدراهم ذا جَمَـالٍ ولم تحبسـه إذ سـلب النفوسـا!!

٤.أبو العجل :

كان أبو العجل ينحو نحو أبي العبر وأبي دلامة وغيرهما ممن يتحامقون ويتخذون من هذه الحماقة المصطنعة وسيلة للعيش والارتزاق.

والمصادر التى بين أيدينا لا تدلنا على اسمه الحقيقي، وتكتفي بإيراد أشعاره تحت هذا اللقب على نحو ما نرى في طبقات ابن المعتز:

ولكن أشعار أبي العجل رقيقة ، خفيفة الظل ، تدل على روح مرحة بلا تكلف فهو يقول مثلاً :

أيا عـاذلي في الحمـق دعني مـن العَذلِ فـإني رخِـيُّ البـالِ مـن كثـرة الشُّغلِ

وأصـبحت لا أدري، وإنـي لشـاهدٌ أفي سـفرٍ أصبحتُ أم أنـا في الأهـلِ؟

فانظر إليه كيف يأتي بهذا التركيب الفنى الغريب : فهو يستسمح عاذله أن يخفف من لومه ، فلا يلومه لأن له عذرًا في الحماقة : فهو رخي البال من كثرة ما لديه من أشغال !! وهو يعلم – ولا يعلم أيضًا!!- إن كان مسافرًا أم مقيمًا في أهله؟ إنه أسلوب شعري يذكِّرنا بنظرائه ممن كانوا يتعمدون الإغراب للتفكه.

ثمَّ يخاطب عذوله فيسأله أن يأمره بما يشاء ، فسوف يفعل العكس تمامًا لأنه آلى على نفسه أن يتظاهر بقلة العقل ، فمثل هذا التظاهر سيجلب إليه الغنى والثروة فيصبح مشهورًا:

فمرنـي بمـا أحببـتَ، آتِ خلافـه فـإن جئـتني بالجِـدِّ جئتـك بـالهزْلِ
وإن قلت لي: لِمْ كان ذاك؟ جوابُه: لأنـي قـد اسـتكثرت مـن قلـة العقـل

فأصبحتُ في الحمقى أميرًا مؤمَّرًا ... وما أحد في الناس يمكنه عزلي
وصيَّر لي حمقي بغالاً وغِلْمةً ... وكنتُ - زمان العقل!!- ممتطيًا رجلي!!

ويقول أيضًا واصفًا ما ناله من حظوة مع الناس بعد أن شاع لقبه هذا (أبو العِجْل) وبعد أن شاع عنه ما أراده لنفسه من حماقة وغفلة، وهو يسخر من أولئك الذين يلومونه على هذا الصنيع، فيقول:

عذلوني على الحماقة جهلاً ... وهي من عقلهم ألذُّ وأحلى
أذعن الناس لي جميعًا وقالوا ... يا أبا العجْل: مرْحَتبين وسهلاً!!
فبها - لا عدمتها- صرتُ فيهم ... سيِّدًا أُتَّقى، ورأسًا ورجْلاً

٥.أنف الكلب :

اسمه خطّاب بن المعلّى الليثي، شاعر من أهل البصرة ، وفد إلى مصر وعُرف بلقبه الغريب هذا "أنف الكلب".

وردت ترجمته في كتاب "الوافي بالوفيات" للصفدي.

وروى أنه لما جاء إلى مصر مدح واليها عليًّا بن اصلح بن علي الهاشمي ويبدو أن هذا الوالي لم يرقه مدحه، فلم يعطه ما تمنى ، أو لعله وعده خيرًا، وتأخر عليه في إنجاز وعده.

فقال في بيتين ، لا ندري هل هما استنجاز للوعد ، أم من الهجاء الخفيف الذي يشبه العتب الجميل؟

فهو يقول : إن لهذا الوالي نسبًا شريفًا، ما أجمل أن يزيده جمالاً بإنفاذ وعده لهذا الشاعر ، فيقول أنف الكلب :

لعليٍّ بن صالح بن عليٍّ ... نسبٌ، لو يزينُه بالسماح

ومواعيده الرياح فهل أنت بكفيك قابض للرياح؟!

٦. جحشويه:

هذا لقب شنيع لقب به شاعر من العصر العباسي، ووردت ترجمته في "طبقات" ابن المعتز وغيرها. لكنه سيئ السلوك، وبذيء الهجاء. لا نستحسن الاستشهاد بشيء من شعره إلا ما استحسنه النقاد من قوله في مدح ابن الجهم:

تمارى ندى ابن الجهم يومًا وبأسه وقالا: رضينا في المحاكمة الفخرا

فقال الندى: يا فخر، ألهبتُ ماله ولكنني عوضته الحمد والأجرا

فقال له البأس: انتضيتُ سيوفه فأوردتُها بيضًا، وأصدرتها حُمْرا

فقال مجيبًا: شِدْتما قُبَّة العلا وأوطنها، فَلْتعمراها به الدهرا

فهو كما ترى، شاعر مجيد، وإن كان سوء خلقه غلب على سيرته، فكان جديرًا بهذا اللقب العجيب !! وياله من لقب!!

هؤلاء الشعراء ومعاركهم الزوجية ..!!

يحفل تراثنا الأدبي القديم بطرائف ونوادر عديدة، وكلما كان الشعراء طرفاً في تلك النوادر ، ازداد تأثيرها الممتع في النفس ، لما يسبغه الشعراء على المواقف المختلفة من ظرف وخفة ظل ، وروح فكهة.

وسنختار هنا عدة مواقف وجد الشعراء أنفسهم فيها أطرافاً في معارك زوجية تختلف أسبابها ، وكعادتهم ، يهجون خصومهم أو يهجوهم خصومهم.

وما أطرف أن يكون الخصمان في المعركة شريكي حياة : شاعرا وزوجته.

والشعراء حين يدخلون معركة، يدخلونها بأسلحتهم التقليدية وهي ألسنتهم الحداد التي تفيض بالتشويه والتشهير والافتراء واختلاق الأكاذيب، والسخرية من الخصم.

ويروي لنا الجاحظ في " الحيوان" ما أنشده إياه شاعر يسمى محمد بن يسير تزوج امرأة من غير أن يراها، فلما عاش معها استبشع منظرها فوصفها وصفاً قبيحاً، فقال:

أنبئت أن فتاة كنت أخطبها   عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

أسنانها مائة، أو زدن واحدة   كأنها- حين يبدو وجهها- غـول

وشهر الصوم أطول شيئ عند الشعراء ، لأنه يحرمهم من الملذات فهو يشبه طول عرقوبها بشهر الصوم ، ويعد أسنانها فيجدها ما بين مائة سن، ومائة وواحدة!!

ويروي أن أعرابياً كان عليه ديون كثيرة، فاجتمع غرماؤه يطالبونه بمالهم عنده من ديون، وهو يدافعهم وينكر أن معه مالاً يسدد به ، فلما طال بينهم وبينه التنازع والتدافع واشتد الجدال، طلبوا إليه أن يحلف بالطلاق من زوجتيه- وكان عنده زوجتان يكرهمهما معا-فحلف للدائنين بالطلاق ، من زوجتيه جميعا ، حانثاً ثم هرب من تلك البلدة وأنشد:

لـو يعلم الغرماء منزلتيهما ماخوفوني بالطلاق العاجـل !!

قد ملتا، ومللت من وجهيهمـا عجفاء مرضعة، وأخرى حامـل !!

وهذا أعرابي يتأمل دمامة وجه امرأته ويصفه لنا وصفاً دقيقاً، فيقول إن عينيها ضيقتان فلا تستطيع إيصال المرود إليهما لتكتحل، وأما ثدياها فواحد صغير جداً كأنه"موزة" والآخر كبير جداً يشبه قربة الماء التي يحملها المسافرون :

ولا تستطيع الكحل من ضيق عينها فإن عالجته صار فوق المحاجر

وثديان أما واحدُ فـ كـ"موزةٍ " وآخــر فيــه قربــة المسافـــر!!

وهذا أعرابي تزوج امرأة اسمها "صعبة" وعاش معها ثلاثين سنة في نكد مستمر، وعذاب متجدد ، فضجر من الحياة معها ، ونذر أن لو أراحه الله منها فلن يتزوج بعدها ، فيقول :

ثلاثين حولاً لا أرى منك راحةً لهنَّك في الدنيا لباقية العمـر!!

فإن أنفلت من حبل"صعبة" مرة أكن من نساء الناس في بيضة العقر

[لهنك :- لأنك : أي إنك واللام لام الابتداء. وهي لهجة عربية تبدل الهمزة هاءً].

وقال أبو الأسود الدؤلي يتضجر من طول عشرته كذلك مع زوجته أم عوف:

أبى القلب إلا أم عوف وحبها … عجوزاً، ومن يحبب عجوزا يفند

كثوب اليماني قد تقادم عهده … ورقعته ما شئت في العين واليد...!!

[يفنَّد: بفتح النون المشددة: يُلام ويؤاخذ].

وقد جرى المثل بهرمي مصر في الثبات والقدم والحصانة، ولكن ذكرهما ورد على لسان أعرابي مع جبلي طيء، حين شبه بهما أسنان امرأته فقال وهو يهجوها بالقبح والبرودة والثقل :

ألام على بغضي لما بين حية … وضبع وتمساح أتاك من البحر

تحاكي نعيماً زال من قبح وجهها … وصفحتها لما بدت سطوة الدهر

هي الضربان في المفاصل دائباً … وشعبة برسام ضممت إلى صدري

إذا سفرت كانت لعينك محنة … وإن برقعت فالفقر في غاية الفقر

حديث كقلع الضرس أو نتف شارب … وغنج كهشم الأنف عيل به صبري

وتفتر عن قلح عدمت حديثها … وعن جبلي طي وعن هرمي مصر

وقال الرحال بن مجدوح النميري ، يهجو امرأته مثلما هجا جران العود امرأته، وكانا صديقين ، وليست من الألف المختارة:

أقولُ لأصحابي الرّواحَ فقرِّبوا … جُماليَّةً وجناءَ تُوزِعُ بالنَّقرِ

وقَرَّبنَ ذيَّالاً كأنَّ سراتَهُ … سراةَ نقا العرَّافِ لبّدهُ القطرُ

فقلنَ أرحْ لا تحبسِ القومَ إنّهمْ … ثووا أشهراً قد طال ما قد ثوى السَّفرُ

فقامتْ بئيساً بعد ما طالَ نزرها … كأنَّ بها فتراً وليسَ بها فترُ

قطيعٌ إذا قامتْ قطوفٌ إذا مشتْ ... خطاها وإن لم تألُ أدنى منَ الشبرِ

إذا نهضت من بيتها كانَ عقبةً ... لها غولُ ما بين الرّواقين والسترِ

فلا باركَ الرحمنُ في عودِ أهلها ... عشيَّةَ زفُّوها ولا فيكِ من بكرِ

ولا باركَ الرحمنُ في الرَّقمِ فوقهُ ... ولا بارك الرحمن في القطفِ الحمرِ

ولا في حديثٍ بينهنَّ كأنَّهُ ... نئيمُ الوصايا حين غيَّبها الخدرُ

ولا جلوةٍ منها يحلِّينني بها ... ألا ليتني غيِّبتُ قبلكِ في القبرِ

ولا في سقاطِ المسكِ تحتَ ثيابها ... ولا في القوارير المسكةِ الخضرِ

ولا فرشٍ ظوهرْنَ من كلِّ جانبٍ ... كأنِّي أكوَّى فوقهنَّ من الجمرِ

ولا الزَّعفرانِ حينَ شحَّنها بهِ ... ولا الحلي منها حين نيطَ إلى النَّحرِ

ولا رقةَ الأثوابِ حينَ تلبَّستْ ... لنا في ثيابٍ غيرَ خشنٍ ولا قطرِ

ولا عجزٍ تحتَ الثيابِ نبيلةٍ ... تديرُ لها العينين بالنَّظرِ الشَّزرِ

وجهَّزتها قبلَ المحاقِ بليلةٍ ... فكانَ محاقاً كلُّهُ ذلكَ الشَّهرِ

وقد مرَّ تجرٌ فاشتروا لي بناءها ... وأثوابها لا باركَ اللهُ في التَّجرِ

ولا فيَّ إذ أحبو أباها وليدةً ... كأنيَّ مسقيٌّ يعلُّ منَ الخمرِ

وما غرَّني إلاّ خضابٌ بكفِّها ... وكحلٌ بعينيها وأثوابها الصُّفرِ

وسالفةٍ كالسَّيفِ زايلَ غمدهُ ... وعينٍ كعينِ الرِّئمِ في البلدِ القفرِ

وشبهِ قناةٍ لدْنةٍ مستقيمةٍ ... وذاتِ ثنايا خالصاتٍ من الحبرِ

وإن جلستْ وسطَ النِّساءِ شهرنها ... وإن هي قامتْ فهيَ كاملةُ الشِّبرِ

فلما برزناها الثِّيابَ تبيَّنتْ ... طماحَ غلامٍ قد أجدَّ بهِ النَّقرُ

دعاني الهوى نحو الحجازِ مصعَّداً ... وإنّي وإيَّاها لمختلفا النَّجرِ

ألا ليتهمْ زفُّوا إليَّ مكانها ... شديدَ القصيرى ذا عرامٍ من النُّمرِ

وقال أعرابيّ يهجو امرأته :

خرقاءُ بالخير ما تُهدى لوجْهته ... وهيَ صَناعُ الأذى في الأهلِ والجارِ

ليستْ بشبْعى ولو أوردتَها هَجَراً ... ولا بريّا ولو حلَّتْ بذي قارِ

وإلى هذا المعنى نظر القائل :

كالحوت لا يكفيه شيءٌ يلهَمُهْ ... يُصبحُ ظَمآنَ وفي البحر فَمُهْ

ولآخر يخاطب امرأته:

يا رُبَّ مثلكِ في النساءِ عزيزةٍ ... بيضاء قد روَّعتُها بطلاقِ

لم ندرِ ما تحتَ الضُّلوع وغرّها ... منّي تجمّل عِشرتي وخلاقي

وقالوا : كانت دقاق أم ولد يحيى بن الربيع أحمد المعروف بابن دقاق مغنية محسنة متقنة الأداء والصنعة ، وكانت قد انقطعت إلى حمدونة بنت الرشيد ثم إلى غضيض ، وكانت مشهورة بالظرف والمجون والفتوة.

قال أحمد بن الطيب : وعتقت دقاق فتزوجها بعد مولاها ثلاثة من القواد من وجوههم ، فماتوا جميعاً ، فقال عيسى بن زينب يهجوها:

قلت لما رأيت دار دقاق ... حسنها قد أضر بالعشاق

حذروا الرابع الشقي دقاقا ... لا يكونن نجمه في محاق

أله عن بضعها فإن دقاقا ... شؤم حرها قد سار في الآفاق

لم تضاجع بعلاً فهب سليما ... بل جريحاً وجرحه غير راقي

وأما الشاعر المجهول أبو محمد الحسن بن يحيى بن روبيل الأبار، وهو من أهل دمشق.

فقد ذكره بعض معصريه وقالوا: كان شيخاً مطبوعاً ديناً ناسكاً لا يشرب الخمر ولا يقرب المنكر؛ وله دكان في سوق الأبارين يبيع الإبر. وتوفي بدمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

قالوا: وكان مع نسكه وعفته، مغرى بهجو زوجته.

وذلك أنها أشارت عليه بمدح كبير فمدحه فما نفع، فهجاه فصفع، فقال لولا زوجتي لما صفعت، ولولا تغريرها بي لما وقعت. فقال يهجوها:

أُغْرِيَتْ زوجتي بشُرْب العُقارِ ... أسكنتْني بجنب دار القِمارِ

أطعَمَتني مُخَّ الحِمار فلمّا ... أبصرتْني قد صِرْتُ مثل الحمار

بذلتْ فرجها وصاحت إلى النّا ... س هلمّوا يا مَعْشر الفُجّار

وقال:

لي قِطَّةٌ أنظفُ مِنْ زوجتي ... ودُبرها أنظفُ مِنْ فيها

وكلّ ما صوّره ربُّنا ... من الخنا رَكَّبه فيها

وله فيها أشعار أشد قبحا مما اخترناه، لا نستطيع إيرادها هنا.

وذات مرة اشترى أبو الأسود هذا جارية حولاء، فشعرت زوجته أم عوف بالغيرة لأن زوجته كانت ابنة عمه. ورأت في تلك الجارية الحولاء منافسة لها فشنت على الجارية حرباً نفسية. وكانت كلما رأت زوجها أبا الأسود، والجارية

واقفة أو جالسة قريباً منها ، رفعت عقيرتها وقالت كأنها في سوق النخاسة : من يشترى جارية حولاء ؟

فلما طال ذلك وتكرر قال أبو الأسود : يدافع عن جاريته ويغمز في امرأته :

يعيبونها عندي، ولا عيب عندها   سوى أن في العينين بعض التأخر

فإن يك في العينين سوء فإنها   مهفهفة الأعلى، رداح المؤخر

ومن أبواب الشجار الدائمة بين الشعراء وزوجاتهم ، تقدم السن بأحد الطرفين والمرأة دائماً هي التي تدفع الثمن غالياً إذا تقدمت بها السن ، لأن من عادة الشعراء التماس الجمال ، ونشدان الربيع الدائم ، وحدث مرة أن تأخر أعرابي في الزواج إلى أن بلغ الخامسة والأربعين فتزوج امرأة في مثل سنه.

فقال له شاعر من أصدقائه :

وأعنّست نفسك حتى إذا   أتيت على الخمس والأربعينا

تزوجتها شارفاً فخمةً   فلا بالرّفاء ولا بالبنينا

فلا ذات مال تزوجتها   ولا ولد ترتجي أن يكونا

بها أبداً فالتمس غيرها   لعلّك تعطى بغثٍ سمينا

وتزوج جهم الشاعر امرأة من بنى فقعس ، وباع إبلاً له ليدفع مهرها، فلما دخل عليها رآها عجوزاً فتحسر على إبله التي ضاعت، وتوقع لنفسه الموت أسفاً وندماً على يدي هذه العجوز الشمطاء وكان اسمها" قمامة "!! فقال جهم باكياً:

وما لمت نفسي مذ فطمت بلحيةٍ   كما لمت نفسي في عجوز بني شمس

غبنت ولم أغبن غداة اشتريتها ... وبعت تلاد المال بالثمن البخس

فإن مات جهمٌ غيلةً فاقتلوا به ... قمامة إن النفس تقتل النفس

وكانت نظرة العرب الى تقدم العمر عجيبة ، وفيها تحيز الى جانب الرجال فكانوا يقولون إن خير نصفي الرجل آخرهما(أي النصف الثاني من عمره) ففي هذه المرحلة من العمر : يذهب جهله، ويثوب حلمه، ويجتمع له رأيه ، وإن شر نصفي المرأة آخرهما: يسوء خلقها ، ويحد لسانها ، وتعقم رحمها!!

ولذلك قال بعضهم يحذر من زواج العجائز :

لا تنكحن عجوزاً إن دعوك لها ... وإن حبوك على تزويجها الذهبا

وإن أتوك وقالوا: إنها نَصَفٌ ... فإن أطيب نصفيها الذي ذهبا

ومن الشعراء من تمنى الموت لنفسه أو لزوجته حتى يستريح من عذاب الحياة المؤلمة التي تجمعهما.

فهذا شاعر يدعو على الوسطاء الذين رشحوا له امرأته التى تزوجها ، ويدعو على نفسه بالموت فيقول :

وقد مر تجر فاشتروا لي بناءها ... وأثوابها ، لا بارك الله في التجر

ولا فيَّ إذ أحببوا أباها وليدةً ... كأني مسقي يعل من الخمر

ولا بارك الرحمن في عود أهلها ... عشية زفوها، ولا فيك من بكر

ولا بارك الرحمن في الرقم فوقه ... ولا بارك الرحمن في القطف الحمر

ولا جلوةٍ منها يحليني بها ... ألا ليتني غيبت قبلك في القبر

[تجر : تجار، القطف : بضم القاف والطاء : من القطفية].

وهجا بعضهم امرأته فوصفها وصفا حسيا شنيعا ، فهي بين البرغوث والبعوضة في ضآلة الجسم - والأذى بطبيعة الحال !! - ووجهها يذكر شاعرنا بوجوه القرود في قبحه ودمامته ، بل إنه يراه أشد من القرود قبحا ، ولو أن الشيطان نفسه رأى وجهها لقضى يومه وليلته مستعيذا بالله من قبحها :

لها جسم برغوث وساقا بعوضة ووجه كوجه القرد بل هو أقبح

تبرق عينيها إذا ما رأيتها وتعبس في وجه الضجيع وتكلح

لها منظر كالنار تحسب أنها إذا ضحكت في أوجه الناس تلفح

إذا عاين الشيطان صورة وجهها تعوذ منها حين يمسي ويصبح

وأما ذلك الأعرابي فقد تمنى الموت لزوجته ، وكاد يقتلها لولا أنه خشي ما يترتب على قتلها من أخذ بالثأر، فهو يقول لنا إنه كان يفكر كثيرا في أن يقتلها ثم يتوب الى الله ويرجو مغفرته ولولا خوفه من عقاب الله لوضع السيف على رقبتها في موضع العقد واستراح منها:

لولا مخافة ربي أن يعاقبني وأنها عدة تقضى وأوتار

لقد جعلت مكان الطوق ذا شطب وتبت بعد ، فإن الله غفار

ويتحسر شاعر آخر على ما آل إليه حاله مع زوجته ، ويسترجع أيام الخطبة حين خدعته بكحلها الفاتن ، وأثوابها الملونة، وعطورها النفاذة ، فلما عاش معها ، وسبر طبعها ، وملّ من حديثها عن الحب ، فاضت نفسه بهذه الأبيات يتحسر فيها على ما كان فيقول:

وما غرّني إلا خضابٌ بكفّها وكحلٌ بعينيها وأثوابها الصّفر

تسـائلني عـن نفسـها: هـل أحبّـها؟ فقلت: ألا ، لا ، والذي أمره الأمـر !!

تفوح رياح المسك والعطر عندها وأشـهد عند الله مـا ينفـع العـطر!!

على أن من الشعراء من فضل الطلاق على تمنى الموت ، ورأى في الطلاق خلاصاً من جحيم حياة زوجية لا سكن فيها ولا سكينة، ولا حب فيها ولا حنان فهذا شاعر يقول لزوجته إن ليلة طلاقها ستكون أحب إليه من ليلة دخوله بها:

تَجَهّـزي للطَّـلاق وانصـرفي ذاك جَـزاءُ الجـوامِعِ الشُـمُسِ

لَلَيـلَتي حـين بِـت طالقـةً ألَـذُّ عِنـدِي مِـنْ لَيلـةَ العُـرُسِ

والزوجات يرددن الصاع صاعين:

وإذا كـان الشـعراء يسـتعينون بألسـنتهم الحـداد للانتقـام مـن نسـائهم والسخرية من دمامتهن ، أو كبر أعمارهن ، فإن من النساء أيضاً شاعرات انتقمن لأنفسهن وهجون أزواجهن ، وعبرن عن ضيقهن ومللهن من حياتهن الكئيبة مع أزواج مزعجين لا يريحون ولا يستريحون .

فهذه شاعرة تسمى عصيمة الحنظلية تختنق من سوء خلق زوجها ، وتشعر بأن بيتها سجن ، أو حفرة مملوءة بالدخان حين يكون زوجها بالبيت ، فهي تتمنى أن يأخذ السفر زوجها فلا يعود إليها، بل إنها لو استطاعت لافتدت نفسها من حياتها معه بمائة من الإبل تدفعها لمن يخلصها من هذا السجن :

كـأن الـدار حـين تكـون فيهـا علينـا، حفـرة ملئـت دخانـا

فليتـك في سـفين بنـى عبـادٍ فتصـبح لا نـراك ولا ترانـا

فلـو أن البـدور قـبلن يومـاً لقـد أعطيتهـا مائـةً هجانـا

ونتقدم خطوة أكبر مع امرأة من بنى ضبة تسخر من زوجها الدميم ذي القدمين المقوستين ، وهو زوج يبغضه كل من يعرفه ، فهي حين تدعو عليه تجد دائماً من يؤمن على دعائها تشفيا منه ، وتعبيراً عن بغضه.

وتتمنى لو أن الأقدار فرقت بينهما تفريقاً لا لقاء بعده بحيث تكون هي في أقصى الشرق في الصين، ويكون هو في أقصى الغرب في أوروبا فتقول تلك الضبية:

تـراه أهـوج ملعونـاً خليقتـه ... يمشي على مثل معوج العراجين

ومـا دعـوت عليـه قـط ألعنـه ... إلا وآخـــر يتلـــوه بآميــــن

فليتـه كـان أرض الـروم منزلـه ... وأننـي قبلـه صُـيِّرتُ في الصـين

وكما عبر بعض الشعراء عن ندمهم على زواجهم لدرجة أنهم كانوا يفضلون الموت على هذه الزيجة، فكذلك كان شعور بعض الزوجات تجاه أزواجهن.

فهذه جمرة الأزدية تذكر زوجها أبا وائل فتصفه بأنه ليس من وجوه الرجال وتتمنى أن لو كانت ماتت ولم تتزوجه:

لعمــرك مــا إن أبــو وائــلٍ ... إذا ذكـــر القـــوم بالطائــــل

فيــا ليــتني لم أكــن عرســه ... وعُوجلــت بالحــدث العاجــل

وزَوَّجَت امرأة تسمى أم جحدر ابنة لها من رجل قبيح المنظر فقالت إن الذين وصفوه لها خطيباً لابنتها غشوها غشاً كبيراً فليتها حين وُصف لها تحققت منه وتأملت وجهه ورجليه:

لقـد دلَّـس الخُطَّـاب يـا أم جحـدرٍ ... لكم في سواد الليل إحدى العظـائم

ألم تنظري – حييت يا أم جحدر- ... إلى وجهـه أو تنظـري في القـوائم

فلما تمعنت فيه أبدت أسفها وقالت قبَّح الله الطلعة وأنشدت :

وإن أناساً زوجوك فتاتهم　　　لجدُّ حراص أن يكون لها بعلُ !!

ولكن العجب أن يكون الزوج شاعراً والزوجة شاعرةً، ويتبادلان السخرية والسباب ، فهذا شاعر يرى زوجته تمر أمامه في البيت فيقول إنه لو خُيِّر يوم تزوجها بينها وبين حية عظيمة لا ختار الحية بدلاً من زوجته ، وقضى بقية حياته يمرح ويسرح مع الرعاة في الجبال :

تلك التي لو أنني خيرتها　　　أو حية همازة الأسنان

لاخترتها بدلاً بها وغزلتها　　　وصدرت ذا جذلٍ مع الرعيان

فترد له الصاع صاعين ، فتمعن في ذم عيوبه فهو عجوز لا خير لامرأة فيه ولم يبق منه إلا لسانه الطويل الشتام ، ويتشبث بالشباب مع أن ظهره قد انحنى ووجهه قد تغضن فكثر عليه الذباب ، فلو أنها خُيِّرت يوم تزوجته بينه وبين كلبها " ذكوان" لاختارت الكلب ولم تختره:

يا رب شيخٍ قد تولى خيره　　　ذرب اللسان كأنه ظربان

يرجو الشباب وقد تحنى ظهره　　　وعفاه- بعد منامه - الذبان

ذاك الذي لو أنني خيرته　　　لم أرتضيه بكلبنا " ذكوان"

ولكن في المقابل هناك نساء يحفظن العهد ، ويستمسكن بالود. فهذه امرأة شاعرة طلقها زوجها ثلاث طلقات ، فتزوجت محللا، فأعجبته ورفض المحلل أن يطلقها ، فبقيت على مودتها لزوجها القديم تتذكره أول يومها عندما تستيقظ، وآخر الليل عندما تنام، ولكنها لا تملك له إلا هذا الود الصافي وأن تظل دائما وفية له طوال

عمرها ، تنصحه بما ينفعه إذا استنصحها وترشده إذا استرشدها فبعثت الى زوجها تقول له :

قُصاراك مني النصح ما دمتُ حيةً ... وود كماء المزن غير مشوب

وآخر شيءٍ أنت في كل هجعةٍ ... وأول شيء أنت عند هبوبي

وقالت تصف حالها مع هذا المحلل :

لِمَنْ بكرةٌ مطروفةٌ العين نازعٌ ... معذبةٌ في حبل راعٍ يهينها ؟!!

وقال أعرابي يخاطب امرأته وقد غرها منه طيب العشرة وحسن الخلق فأساءت إليه :

يا رُبَّ مثلكِ في النساءِ عزيزةٍ ... بيضاء قد روَّعتها بطلاقِ

لم تدرِ ما تحتَ الضُّلوع وغرّها ... منّي تجمّل عِشرتي وخلاقي

وقال أعرابيّ آخر يهجوا امرأته لما رأى منها من سوء المعاشرة وإيذاء الأهل والجيران وحماقة التصرف وشراهتها إلى الطعام والشراب :

خرقاءُ بالخير ما تُهدى لوجْهته ... وهيَ صَناعُ الأذى في الأهلِ والجارِ

ليستْ بشبْعى ولو أوردتها هَجَراً ... ولا بريّا ولو حلَّتْ بذي قارِ

ولما هجا أبو الطّروق الضبّيُّ امرأته، وكان اسمها شَغْفَر بالقُبح والشناعة فقال:

جاموسة وفيلةٌ وخنزرُ ... وكلُّهنَّ في الجمال شَغْفَرُ

جعل الخنزير خَنزراً، فجمعها كما ترى للتّشابه، وقال آخر في وصف امرأته أيضا:

كأنّ الذي يَبْدُو لنا من لِثامِها ... جَحافلُ عَيرٍ أو مشافر فِيلِ

وقال أعرابي فيامرأة تزوجها وكانت سَوْداء:

كأنهـــا والكُحْـــل في مِرْوَدهـــا   تكْحَـل عَيْنَيهـا بـبعض جِلْـدِها

وقال فيها يخاطبها :

أشْـــبَهك المِسْـــكُ وَأشْـــبَهته   قائمـــةً في لَوْنـــه قاعِـــدَهْ

لاشَـــكّ إذ لَوْنُكمـــا وَاحِـــدٌ   أنكمـــا مـــن طِينَـــة واحـــده

وقال يصفها ويقول إنه لو كشف للناس نصف وجهها لأغرقوه ببصاقهم لسوء اختياره :

ولـو انني أبديت للناس بعضـها   لأصبحت من بصق الأحبة في بحـر

وقال في وصف امرأته وكأنه يرسم لنا لوحة فنية :

يـا ركـبتي خـرزوسـاق نعامـةٍ   وزبيـــل كنـــاس وشـــدق بعـــير

يـا مـن أشـبهها بحمـى نـافض   قطاعـــة للقلـــب ذات زفـــير

صدغاك قد شمطا ونحرك يابس   والصـدر منـك كجؤجـؤ الطنبـور

يـا مـن معانقهـا يبيـت كأنـه   في محـــبس قمـــل وفي ســـاجور

قبلتهـا فوجـدت طعـم لثاتهـا   فـــوق اللســـان كلســـعة الزنبـــور

وهَجَا أعرابيّ امرأته،فقال:

يـــا بِكْـــرَ حَـــوَّاء مـــن الأولاد   وأمَ آلافٍ مِـــــنَ العِبَـــــادِ

عُمْـــرك مَمْـــدُود إلى التَّـنادي   فحـــدّثينا بحـــديث عـــاد

والعَهْـدِ مـن فِرْعَـوْن ذي الأوتـاد   يـــا أقـــدَمَ العـــالَم في الـــبلاد

إني من شخصك في جهاد !!!

ولأعرابي آخر في زوجته يهجو. وقد أحسن في وصفه تكمش وجهها:

ولا زَوَرْدِيَّـــة الثـــنايا قــد قَمَّعَــتْ رأسَــها بقِــيرِ

كأنــما وجهُهـــا قمــيصٌ قــد فَرَّكُــوه علــى حصــيرِ

وَيْلــي علــى مــا وقَعْــتُ فيهــا أوقعهـــا اللّهُ في السَّـــعِيرِ

وله في ولده أيضاً:

لــي ولــدٌ لا وَلَــدتْ أُمُّــهُ أَعْذِلُــهُ الــدَّهْرَ فمــا يَرْعَــوِي

اللّه قــد صــيَّرَه أعوجــاً يــا ذنــبَ الكلــبِ أمــا تــستوي

وله في زوجته أيضا يصف شرهها للجنس وطمعها في المال:

قــالوا تزوَّجْــتَ دُبَيْسِــيَّةً أضـرى مـن الـذئب علـى الشـاةِ

تقديسُــها النـــخْرُ وتســبيحُها وهــاتِ تــقْرَا في التــحِيّاتِ

وقد جرى المثل بهرمي مصر في الثبات والقدم والحصانة، وذكرهما أعرابي مع جبلي طيء، فقال وهو يهجو امرأته بالقبح والبرودة والثقل:

ألام علـى بغضـي لمـا بـين حيـة وضـبع وتمسـاح أتـاك مـن البحـر

تحـاكي نعيماً زال من قبح وجههـا وصفحتها لما بدت سطوة الدهر

هـي الضـربان في المفاصـل دائبـاً وشعبة برسام ضممت إلى صدري

إذا سـفرت كانـت لعينـك محنـة وإن برقعت فالفقر في غاية الفقر

حديث كقلع الضرس أو نتف شارب وغنج كهشم الأنف عيل به صبري

وتفـتر عـن قلـح عـدمت حـديثها وعن جبلي طي وعن هرمي مصر

وقالوا : إن الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة ويقال بل خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة كان تزوج امرأة تسمى حميدة قبل روح بن زنباع فقالت فيه:

نكحت المديني إذ جاءني ... فيا لك من نكحةٍ غاوية

له دفر كصنان التيوس ... أعيا على المسك والغالية

كهول دمشق وشبانها ... أحب إليّ من الجالية

[الدفر : الرائحة ، الصنان : الرائحة الكريهة ، والجالية هم الذين أجلاهم عبد الله بن الزبير من الحجاز من بني أمية وغيرهم من أشياعهم إلى الشام.]

فقال زوجها مجيباً لها

أسنا ضوء نار صخرة بالقفرة أبصرت أم تنصب برق

أية ما يكن فقد هاج للقلب اشتياقاً وأنه غير مبق

لسنا بين الحجون إلى الحرة في مغمرات ليل وشرق

ساكنات العقيق أشهى إلى القلب من ساكنات دور دمشق

يتضوعن إذ تمخضن بالمسك صناناً كأنه ريح مرق

ثم طلقها فتزوجها روح ،[المرق : صوف الجلد القديم]

وقال أبو العاج الكلبي لامرأته:

عجوزٌ ترجى أن تكون فتية ... وقد لحب الجنبان واحدودب الظهر

تدس إلى العطار ميرة أهلها ... ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر

أقول وقد شدوا عليّ حجالها ... ألا حبذا الأرواح والبلد القفر

فقالت:

ألم تر أن الناب تحلب علبة ... ويترك ثلب لاضراب ولا ظهر

وقال فيها:

قد زوجوني عجوزاً متبعاً رجلاً ... قد كنت قبلك حذرت المتابيعا

فقالت:

شنئت الشيوخ وأبغضتهم ... وذلك من بعض أفعاليه

تـرى زوجـة الشيخ مغبرة ... وتمسـي لصحبته قاليه

فـلا بـارك الله في عرده ... ولا في عظام استه البالية

وقالت بنت عبد الله بن عتاب من عنزة لزوجها رجاء بن خيثمة بن عتاب:

الحمد لله الذي أهانكا ... وجعل الذريح من أخدانكا

ببلدةٍ تبلي بها أكفانكا

فقال يجيبها:

قـد جعلـتني وذريحـاً نـدين

وهـي عجـوزٌ لا تسـاوي فلسـين

محترقـين مـن نحـاس نحـتين

كسـلعة السـوء تبـاع في الـدين

فقالت:

تـركتني ببلـدٍ طمـوس

لـيس بهـاجن ولا أنـيس

إلا بقايـا الحـيض والحلـيس

يــا ليتــه في حفــرة مرمــوس

وقالوا : كانت تحت رجل من أزيم بن ثعلبة بن يربوع يقال له أبو مرحب بنت عمٍ له فقالت:

يموت الرجال الصالحون ولا أرى ... أبا مرحب إلا شــديــد الجــوانح

أطعن فلا يعصين أمري فلا يــروا ... إذا رجعــوا إلا ديــار الجوامح

فإني سأهديكن في كل سبســب ... تهادي به أيــدي القلاص الطلائح

فقال أبو مرحب مجيباً لها:

لعمري لقد غاليتها فاشتريتها ... وما كل مبتاع من الناس رابح

رأيت لها أنفــاً فبيحاً يشينها ... وعلباء سوءٍ لـم تزنــه المسائح

وقالت هند بنت عصم السدوسية وكانت عند ربيعة بن غزالة الكندي لامرأة أبيها يزيد بن ربيعة بن غزالة:

أيزيد قــد لاقيــت منكــرة ... عجلت بأمك مدخل القبر

هــوجــاء جاهلة إذا نطقت ... ليست كعاباً بضــة الخدر

ســوداء مــا تنفك متأفــة ... مــلأى مضببــة على غمر

ما كان جدك في النساء بذي ... فــرع عشيــة طيرها يجري

وقالت أم الأسود الكلابية تهجو زوجها:

سأنذر بعــدي كل بيضــاء حرة ... منعمة خــودٍ كــريــمٍ نجــارها

قصير قبال النعل يضحي وهمــه ... قريبٍ ويمسي حيث يعشيه نارها

إذا قال قد أشبعتني بات راضياً ... له شملــة بيضــاء خاف حمارها

يرى الطيب عاراً أن يمس ثيابه ... أو المســك يومــاً إن علاه صوارها

ولكنه من رطب اختثـــاء صنانــه ... إذا أمرعت بالكف منه ديارها

وطيـر بذيــال يرى الليـــل متنه ... لناقته حتى يحين اذكــرارها

بعيد المدى يقضي الكرى فوق رحله ... إذا القوم بالموماة حار شرارها

لعمـــر أبـــي ما خارلي أن يبيعني ... بأبعـــرة إذ قحمتــه عشارها

فـــوالله لـولا النــار أو أن يرى أبي ... لـه قـوداً أو أن ينــالني عارها

لقد نازعــت كفــي المهنــد ضربةً ... وكان عليه خبلها وشـنارهـا

وقالت حميدة لروح بن زنباع إن فيك لأربع خصال ما يسود عليهن أحد قال وما هي لا أبا لك فوالله إن الخصلة الواحدة لتفسد الرجل السيد قالت أما الواحدة فإنك من جذام وأما الثانية فإنك جبان وأما الثالثة فإنك غيور وأما الرابعة فإنك بخيل قال روح أما قولك أني من جذام فحسب المرء أن يكون من صالح من هو منه "أي من صالح قومه " وأما قولك اني جبان فإن مالي نفس واحدة ولو كان لي نفسان جدت بإحداهما وأما قولك أني غيور فوالله اني لجدير بالغيرة على الورهاء اللئيمة مثلك وأما قولك أني بخيل فوالله ما في مالي فضل عن قومي ولكن اذهبي فأنت طالق.

وأنشد أبو غسان لامرأة تهجو امرأة أبيها:

جاز بها وهي تبكي الأهـلا ... تكحلهمـــا إلى التمام كحلا

من سهر مضي يذدن هملاً ... آمـــاق أجفان حذلن حذلاً

يا رب رب الراقصات ذملاً ... يزحلن بالأرجل زحلاً زحلاً

يطوون سيراً شركياً سهـلا ... أبعث عليهـا تيحانـاً صلا

شختاً لطيفاً كالقضيب علا ... يحل منها بالإصبعين حلا

حل الفليجات سملن سملا

وقالوا : مدح قتادة بن مغرب يزيد بن المهلب فأعطاه وملأ يديه وتزوج بنت يزيد الحنفي فلما دخل بها ، كرهها من ليلتها فلما أصبح طلقها وقال:

تجهزي للطلاقِ وارتحلي ... ذاك دواءٌ للرامح الشمس
لليلةٍ حين بنت طالقة ... ألذ عندي من ليلة العرس
بت لديها بشر منزلةٍ ... لا أنا في نعمةٍ ولا فرسي
هذا على الخسف لا قضيم له ... وبت ما إن يسوغ لي نفسي

قال فالحقها بأهلها وبلغها قوله فشدت عليها ثيابها وأتت باب يزيد بن المهلب فاستأذنت عليه فدخلت وقتادة عنده فقالت تصف عذابها معه من نتن رائحة فمه :

حلفت فلم أكذب والا فكل ما ... ملكت لبيت الله أهديه حافية
لو أن المنايا أعرضت لاقتحمتها ... مخافة فيه أن فيه لداهية
وكيف اصطباري يا قتادة بعدما ... شممت العدى من فيك أدمى سماخيه
فما جيفة الخنزير عند ابن مغرب ... قتادة إلا ريح مسكٍ وغالية

وقال لقيط بن بكير: قالت طارقة وهي مولاة لأهل بيت من امرء القيس بن زيد وكان تزوجها مولى لبني كلب يقال له ثابت وكنيته أبو الفصيل فخطب مولاة أخرى من مواليات بني امرؤ القيس وكانت تتهم بالسحر وكان يقال لها نجود وبلغها ذلك فجعلت تقول:

لا خار ربي لأبي الفصيل ... ولا وقاه عثرة الذلول
بدل مني أخبث البدول ... هوجاء مقاء كشبه الغول

تحمل رفغاً واسع الفضول ... مثل إهاب الميحة المبخول

ببيتٍ فيه الذئب أو يقيل

وقالوا : كان يزيد بن هبيرة المحاربي أول أمير ولي اليمامة لعبد الملك بن مروان فتزوج امرأة من ولد طلبة بن قيس بن عاصم المنقري فقالت:

للبس عباءة وتقر عينــي ... أحب إليّ من لبس الشفوف

بكر يتبع الأظعان صـب ... أحب إليّ من بغـل زفــوف

وبيتٍ تخفق الأرواح فيه ... أحب إليّ من قصـرٍ منيــف

وقالوا : تزوج رجل من بني جسر امرأة من ولد طلبة بن قيس وكان الرجل دعياً فرفع إلى يزيد بن هبيرة ففرق بينهما وقالت وهي عنده:

لقد كنت عن حجر بعيداً فساقني ... صروف النوى والسابقات إلى حجر

يقولــون فـرش من حرير وإنما ... أرى فرشــهم عندي كحامية الجمر

وإني لأستحــي تميمــاً وغيرها ... من إنكاحهــم إيــاي عبد بني جسر

تحليل الزوجات :

ومن الزوجات من توقع بزوجها في مهاوي الضيق بكثرة مطالبها . مثل امرأة أبي دلامة التى أمرته أن يطلب إلى الخليفة المنصور أن يهبه مالاً ومزرعة. فذكر أبو دلامة ذلك للخليفة المنصور في قصيدته الشهيرة:

إن الخليط أجد البين فانتجعوا ... وزودوك خبالاً، بئس ما صنعوا

إلى أن قال فيها يذكر سوء خلق زوجته ويصف جسمها وصفاً مشيناً ويصف إلحاحها عليه ، فيقول :

لا والـذي يـاأمير المؤمنين قَضـىَ ... لـكَ الخلافـةَ في أسـبابها الرُّفَـعُ

مازلتُ أخلصها كسبي فتأكلهُ ... دوني ودون عيالي ثم تضطجعُ

شوهاء مَشْئِّية في بطنها بجَرٌ ... وفي المفاصل من أوصالها فدعُ

ذكرتها بكتاب الله حرمتنا ... ولم تكن بكتاب الله ترتدع

فاخرنطمت ثمّ قالتْ وهي مغضبةٌ ... أأنت تتلو كتاب الله يا لُكَعُ؟!!

أخرجْ لتبغِ لنا مالاً ومزرعة ... كما لجيراننا مالٌ ومُزْدَرَعُ

واخدع خليفتنا عنا بمسألة ... إن الخليفة للسؤال ينخدع

فضحك المنصور، وقال لرجاله: أرضوها عنه ، واكتبوا لها ستمائة جريب عامرة وغامرة (الجريب: قطعة معينة من الأرض، والعامرة: المزروعة والغامرة البور)

فقال أبو دلامة: أنا أقطعك يا أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب غامرة من الحيرة الى النجف وإن شئت زدتك!!

فضحك المنصور وقال: اجعلوها كلها عامرة !!.

البقاء للأصلع !!!

ذم الشعراء الشيب كثيراً ، ولكنهم لم يكثروا القول في ذم الصلع مع أن الصلع قد يكون داعية لقبح المنظر أكثر من الشيب ، وربما كانت قلة الشعر في ذم الصلع راجعة إلى طبيعة الشعوب العربية في تغطية الرؤوس بالعمائم وما يقوم مقام العمائم من أغطية فلم يكن منظر الصلع من المناظر المألوفة أمام أعين الشعراء النقاد بعكس الشيب الذي يظهر في السوالف وفي القفا وفي اللحى والشوارب ، فالصلع مستور، والشيب – إن لم يصبغ – لا يمكن ستره .

ولما كانت اللغة العربية تتميز بدقتها البالغة في تحديد معاني الألفاظ المتقاربة ، فإننا نجدها قد فرقت بين الألفاظ التى تعبر عن حالات مختلفة تكون عليها الرأس على نحو ما نراه عند الثعالبى في فقه اللغة حين فرق بين الكلمات التالية :

- **الأنزع** : وهو الذي انحسر الشعر على جانبي جبهته .
- **الأجلع** : وهو الذي زاد انحسار الشعؤ على جانبي جبهته إلى حد أكبر.
- **الأجلى** (**أو الأجله**) : وهو الذي بلغ انحسار الشعر في نصف رأسه .
- **الأصلع** : وهو الذي زاد انحسار الشعر عن نصف رأسه.
- **الأحصّ** : الذي لم يبق في رأسه شعر.

- الأقرع : الذي ذهبت بشرته مع شعره .

ولكن وصف الرأس بالصلع فيه قدر من الفكاهة لما يثيره هذا الوصف من المشاعر الضاحكة وخصوصاً إذا اقترن الصلع بالشيب فأصبح ذلك دليلاً على تقدم العمر بالإنسان وزهد النساء فيه كما قال رؤبة واصفاً دهشة محبوبته سلمى من صلعه واستنكارها أن يكون هذا الصلع إلا امتداداً للجبين :

قال سُليمى : والكبير يصلع ؟ ما رأس ذا إلا جبينٌ أجمعُ !

ويقال للرأس أصلع ، ويقال كذلك هامة صلعاء وجمعها هام صُلْع كما ورد في قول عمرو بم معد يكرب :

وَسَوقُ كتيبةٍ دَلَفَتْ لأُخرى كأن زُهَاءَها رأسٌ صليعُ

ويوصف اليوم الشديد الحر بأنه يوم أصلع كما جاء في الشعر :

يا قِردةً خشيتْ على أظفارها حرَّ الظهيرة تحت يومٍ أصلعِ

وأما المرأة التي ذهب شعرها فقد يقال لها : صلعاء ، زعراء ، قزعاء ، والصلعاء اسم للداهية الشديدة ، ولهذا اعترض بعض علماء اللغة على وصف المرأة بها ، ومالوا إلى وصفها بالزعراء والقزعاء .

وقد تندر الشعراء بالصلع إذا اقترن بكبر السن واحدوداب الظهر وابيضاض ما تبقى من شعر الرأس واللحية ، فهذا عبد الرحمن بن أبي شريح الأنصاري من الخطباء والشعراء المعمرين (ت : ١٠٠ هـ)

يقول : إن قيامة الرجل تقوم إذا حدثت به ثلاث علامات :

إذا رأيت صلعاً في الهامةْ
وحَدَباً بعد اعتدال القامةْ
وصار شعر الرأس كالثُّغامة
فايْأس من الصحة والسلامة
وعد إلى التوبة والندامة
فقد – عليك – قامت القيامة

(الثغام : نبات في الجبال يبيضُّ إذا يبس ويشبه به الشعر الأشيب)

وهذا شاعر آخر يجزع من الصلع ويرى أن الشيب أفضل منه لأن الشيب يمكن ستره بالخضاب ولكن الصلع لا علاج له :

في الشيب عافيةٌ ما لم يكن صلعُ فإن ذاك وذا بلوى إذا اجتمعا
لونُ المشيب إذا ما شئت يستره لونُ الخضاب فماذا يستر الصلعا ؟

وهذا أبو الحسن المدني – وقيل المزني – أصابه الصلع وهو ابن أربعين سنة فراح ينوح :

فهلْ ترى بعد المشيب والصلعْ
لابن ثلاثين وعشرٍ من طمعْ ؟
يَرْقَعُ والدهر يغرِّي ما رَقَعْ
فهل ترى يُغني الحِذارُ والجزعْ
إذا الفتى عاين شيئاً قد طلعْ
كأنما عاين هول المُطَّلعْ

أي أنه يائس من أي أمل بعد أن غزا الشيب ما تبقى من رأسه وداهمه الصلع فلم يعد ينفعه الحذر بعد أن ظهرت عليه إمارات تقدم العمر ولم يعد فيه مطمع للغواني .

ويضيف علي بن الجهم رجلاً قضى عمره معاقراً للخمر حتى إذا ما أصابه الشيب والصلع ورأى صورته منعكسة على صفحة الخمر في الكأس أحس بدنو الأجل فأقلع عن الخمر في الحال :

وَغَطَتْهُ الكأسُ أرتعها
زجرته فانتهى عنها ولو
وأرتْه الشيبَ فيها والصلعْ
غيرها يردع عنها ما ارتدعْ

وينظر ابن الرومي إلى الصلع نظرة إلى الصلع نظرة أخرى فهو يصف الرأس الصلعاء بأنها تشبه المرآة في لمعانها وبريقها فهو يهجو قائلاً :

يا صلعةً لأبي حفص ممردةً
كأن ساحتها مرآة فولاذ

ومع ذلك فهناك من الشعراء من نظروا إلى الصلع وقرينه الشيب على أنهما من علامات الهيبة والمكانة فهذا شاعر يصف ممدوحه بالشجاعة والحكمة فيقول :

" يلوح في حافات قتلاه الصلعْ "

أي أنه يتجنب الأوغاد ولا يتقل إلا الأشراف من الناس المعمرين لأن أكثر الأشراف - كما يقول ابن منظور - وذوي الأسنان صلع كقول الشاعر :

فقلتُ لها : لا تنكريني فقلَّما يسود الفتى حتى يشيبَ ويصلعا

فهو يعاتب حبيبته التى أنكرت شيبه وصلعه ويؤكد لها أن الشيب والصلع علامتان من علامات الهيبة التي ترشح أصحابها للعز والسيادة .

وجع في ظهر شاعر ..!!

الشعراء من أكثر النّاس حباً في الشكوى من زوجاتهم ، أو من عشيقاتهم ، أو من الأطباء ، أو من الفقر وسوء الحال ، أو من سوء أحوال منازلهم وكثرة ما بها من براغيث ، أو تداعي بيوتهم الآيلة للسقوط ، أو من فساد الزمان بوجه عام حين يعجزون عن معرفة سبب آلامهم .

ولكننا هنا سنقف مع طائفة خاصة من الشعراء الشكّائين البكّائين وهو أولئك الذين بلغوا من العمر أرذله ، وطال عليهم الأمد كما طال علي لُبد – أحد نسور لقمان يضرب له المثل في طول العمر – فصاروا يشتكون من ضعف أبصارهم أو تحول أجسادهم أو تهرؤ عظامهم ، ولكن أكثر شكواهم طرافةً هي الشكوى من انحناء الظهر بوصفه أوضح دليل على الشيخوخة والاقتراب من محطة الوصول المرعبة (الموت) فهذا أبو حية النميري يقول إنه كان يمشي على رجْلين فأصبح – بعصاه – يمشي على ثلاثة أرجل :

وقد جعلتُ إذا ما قمتُ أوجعني ... ظهْري فقمتُ قيام الشارب السكرِ

وكنتُ أمشي على رِجْلين معتدلاً ... فصرتُ أمشي على أخرى من الشجرِ

وهذا أعرابي من بني تميم يرى أنه لا عيب فيه يمكن أن يشينه سوى هذا الوجع الدائم في ظهره الذي جعله يألف عصاه فتبدو عليه بسببها علائم الشيخوخة وإمارات الزمن :

وما بيَ من عيب الفتى غير أنني ... أَلِفْتُ قناتي حين أوجعني ظهري

وهو يرى حمل العصا عيباً من عيوب الفتى لأن العادة أن حامل العصا محفوف بالوقار فلا يُستحبُّ منه أن يلهو أو يتغزل كما قال شاعر آخر:

إذا دببتَ على المنسأةِ من كبرٍ فقد تباعد عنك اللهو والغزلُ

المنسأة : العصا

وكما قال حين تقدمت به السن :

رأيت الغانيات نفرن مني نفور الوحش من رامٍ مفيقِ
رأين تغيُّري وأردن لَدْناً كغصن البان ذي الفنن الوريقِ

فالشعراء يشغلهم كثيراً أن تزهد فيهم النساء بسبب كبر السن حتى أبو العتاهية المشهور بزهده يقول متحسراً :

عريتُ من الشباب وكان غضّاً كما يعرى من الورق القضيبُ
ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ

ويفسر لنا عروة بن الورد سر كراهية كبر السن واستعمال العصا فيقول : إن الإنسان إذا تقدمت به السن واعتمد على العصا أمن أعداؤه شره لأنه لم يعد قادراً على القتال ، وزهد فيه أهله لأنه أصلح عبئاً عليهم في خدمته ، يقول عروة متذكراً مصيره :

أليس ورائي أن أدب على العصا فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي ؟

وهذا الأعشى بن ربيعة يتحسر على حاله فيقول مخاطباً زوجته أو حبيبته إن جاز أن نتخيل أن له حبيبة في هذا العمر : إنني وإن كنت الآن منحنى الظهر أسير متوكئاً على عصاي ، فطالما مشيتُ مشية الشباب المختال الذي يسير ملتوياً من

شعوره بالقوة حتى لكأن به عرجاً ، ولكن الزمن ما زال يساومني وأوساومه حتى أخذ شبابي :

فأما تريني حليف العصا   فقد كنتُ من وثبة خامعاً

فساومني الدهر حتى اشترى   شبابي وكنتُ له مانعاً

والشاعر المخضرم لبيد بن أبي ربيعة كان من أكثر الشعراء معاناة من آلام ظهره الذي انحنى بسبب تقدم عمره ومما يروى له عندما بلغ عشراً ومائة سنة قوله :

أليس ورائي إن تراخت منيتي   لزوم العصا تُحني عليها الأصابع؟

أُخبِّر أخبار القرون التي مضتْ   أدِبُّ كأني كلما قمتُ راكعُ!

وهذا شاعر آخر أصابه الكبر وحنى ظهره ، فهو يسير كأنه صياد يتحين الفرص لصيد ثمين ، فهو يسير منحنياً مقترباً من الأرض حتى لا تنتبه الفريسة :

حنتني حانيات الدهر حتى   كأني حابلٌ يدنو لصيدِ

والعرب تعبر عن اعتدال قامة الرجل "بالقناة" وهو تشبيه دقيق فالقناة إلى جانب اعتدالها قوية صلبة ، ولذلك نرى الشعراء الذين التوت ظهورهم يعبرون عن هذا المعنى مستخدمين ذلك التشبيه السائد فيقول أحدهم :

قَصَرَ الحوادثُ خَطْوَةٌ فَتَدَانَى   وحَنَيْنَ صدر قناتهِ فَتَحَانى

صَحِبَ الزمانَ على اختلاف فنونه   فأراه منه شدةً ولِيَانا

ما بال شيخ قد تخدَّد لَحْمه   أنضى ثلاثَ عمائم ألونا

سوداءَ داجيةً وسَحْقَ مُفَوَّفٍ   وأجدَّ أخرى بعد ذاك هِجَانا

والعمائم الثلاث التى أفناها ذلك الشيخ مختلفة الألوان كناية عن ثلاثة أحوال لشعر رأسه حين يكون أسود فاحماً ثم مختلط البياض بالسواد في أول الشيخوخة ثم ناصع البياض حين يغمره الشيب غمراً .

وقال عمرو بن قميئة :

كانت قناتي لا تلين لغامز ... فألانها الإصباحُ والإمساءُ
ودعوتُ ربي بالسلامة جاهداً ... لِيُصِحَّنى فإذا السلامة داءُ

وهل يرد الدعاء العمر الذي ولى ؟ ويدفع الشيخوخة التى هجمت ؟

ويروون أن عبد الملك بن مروان قال لرجلٍ من المعمرين يدعى العريان بن الهيثم يوماً : كيف تجدك يا عريان ؟

قال : أجدنى يا أمير المؤمنين قد أبيض مني ما كنت أحب أن يسودّ ، واسودّ مني ما كنت أحبّ أن يبيضّ ، واشتد مني ما كنت أحب أن يلين ، ولان مني ما كنت أحبّ أن يشتد ، ثم أنشد راجزاً :

سلني أنبئْك بآيات الكبرْ ... نوم العشاء وسعال بالسحرْ
وقلة النوم إذا الليل اعتكر ... وقلة الطعم إذا الزاد حضرْ
وسرعة الطرف وتحميج البصر ... وتركك الحسناء من قبل الطهرْ

والناس يبلون كما تبلى الشجرْ

(التحميج : تصغير العين لتمكينها من الرؤية ، أو إدامة النظر فـ فتح العينين)

فهذا المعمر يعدد علامات الكبر على هذا النحو :

١- النوم المبكر عند آذان العشاء .

٢- السعال الدائم قبيل الفجر.

٣- الأرق طول الليل .

٤- قلة الأكل .

٥- سرعة انغلاق العين وانفتاحها.

٦- الزهد في النساء .

وهذه العلامة الأخيرة في هذه الأبيات يرويها الرواة بروايتين الأولى التى اخترناها والتي تدل على أنه من شدة زهده في النساء يتغافل عن المرأة الحسناء من قبل الظهر، والرواية الثانية تجعل الظاء طاء وتدل على أنه يهرب من معاشرة المرأة من قبل أن تتطهر من حيضها .

ويبكي شاعر آخر على نهايته المؤلمة وقد بلغ السبعين من العمر ولا يرى لنفسه علاجاً إلا الموت بعد أن بلي شبابه وتقوس ظهره ولعبت به الأيام واقترب من لقاء خالقه :

إذا كانت السبعون سنّك لم يكن	لدائك - إلا أن تموت - طبيبُ
وإن امرأً قد سار سبعين حِجَّةً	إلى منهلٍ من ورده لقريبُ
إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقل	خولتُ ولكن قل : عليّ رقيبُ
إذا ما انقضى القرنُ الذي أنت منهمُ	وخُلِّفْتَ في قرْنٍ فأنت غريبُ

وهذا أعرابى آخر أكثر واقعية فهو يصف حال العجوز وصفاً دقيقاً وكأنه يشخص لنا حالةً مرضيةً مستعصيةً فهو يقول : إن الرجال إذا صاروا جدوداً - أي

صار لهم بنون وحفدةٌ – واضطربت أجسادهم ، وأصبحت الأمراض ضيوفاً دائمة التردد عليهم فإنهم يشبهون – والحالة هكذا – زروعاً أينعت وحان قطافها :

إذا الرجـــال ولـــدت أولادهـــا ... واضـطربت مـن كـبر أعضـادها

وجعلـــت أســـقامها تعتادهـــا ... فهـي زروع قـد دنـا حصـادها

وهذا شاعر يشكو انحناء ظهره نتيجة إسرافه على نفسه في شبابه فيقول متندما :

هزئـت عميرة إذ رأت ظهري انحنى ... وذؤابتـي علـت بمـاء خضـاب

لا تهزئـــي مـــني عمـــير فـــإنني ... أنفقت فيكم شرتي وشبابي

ولم تقتصر شكوى انحناء الظهور على الرجال من الشعراء ، بل نجد نساء شواعر يشكون انحناء ظهورهن مثل الشاعرة مريم بنت أبي يعقوب التي ذكرها ابن دحية في كتاب المطرب من أشعارأهل المغرب وقال: أديبة شاعرة جزلة مشهورة تعلم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها.

وعمرت عمراً طويلاً، سكنت أشبيلية وشهرت بها بعد الأربعمائة.

وذكرها صاحب المغرب ، وقال : من أهل المائة الخامسة. ومن شعرها وقد كبرت :

ومـا يرتجـى مـن بنـت سبعين حجـة ... وسـبع كنسـج العنكبـوت المهلـهل؟

تدب دبيب الطفل تسعى إلى العصى ... وتمشي بهـا مشي الأسـد المكبـل!!

هؤلاء الشعراء . . . . فضحوا ضيوفهم !!!

من فنون اللياقة المعاصرة (الإتيكيت) أن يتناول الإنسان طعامه بصورة مقبولة اجتماعياً ، غير منفرة لجلسائه على المائدة ، بحيث لا يصدر منه - في أثناء الأكل - صوت ، ولا ينتثر من فمه طعام هنا وهناك ، ولا يمد يده إلى ما يكون أمام غيره من طعام .

وهذه الآداب العصرية ، سبق بها الإسلام ، بل سبقت بها الطبيعة العربية ذات الذوق المرهف ، والحس النبيل .

ومن هنا فقد تفنن الشعراء العرب - قديماً وحديثاً - في نبذ الشَّرَه وذم الانكباب على الطعام بصورة حيوانية .

وبالغوا في السخرية من كل أكول ضخم الأشداق ، واسع الأمعاء ، يجوع بعينيه قبل أن تجوع معدته ، ويهجم على الطعام كأنه يخوض حرباً ضروساً ولسان حاله يردد مقولة شكسبير (أكون أو لا أكون تلك هي القضية!) غير أنه يحورها لتصبح : أكول، أو لا أكول ، ذلك هو الفيصل في هذه الموقعة التاريخية الحاسمة !! .

فهو يرى كل وجبة - في غير داره - حرباً لا بديل أمامه إلا كسبها وسحق خصومه فيها .

ومن الصور الساخرة التي جادت بها قريحة ابن الرومي - وهو المعروف بإقذاعه في الهجاء وتفننه في السخرية - صورة ذلك البصري الأكول الذي يهجم على الطعام حريصاً على افتراسه كأنه وكيل أيتام ، أو لص قبور ، وهذا الأكول لا يخشى

أن يهجوه أحد لأنه يهدد الإنس والجن والطير والوحش . وإنه ليبلغ من الشره أن لو حاول بلع جبال تهامة لبلغ من ذلك ما يريد .

يقول ابن الرومي :

وأمـا يـد البصـري في كـل صـفحة ... فـأقلع مـن ميـلٍ وأغـرفُ مـن رَفْـش

يبـــادر في قلــــع الطعـــام كأنــــه ... وكيــلُ يتــيم أو مريـــب علـــى نـــبش

ســـأنقش ســـطراً بيّنــاً في جبينـــه ... بــأن لـــه فصّـــي زجــاج بـــلا نقـــش

ســـهوتُ أقيلـــوني فـــإني مغفـــلٌ ... وإن لـــه شـــأناً أجـــلّ مـــن الحـــرش

أأوعـــده بالشـــعر وهـــو مســـلطٌ ... على الإنـس والجنـان والطير والـوحش؟

ألم أره لـــو شـــاء بلـــع تهامـــةٍ ... وأجبالهـــا طاحـــت هنـــاك بـــلا أرش؟

ويستخدم ابن الرومي في وصف صاحبه مفردات فارسية - وهذا معهود في شعره إلى حد يمكن رصده - فيصف بلاعيمه بأنها (دهنشار) بمعنى فم الفسق أو الفحش أي أنها معيبة ، وأنها (دُردُور) أي تشبه دوامة الماء التي تدور حول نفسها فيقول :

أعـذني مـن تلـك البلاعـيم إنهـا ... دهنشـار والـدُّردور ياصـاحب العـرش

يغـير علـى مـال الـوزير وآلـه ... فيـــنفش في رغفـــانهم أيمـــا نفـــش

ومن الحيل الخبيثة لهذا الرجل الأكول الشره . أنه كلما رأى صديقاً له سارع يشكو إليه آلام أضراسه وأسنانه التي أخنى عليها الدهر فضعفت وتكسرت ويحذرنا ابن الرومي من أن تنطلي علينا تلك الحيلة الخبيثة . فما هي إلا ستار :

علـى أنـه ينعـي إلى كـل صـاحبٍ	ضروساً لـه تـأتي على الثـور والكـبش
يخبّــر عنهـــا أن فيهـــا تثلُّمـــا	وذلكـــم أدهـــى وأوكـــد للجـــرش
ألم تعلمـوا أن الرحـى عنـد نقرهـا	وتجريشها تأتي على الصلب والهش؟
فـلا تقبلـوا ذاك التفـارق واحـذروا	شباه ، ولو أمسى مسجى على نعش

وننتقل من ابن الرومي إلى ابن هانئ الأندلسي الذي نراه يخصص قصيدة كاملة في وصف صاحب لـه أكول جشع كأنما تسكن الثعابين فمه ، فهو لا يمضغ طعامه بل يزدرده ازدراداً . فإذا فتح فمه هالك ما ترى فيه من سعة كأنه ميدان من الميادين ، وليس فماً كالأفواه المعهودة .

إن لهاته (اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم) وهي مفتوحة تشبه جهنم التي يقذف إليها بالحجارة والكفار فتقول هل من مزيد؟:

انظر إليـه وفي التحريـك تسكين	كأنمـا التقمــت عنـه التنـــانين
يا ليت شعري إذا أومي إلى فمه	أحلقـــه لهـــوات أم ميـــادين
كأنهـا و[illegible] يضـرمها	جهـنم قـذفت فيهـا الشـياطين

ويرى ابن هانئ في فكي صاحبه زوجاً من الطواحين ، أو مخزناً من مخازن الفراعنة التي كانوا يكدسون فيها الأسلحة الفتاكة ليحاربوا بها رسل الله :

تبـارك الله مـا أمضـى أسنـّته	كأنمـا كـل فـك منـه طـاحون
كـأن بيـت سـلاح فيـه مختـزن	ممـا أعدتـه للرسـل الفـراعين
أين الأسنة أم أين الصوارم أم	أيـن الخنـاجر أم أيـن السكاكين

ويصف لنا ابن هانئ طريقة صاحبه في الأكل : فهو يمسك بالحمل المشويّ فيقذفه في جوفه كأنه يونس حين التقمه الحوت ، ويمسك الجداء (جمع جدي صغار الماعز) المشوية فيلف أيديها مع أرجلها فيقذفها في جوفه كما تفعل الذئاب

أما طريقته في التهام البط والإوز فعجيبة حقاً ، فهو كالشاهين (الطائر المفترس) يهوي عليها فيأخذها آحاداً ومثنى ، وأصوات أسنانه وهي تطحنها تعزف ألحان الطرب والتنغيم :

كأنما الحمل المشوي في يده ... ذو النون في الماء لما عضه النون

لف الجداء بأيديها وأرجلها ... كأنما افترستهن السراحين

وغادر البط من مثنى وواحدة ... كأنما اختطفتهن الشواهين

يخفضّ الوز من قرن إلى قدم ... وللبلاعيم تطريب وتلحين

ثم يحذر ابن هانئ الناس من صاحبه الأكول بعد أن فزعت من مجالسته البغال والحمير وأهابت بأصحابها أن يهربوا قبل أن يفترسهم ذلك الطاحون المهلك الذي لايرتوي ولو شرب نهر الفرات ولايشبع ولو أكل كل ما حملت سفينة نوح :

قوموا بنا فلقد ريعت خواطرنا ... وجاذبتنا الأعنات البراذين

نصحتكم فخذوا من شدقه وزراً ... أو لا فأنتم سويق فيه مطحون

فليس ترويه أمواه الفرات ولا ... يقوته فلك نوح وهو مشحون

وفي تراثنا الشعري القديم قصيدة بديعة لا مثيل لها في بابها ، رواها لنا الثعالبي في يتيمة الدهر ، وهي للشاعر الماجن أبي القاسم الواساني وتقع في ١٩٦ مئة وستة وتسعين بيتاً من روائع الشعر العربي ، وفيها يصف نكبة حاقت به في وليمة

عملها في داره التي يقيم فيها في قرية قرب مدينة دمشق فناله من أصحابه أذى كبير يفتتحها بقوله :

مــن لعــين تجــود بــالهملان	ولقلـــب مدلّــــهٍ حــــيران
يــا خليلـيّ أقصـرا عـن ملامـي	وارثيـا لـي مـن نكبتي وارحمـاني
مـن عـذيري مـن دعـوة أوهنـت	عظمـي وهـدّت بهولهـا أركـاني؟

وفي أكثر من عشرين بيتاً يصف أبو القاسم الواساني بواكير المؤامرة ، حين وجه الدعوة لأصحابه ، فلم يقصروا في تلبيتها على أتم صورة فدعوا جميع معارفهم من سائر البلاد : من الروم وصقلية والسند والهند وبلغاريا والبلقان وبادية الحجاز وبادية نجد ومن سائر الملل والأديان وأجاعوا بطونهم ثلاثين يوماً ثم جاءوا إليه بهذا الجيش العرمرم ذي الأسنان المسنونة :

جمعوا لي الجموع من خيل جيلا	ن وفرغانـــــة إلى ديلمـــــان
ومــن الــروم والصــقالب والــتر	ك وخلقــاً مــن بلغــر والــلان
ومــن الهنــد والطمــاطم والــبر	بــر والكيلجــوح والبيلقــان
لم يبقـوا ممــن عــددت مــن الآ	فــاق مــن مسلم ولا نصـراني
والبــوادي مــن الحجــاز إلى نجـ	ـد معـديها مـع القحطـاني
كل ضـرب فمـن طـوال ومـن حـد	ب قصـار والحـول والعـوران
وشــيوخ مثــل الفــراخ وشــبا	ن رحـاب الأشداق والمصران
معــد جوعــت ثلاثــين يومــاً	بســلاح شــاك مــن الأســنان

ويصف لنا الواساني شعوره لحظة قدومهم إليه ومباغتتهم إياه فلما رآهم كاد يغمى عليه بمجرد رؤية هزا الجيش الجرار من الجائعين :

مــا شــعرنا ونحــن مــن آمــن العــالم إلا بصــرخة الديــدبان

لست أنسى مصيبتي يوم جاءوني وقــد غــصّ مــنهم الواديــان

ويصف ما كان في بيته من أخشاب للتدفئة ومن زروع وضروع وألبان ولحوم وشراب راح ضحية تلك الهجمة الشرسة لهذا الجيش العرمرم .

وقد كان لهذا الجيش من الضيوف زعيمان أحدهما من بني هاشم :

هو نمس الدجاج والبط والأوز وذئــب النعــاج والخرفــان

والثاني أخوه واسمه الفضل وهو ضخم الجثة لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه أمام المائدة :

لست أنساه جاثياً جاحظ العيـ ـن عبوساً في صورة الغضبان

كالعقاب الغرثان يقتنص اللحـ ـم ويهوي إلى طيور الخوان

كلما شقق الفراريج شققـ ـت لغيظي من فعله قمصاني

وهو في أمره مُجِدٌّ رخيُّ الـ ـبال لم يعنه الذي قد عناني

مجرهد كالسوس في الصوف في الصـ ـيف بقلب خال من الإيمان

قلت قل لي يا ابن المبشر ما شأ نك من بين من غراني وشاني

ليس هذا من شهوة الأكل هذا من طريق البغضاء والشنآن

وينقل لنا الواساني حواراً دار بينه وبين أحد هؤلاء الذين ينكبون على الطعام والشراب بلا هوادة فيقول :

قلت للفيلسوف لما غدا في الـ   أكل أعني فتى أبي عدنان
واستحث الكؤوس صرفاً بلا مز   ج مكباً كالهائم العطشان
ليت شعري أمن رسائل بقرا   ط تعلمت ذا وسجع الكهان
أنت تزداد يا خليلي بهذا الـ   ـفعل علماً بالعالم الروحاني

ويصف رجلاً آخر من بلاد (فرغانة) [أوزبكستان حالياً] فيقول إنه مع عجمة لسانه أفصح من أفصح خطباء العرب :قس بن ساعدة وسحبان بن وائل غير أن فصاحته التي يقصدها شاعرنا إنما هي في الأكل لا في الخطابة :

ثم لا تنس ما لقيت وما مر   لشؤمي من عسكر الفرغاني
أعجمي اللسان أفصح من قـ   ـسٍ إذا ما نشا ومن سحبان

ويصف جسم ذلك الرجل فيقول إنه طويل ضخم قليل الفهم والعقل ويدعو الله ألا يميته حتى يرى ذلك الرجل وقد هده المرض فأخذ من طوله شبرين :

رجل كالفنيق فدم بلا لـ   ـب طويل في صورة الشيطان
يقفا كالعمود يستعذب الصفـ   ـع ورأس أصم كالسندان
زائد الخلق ناقص العقل والديـ   ـن غليظ القذال كالقلتان
يبلع الطيبات بلعاً بلا مضـ   ـغ ويحسو النبيذ كالثعبان
لا تمتني حتى أراه وقد قصـ   ـر من فضل طوله شبران

ثم يصف آثار تلك الغزوة على وجه الإجمال فيقول إن ضيوفه تركوه فقيرا جائعا عاريا لايعي محدثه وإذا سمع فإنه لايفهم :

أفقروني وغادروني بلا دا   ر، ولا ضيعة، ولا بستان
حيروني ودلهوني فقد صر   ت بليداً كالذاهل السكران

أسمع اللفظ كالطنين لسهوي وهو لفظ يجري لغير معاني

تركوني يا قوم أفقر من فر خ وأعرى ظهراً من الأفعوان

ويقدم لنا الواساني إحصائية أو كشف حساب بما تم إفناؤه في تلك الوليمة من خبز ودقيق وبن ومعز وضأن ودجاج وأسماك وبيض ومخلل وتفاح وغير ذلك فيقول :

أكلوا لي من الجرادق ألفيـ ـن ببن تشتاقه العارضان

أكلوا لي أضعافها غير مسطو رومالوا إلى سميد الفران

أكلوا لي من الجداء ثلاثيـ ـن قريصاً بالخل والزعفران

أكلوا ضعفها شواء وضعفيـ ـها طبيخاً من سائر الألوان

أكلوا لي تبالة تبلت عقـ ـلي بعشر من الدجاج السمان

أكلوا لي مضيرة ضاعفت ضر ي بروس الجداء والعصبان

أكلوا لي كشيكة قرحت قلـ ـبي وهاجت لفقدها أشجاني

أكلوا لي سبعين حوتاً من النهـ ـر طرياً من أعظم الحيتان

أكلوا لي عدلاً من المالح المشـ ـوي ملقى في الخل والأنجدان

أكلوا لي من القريشاء والبر نـي والمعقلي والصرفان

ألف عدل سوى المصقر والبر دي واللؤلؤي والصيحاني

أكلوا لي من الكوامخ والجو ز معاً والخلاط والأجبان

ومن البيض والمخلل ما تعـ ـجز عن جمعه قرى حوران

فتتوا لي من السفرجل والتـ ـفاح والرازقي والرمان

والرياحين ما رهنت عليه جبتي عند أحمد الفكهاني

درسوا لي من البنفسج والنر | جس ما ليس مثله في الجنان
ذبحوا لي بالرغم يا معشر النا | س ثمانين من معيز وضان
ما كفاهم ما مر من غنم القر | ية حتى أخذوا على الثيران
ذبحوها والدمع يجري على خد | ي انسياباً مثل انسياب الجمان
أكلوا كل ما حوته يميني | وشمالي وما حوى جيراني

وتكون المفاجأة في نهاية الوليمة أليمة حقاً حيث يقول الواساني :

ثم لما أتوا على كل شيء | ختموا محنتي بكسر الأواني

شعراء ظلمتهم ألقابهم !!

الألقاب كما قال العلماء ثلاثة:

١. لقب تشريف: مثل: الفاضل ، الأفضل ، الصالح ، الواثق ، ...

٢. ولقب تعريف: مثل: الجاحظ، والأعشى، والأعمش.

٣. ولقب تسخيف: يراد به السخرية من صاحبه .

واللقب اسم يطلق على إنسان بخلاف اسمه الذي سمِّي به يوم ولد. ويغلب أن يكون لكل إنسان: اسم، وكنية، ولقب. فالاسم هو ما سماه به أبواه يوم مولده والكنية هي ما صُدِّر بأب أو أم ، واللقب هو ما عرف به وشاع عنه. فمثلاً: "أبو حفص الفاروق عمر بن الخطاب" يتضمن الكنية، واللقب، والاسم على الترتيب.

والسطور القادمة تتناول ألقاب تسخيف لشعراء التصقت بهم هذه الألقاب ولعلها أساءت إليهم لكنها مثيرة للسخرية والاستهزاء.

وإن كان بعضهم يعمد إلى اللقب السيئ يلصق به، فيصوغه شعرًا في بيت أو بيتين متفاخرًا به، فيعفي نفسه من عناء السخرية والهزء. فمن هؤلاء الشعراء ذوي الألقاب الغريبة:

١- الوَزَرُ :

هذا لقب غريب لقب به عبد الله بن عمر بن نصر الله الأنصاري، كان طبيبًا وواعظًا، وفقيهًا، وكان معروفًا بخفة ظله، وحلاوة مجالسته. أقام ببعلبك مدة. ثمَّ انتقل إلى القاهرة ومات بها سنة ٦٧٧ هـ وقد وردت ترجمة له في "تاريخ الإسلام"

للذهبي، و"السلوك" للمقريزي، و"النجوم الزاهرة" لابن تغري بردي، و"الوافي بالوفيات" للصفدي .. وغير ذلك من كتب الطبقات.

ترجم له صاحب " المنهل الصافي" ترجمة وافية فقال :

هو عبد الله بن عمر بن نصر الله، الأديب الفاضل الحكيم موفق الدين أبو محمد الأنصاري، المعروف بالورن.

كان قادراً على النظم، له مشاركة في الطب والوعظ والفقه، وكان حلو النادرة. لا تمل مجالسته، أقام ببعلبك مدة، وخمس مقصورة ابن دريد مرثية في الحسين رضي الله عنه وتوفي سنة سبع وسبعين وستمائة.

من شعره :

يا سعد إن لاحت هضاب المنحني ... وبدت أثيلاتٌ هناك تبين

عرج على الوادي فإن ظباءه ... للحسن في حركاتهن سكون

وله :

حار في لطفه النسيم فأضحى ... رائحاً نحوه اشتياقاً وغادي

مذ رأى الظبي منه طرفاً وجيداً ... هام وجداً عليه في كل وادي

ومن شعره في الغزل قوله:

تجور بجفن ثمَّ تشكو انكساره ... فواعجبًا: تعدو عليَّ وتستعدي!!

أحمِّل أنفاس القبول سلامها ... وحسبي قبولاً حين تُسعف بالرد

تثنت فمال الغصن شوقًا مقبِّلاً ... من الترب ما جرَّت به فاضل البُردِ

وقال متحسرًا على أيام قضاها مع بعض أحبابه، وهو يستخدم في هذين البيتين تضمينًا لأسماء بعض كتب الفقه الشهيرة (المجموع)، و(المختصر). وهذا لون من التكلف الذي شاع في شعر ذلك العصر الأيوبي:

لله أيامنا والشمل منتظمٌ	نظمًا به خاطرُ التفريق ما شَعَرا
وا لَهْفَ نفسي على عيش ظفرت به	قطعتُ "مجموعه" المختار "مختصرا"

ومن شعره يتغزل في فتى بدأت لحيته في الظهور، فشبهها بالنمل الذي يدب فوق خديه، ويحرص الشعراء على حبه والهيام به، مستخدمًا التورية فالشعراء والنمل اسمان لسورتين متجاورتين من سور القرآن الكريم (٢٦، ٢٧) يقول الورن :

أنا أهوى حلو الشمائل ألمي	مشهد الحسن جامع الأهواء
آية "النمل" قد بدت فوق خدَّيه	فهيموا يا معشر "الشعراء"

وفي الجملة فإن شعر "الورن" متوسط القيمة، ضعيف التأثير.

٢. ابن خروف:

هو أبو الحسن، نظام الدين، علي بن محمد بن محمد، الأندلسي، غلب عليه لقب أن خروف، أحد النحاة المعروفين، وكان له مؤلفات في علوم عدة، منها: الأصول والمواريث (الفرائض)، ولكن شهرته في علوم النحو والعربية فاقت شهرته في غيرهما من العلوم. فقد ألَّف في فنون العربية مؤلفات عديدة، منها شرحه لكتاب سيبويه، وشرحه لكتاب (الجُمل) وقد درَّس في الأندلس وفي حلب، وتوفي عام ٦٠٩ هـ وترجمته في "وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"البداية والنهاية" لابن كثير، و"عقود الجمان" لابن الشعَّار، "والمُغرب" لابن سعيد، و"بغية الوعاة" للسيوطي.. وغيرها.

ولم يكن ابن خروف يخجل من هذا اللقب الغريب الذي اشتهر به، بل إنه جعله مادةً يتفكه بها في أشعاره، فقد كان له صديق من كبار القوم يدعى نجم الدين بن اللهيب دعاه يومًا إلى طعام، فاعتذر عن عدم الحضور ببيتين من الشعر ظريفين، فالداعي هو ابن اللهيب، والمدعو هو ابن خروف.

ولو أنه لبى الدعوة فسوف يهلك حرقًا فهو يقول:

ابن اللهيب دعاني ... دعاءَ غير نبيهِ

إن سرتُ يومًا إليه ... فوالدي في أبيهِ!!

وذات مرة كتب إلى القاضي بهاء الدين بن شداد يستهديه كساءً مصنوعًا من فراء الغنم، فقال:

بهاءَ الدين والدنيا ... ونورَ المجد والحسب

طلبتُ مخافة الأنواء ... من نُعماك جِلْد أبي

وفضلك عالمٌ أني ... خروفٌ بارعَ الأدبِ

حلبتُ الدهرَ أشطره ... وفي حَلَبٍ صفا حلبي

وحدث مرةً أن كلفه القاضي محيي الدين بن الزكي الإشراف على البيمارستان النوري، وكان لهذا البيمارستان بواب اسمه "السِّيد" – بتشديد السين المكسورة– ومعناه الذئب، فاعتذر قائلاً إن الخروف يخاف الذئاب ، فقال:

مولاي، مولاي: أجرني، فقد ... أصبحت في دار الأسى والحتوف

وليس لي صبر على منزل ... بوابه "السِّيد" وجدِّي "الخروف"!!

ومن شعره في وصف نهر النيل حين زار مصر قوله:

ما أعجب النيل، ما أحلى شمائله ... في ضفتيه من الأشجار أدواح

مــن جنــة الخلــد فيــاضٌ علــى تُــرَعٍ تهــب فيهــا - هبــوب الــريح- أرواحُ
ليســت زيادتــه مــاءً كمــا زعمــوا وإنمــا هــي أرزاقٌ وأربــاحُ

وحدث ذات مرة أن أصدر حاكم دمشق حكمًا بحبس فتى وسيم كان عليه دَين لم يسدده. فكتب إليه ابن خروف يستشفع لهذا المحبوس الجميل فقال:

أقاضــي المسـلمين حكمــت حكمًــا أتــى وجــه الزمــان بــه عبوســا
حبســت علــى الــدراهم ذا جَمــال ولم تحبســه إذْ ســلب النفوســا

٣. أنف الكلب:

وهذا لقب من أسوأ الألقاب، ولعله كان شؤمًا على صاحبه، فلم أعثر له على ترجمة إلا في كتاب الوافي بالوفيات للصفدي، واسمه خطاب بن المعلَّى الليثي الملقب بأنف الكلب، كان من أهل البصرة، ثمَّ وفد إلى مصر، ومدح واليها علي بن صالح بن علي الهاشمي، ويبدو أن مدحه لم يلقَ رواجًا لدى ذلك الأمير، فوعده وعودًا لم يفِ بها، فهجاه بقوله:

لعلــيٍّ بــن صــالح بــن علــيٍّ نســبٌ، لــو يزينُــه بالســماحِ
ومواعيــده الريــاح فهــل أنــت بكفيــك قــابض للريــاح؟!

٤. السُّمَيْسر:

هو أبو القاسم، خلف بن فرج الإلبيري، الملقب بالسُّمَيْسري، له ترجمة في "المُغْرب" لابن سعيد، و"الذخيرة" لابن بسام، وغيرهما. ومن شعره يتندر على بعض من يحبون الأكل:

يــا آكــلاً كــلَّ مــا اشــتهاه وشــاتم الطــبِّ والطبيــبِ
وثمــار مــا قــد غرســت تجــني فــانتظر السـقم عــن قريــبِ

تـُجمِّع الـداء كـلَّ يـوم   أغذيـة السـوء كالـذنوب

ويبدو أن قضية كثرة الأكل فوق طاقة الإنسان كانت تشغل السميسر كثيرًا فقد قال أيضًا مخاطبًا نفسه، أو أحد معارفه، موبخًا إياه لكثرة أكله كل ما يشتهي مع أن الأصل أن يقتصد في طعامه، حتى ساءت حاله، وأصبح عاجزًا عن تناول كل ما يشتهيه. فيقول:

أتأكـل مـا تشـتهي؟   نهيـت، فلـم تنتـهِ

لأكلـك مـا تشـتهي   بقيـت، ومـا تشـتهي!!

وكان مقذعًا في هجائه، فهو حين هجا أبا الحسن عليًا العامري، وصفه بشدة البخل، وأنه لما جاد عليه بشيء يسير، قبله منه، لأن الدرهم من يد البخيل يساوي بدرة (أي كيسًا مملوءًا بالنقود بلغتهم آنذاك) وقد تعجب الناس حين رأوه يقبل هذا العطاء اليسير، وتعجبوا أكثر كيف جاد ذلك البخيل؟ فقال لهم إنه رقاه برقية آتت ثمارها في نفسه، وحولته من صخرة لا أمل فيها لعطاء، إلى رجل سمح، فقال السميسر:

جـاد نـزرًا فقبلنـا   درهـم السـاقط: بَـدْرَةْ!

عجـب النـاس وقـالوا: كيـف نيلـتْ منـه ذرةْ؟

عملـتْ فيـه رقانـا   فلـذا خـالف أمـرهْ

هـل رأيـتم بعـد موسـى   أحـدًا فجـر صـخرةْ؟!

٥. البارد:

هو أبو تمام ، عبد الواحد بن الحسين بن محمد الدباس، الملقب بالبارد.

كان من رواة الحديث الشريف ، فقد رواه عن جده لأمه أبي البركات محمد بن يحيى الوكيل ، ورواه عنه آخرون.

وكان أبو تمام الملقب بالبارد ، يستغل هذا اللقب، ولا يخجل منه، فقد حدث أن جلال الدين بن صدقة- ويبدو أنه كان وزيرًا أو قاضيًا كبيرًا- احتجب عن الناس بعض الوقت ، وجاء البارد يزوره، فلم يؤذن له ، فألح في الدخول مستغلاً لقبه وكتب ورقةً وبعث بها إليه يقول فيها:

وقالوا: تحجَّب عنك مولى	وصار له مكانٌ مُسْتخصُ
فقلت: سيفتح الأبواب شعري	ويدخلها؛ لأن "البرد" لصُّ!!

وقد وردت ترجمة أبي تمام البارد في "ذيل تاريخ بغداد" لابن البخار، وفي "الوافي بالوفيات" للصفدي. ومن شعره قوله:

مات أبو حامد ومات جلال الدين	فاستحصر الهجاء والمديحُ
كنت أهجو هذا، وأمدح هذا	فأنا اليوم خاطري مستريحُ

٦. البطين:

هو البطين بن أُمية البجلي وكنيته: أبو الوليد،شاعر حمصيٌّ جيدُ الشعرِ. وقد ترجم للبطين بهذا اللقب العجيب الأصفهاني في "الأغاني" وياقوت في "معجم الأدباء"، وابن المعتز في "الطبقات".

وذكروا أنه كان من أطول الناس في عصره ، فقد كان طوله اثني عشر شبرًا بأتم ما يكون من أشبار الناس ، وكان يرعب من رآه؛ لطوله، وقبح وجهه.

قال ابن المعتز: "وكان إذا أقبل لا يشك من يراه أنه شيطان!!! حتى يحاوره فيصيب منه آدب الناس وأفصحهم...".

ولكن الذين أرخوا له ذكروا أنه – مع أدبه وفصاحته- كان فاسقًا، وقد أحب امرأةً يهوديةً من أهل الرملة ، فرفض أهلها أن يزوجوها إياه ، لأنه مسلم فتهوَّد ، وتزوجها ، ثمَّ عاد إلى إسلامه!! وكان جيد الشعر محكمه ، يشبه نمطه نمط الأعراب.

وهو القائل :

لم أقل عند الكريهة يا ليتني في الخفض والدعة

بل تسربلتُ الحفاظ على ميت. في الصدر لم يمت

وحسام لا يطيق صداً كانصباب الكوكب الكفتِ

وُصلتْ بالموت هبته كاتصال السم بالحمة

فهو ما أحببت من وزرٍ مطرق ما لم يهج حفتِ

يا أبا العباس ليس على جمجمات البين من صلتِ

مُنيتْ نفسي بواحدة منك لم تدرك ولم تفت

رعية العهد التي وصلت بقواها قوة المقة

فأذني من إضاعتها إن هذاك من الضعة

لم يزل شكريك متصلاً بلساني لك والشفة

فإذا قابلت معضلة كنت مصغاتي وملتفتي

ويروون أن البطين لقي عبد الله بن طاهرٍ فيما بين سلمية وحمصٍ فوقف على الطريق فقال لعبد الله بن طاهر:

مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً بابن ذي الجودِ طاهرِ بن الحسينِ

مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً ... بابن ذي العزتين في الدعوتين

مرحباً مرحباً بمنْ كفه البح ... رُ إذا فاضَ مزبد الرجوين

ما يبالي المأمونُ أيده الل ... هُ إذا كنتما له باقيين

أنت غربٌ وذاك شرقٌ مقيما ... أي فتق أتى من الجانبين

وحقيقٌ إذ كنتما في قديمٍ ... لرزيق ومصعبٍ وحسين

أنْ تنالاَ ما نلتماهُ من المج ... دِ وأن تعلوا على الثقلين

قال : فأمر له عبد الله بن طاهر بعشرة آلاف درهم ، فجاءَ أبو عمران فقاسمه إياها.

وله أيضاً:

ذروني وكلباً إنني اليوم إلبها ... كما هي لي في كل نائبة إلبُ

ألا لا أبالي عتب من كان عاتبا ... يمر برأسي دون ما رضيت كلبُ

وربما احتال البطين لرزقه شأن شعراء ذلك الزمان فقد روى الشيباني عن البطين أنه قال : قدمت على علي بن يحيى الأرميني فكتبت إليه:

رأيت في النوم أني راكب فرساً ... ولي وصيف وفي كفي دنانير

فقال قوم لهم حذق ومعرفة ... رأيت خيراً وللأحلام تعبير

رؤياك فسر غداً عند الأمير تجد ... تعبير ذاك وفي الفال التباشير

فجئت مستبشراً مستشعراً فرحاً ... وعند مثلك لي بالفعل تيسير

قال : فوقع لي في أسفل كتابي: أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

ثم أمرلي بكل شيء ذكرته في أبياتي ورأيته في منامي.

ومما يستحسن للبطين قوله :

رمينـا خمسـة ورمـوا نُعيمـاً ... وكـان المـوت للفتيـان زينـا

فلمـا لم نـدع نـدباً ورمحـا ... بركنـا للكلاكـل فارتمينـا

فإنـك لـو رأيـت بـني أبينـا ... وشـدتهم وعكـرتهم علينـا

لعمـر الباكيـات علـى نعـيم ... لقـد عـزت رزيتـه علينـا

فـلا تبعـد نعـيم فكـل حـي ... سيلقى من صروف الدهر حينا

على أن أجود شعره الذي وصل إلينا هو ما كان في الغزل فمن ذلك قوله :

للّه قلـب سمـا بحـبكم ... لم يـألُ في مرتقـاه مرتفعـا

لم يصـنع الحـب غـير موضـعه ... ولا سـعى في السـلو حـين سـعى

أحببـت قلـبي لـما أحـبكم ... وصـار أمـري لأمـره تبعـا

قال ابن المعتز: "وهذا معنى بديع قلما يرزق الشاعر مثله". وذكر له من هذه القصيدة نفسها أبياتًا أخر منها:

شـيَّعت قلـبي إلى مشـيئته ... متَّـبعًا في الهـوى ومتبعـا

ورب قلـب يقـول صـاحبه ... تعسًـا لقلـبي فبـئس مـا صـنعا

يـا مـن تعريـت مـن تعطفـه ... ومـن كسـاه تعطفـي خلعـا

مـا هبَّـت الـريح مـن بلادكـم ... إلا تقطعـت إثـركم قطعـا

ولا اسـتقلت مـن نحـو بلـدتنا ... إلا تمنيـت أن نكـون معـا!!

وقد كانت وفاة البطين في الاسكندرية بمصر، فقد قال جعفر بن أحمد بن حمدان المصري: قدم علينا البطينُ مصرَ وخرج إلى الإسكندرية، فانخسفت به بئرُ مخرجٍ، فتلفَ فيها.

٧. المثقال:

لقب بهذا اللقب الغريب شاعر مجيد، وضعه ابن رشيق في "الأنموذج" بأنه شاعر مطبوع، قليل التكلف، سهل القافية، خبيث اللسان في الهجاء. اسمه عبد الوهاب بن محمد الأزدي، وردت ترجمته في "مسالك الأبصار" و"الوافي بالوفيات" و"معاهد التنصيص" وغيرها من كتب الطبقات. ويبدو من سيرته أنه كان يتردد بين الأندلس والإسكندرية.

ومن شعره في الغزل:

خيالك زائري من غير وعد ... وأكثر منك بي برًا وحبًّا

فلما أن رآك أطلت بُعدي ... ولم تمنح محبك، منك قربا

سرى وَهْناً فقبَّلني وآلى ... يمين الله، لا عذبت صبًّا

فأحيا مهجةً تلفت غرامًا ... وقلبًا لم يفق دنفا وكربا

فكان الطيف أرأف منك نفسًا ... وألين منك أعطافًا وقلبا

وهي أبيات كما ترى في غاية الرقة واللطف والابتكار، ورهافة الحس.

ومن شعره كذلك قوله وقد أجاد فيه حسن التشبيه:

هم بالوجوه: من البدور ... وبالقدود: من الغصونْ!!

ودروعهم: صِبْغُ الحيا ... وسيوفهم: لحظ العيونْ!!

قال عنه ابن رشيق في الأنموذج: شاعر مطبوع، قليل التكلف، سهل القافية خبيث اللسان في الهجاء. ماجن لا يمدح أحداً. كان يألف غلاماً نصرانياً خماراً واشتهر وأقام ببابه في الحانة ثلاث سنين ، ويدخل معه الكنيسة في الآحاد والأعياد طول هذه المدة، حتى حذق كثيراً من الإنجيل وشرائع أهله ، وهجره مرة فاستعان وتحيل فلم يجد إليه سبيلاً ، وزعم أن عليه قسماً شديداً أن لا يكلمه إلى شهر فدعا بالفاصد وفصد إحدى يديه، ثم دعا بفاصد آخر وفصد اليد الأخرى ، ودخل داره وأغلق بابه، وفجر الفصادين ، فما شعر أهله إلا بالدم يدفع من سدة الباب ، وبلغ الغلام أنه يدعي أنه قتله، فصالحه خوفاً على نفسه! ومن شعره:

خيالك زائري من غير وعد ... وأكثر منك بي براً وحبا
فلما أن رآك أطلت بعدي ... ولم تمنح محبك منك قربا
سرى وهناً فقبلني وآلى ... يمين الله لا عذبت صبا
فأحيى مهجة تلفت غراماً ... وقلباً لم يفق دنفاً وكربا
فكان الطيف أرأف منك نفساً ... وألين منك أعطافاً وقلبا

ومنه:

هم بالوجوه من البدور ... وبالقدود من الغصون
ودروعهم صيغ الحيا ... وسيوفهم لحظ العيون

ومنه :

لما تناهى وكمل ... وتم لي فيه الأمل
أعرض واستبدل بي ... كذلك الدنيا دول

ومنه :

قد زارني طيف من أهوى يعللني — عند الصباح وخيط الفجر قد طلعا
فطرت شوقاً لعلمي أن قبلته — في النوم تحدث لي في وصله طمعا

ووقد مات محبوبه النصراني بالإسكندرية فقال برثيه :

أخي بوداد لا أخي بديانة — ورب أخ في الود مثل نسيب
وقالوا أتبكي اليوم من لست — غداً إن هذا فعل غير لبيب
فقلت لهم هذا أوان تلهفي — وشدة إعوالي وفرط كروبي
ومن أين لا أبكي حبيباً فقدته — إذا خاب منه في المعاد نصيبى
فيا ناصحي مهلاً فلست بمرشد — ويا لائمي أقصر فغير مصيب
وسلمان أودى حيث لا أنا حاضر — أعلله يوماً بوصف طبيب
وأجعل كفي تحت جيب مكرم — علي وخد بالنحول خضيب

٨- المنتوف :

كنيته أبو الجراح ، واسمه عبد الله بن عياش الهمداني الكوفي، روى الحديث عن الشعبي وغيره ، وروى عنه الهيثم بن عدي لأنه كان أحد رواة الأنساب ، والأخبار ولذلك تجد له ترجمةً في كتب المحدثين مثل "تاريخ الإسلام". و"العبر"، و"ميزان الاعتدال"، و"لسان الميزان".

وقد وصفوه بأنه كان أبرص، وكان ينتف لحيته، وهذا هو سبب اللقب الذي عرف به عند من أرخوا له.

ورووا عنه أنه كان كيِّسًا، مطبوعًا، ولكنه كان صاحب نوادر تنم عن خفة ظل وسرعة بديهة؛ فمن ذلك ما روي أن رسالةً جاءت إليه من معن بن زائدة أحد

وجهاء اليمن المعروفين يقول فيها للمنتوف: قد بعثت إليك بخمسمائة دينار، ومن الثياب اليمنية بخمسين ثوبًا أشتري بها دينك!!"، فكتب إليه: "قد بعتك ديني كله إلا التوحيد لعلمي بقلة رغبتك فيه"!!!

وكان مقربًا من الخليفة المنصور، ويتخذ من هذا القرب سندًا لكي سخر ممن يشاء، حتى إنه كان يسخر من وزيره الربيع، ويطعن في نسبه طعنًا قبيحًا.

ويقول له : "فيك شبه من المسيح"!! يخدعه بذلك، فكان يفرح بذلك ويكرمه فلما بلغ ذلك المنصور ضحك كثيرًا .

وقال: إن المنتوف يعبث بالربيع ، ويقصد بذلك أنه يشبه المسيح في أنه لا أب له !!

ومن شعر المنتوف في صديق له حالت الدنيا بينهما ، فقال:

صحبت أبا سفيان ستين خليليْ صفاءٍ ودنا غير كاذب
فأمسيتُ لما حالت الأرض - على قربه مني- كمن لم أصاحب

حافي رأسه :

حافي رأسه هو النحوي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر العلامة جمال الدين التلمساني الزناتي الكملاني المازوني، ولقبه محيي الدين وكان من أئمة العربية في ثغر الاسكندرية في عصره وكان يحفظ كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي ويقرئ بداره وقد تتلمذ عليه كثير من النحاة ولقب بحافي رأسه لحفرة كانت في دماغه وقيل كان في رأسه شيء يشبه الحفرة ، وقيل لأنه كان في أول أمره

مكشوف الرأس وقيل رآه رئيس في الثغر فأعطاه ثياباً جدداً لبدنه فقال: هذا لبدني ورأسي حافي، فأمر له بعمامة فلزمه ذلك اللقب، ومن شعره :

ومعتقد أن الرياسة في الكبر ... فأصبح ممقوتاً بها وهو لا يدري

يجر ذيول الكبر طالب رفعة ... ألا فاعجبوا من طالب الرفع بالجر

وله شعر يصف فيه أهل الاسكندرية بالبخل فيقول :

يا منكراً من بخل أهل الثغر ما ... عرف الورى أنكرت ما لا ينكر

أقصر فقد صحت نتانة أهله ... ومن الثغور كما علمت الأبخر

وقد كان حافي راسه أحد النحاة الثلاثة المحمدين في عصر واحد – أي : هو في الاسكندرية وابن النحاس في مصر وابن مالك في دمشق ومن شعره الغزلي :

ومعلمي الصبر الجميل بهجره ... فثنى فؤاداً عنه لم يك ينثني

لا بد من أجر لكل معلم ... وإلى السلو ثواب ما علمتني

وكتب إلى الأمير نور الدين على بن مسعود الصوابى:

شكوت إليك نور الدين حالي ... وحسبي أن أرى وجه الصواب

وكتبي بعتها ورهنت حتى ... بقيت من المجوس بلا كتاب

حتى النحاة يضحكون !!

النحاة - دون غيرهم من أهل العلم - مشهورون بالصفات المنفِّرة : كالكآبة والتقعر، والانغماس في سفاسف الأمور، وما أكثر ما يذكر الناس قول القائل فيهم.

إذا اجتمعوا على أَلِفٍ وياء   وواوٍ، ثار بينهمُ الجدالُ

وفي العصور الإسلامية الأولى كان الشعراء والفقهاء يجدون لدى الخلفاء ترحاباً وعطفاً وعطايا متجددة ، فيما كان النحاة يعانون من الإهمال والتنكر لقيمة ما يحملون من علم .

ولم يقف سوء حظ النحاة عند هذا الحد ، من جحود الحكام ، بل امتد حتى شمل المؤرخين الذين كانوا يوردون في تأريخهم وتراجمهم للنحاة طرائف ونوادر تحط من مكانتهم وتزري بسلوكياتهم ، وتتندر بأحوالهم ، وتجمع بينهم وبين معلمي الصبية الذين عرف عنهم الحمق وخطل الرأي ، وسوء التدبير.

سوء حظ دائم :

ومما رووه عن نكد الدنيا مع النحاة ، ما ورد في بغية الوعاة للسيوطي (١ /٢.) عن ابن السراج النحوي أنه كان يسير مع صديقه النجم القحفازي في طريق ملوث بالزيت وأواني الزيت الفارغة فعثر ابن السراج في مشيته فقال لصاحبه : تعسنا في "ظرف المكان".

فقال له صاحبه : لأنك تمشي بلا "تمييز" .

فقال ابن السراج : إن هذا "حال" نحس .!!

ومما يروى عن سوء الحظ الذي لازم النحاة ، أن أبا عبيدة معمر بن المثنى - وهو أحد أعمدة اللغة الأوائل - جلس يوماً في مجلس يعلم فيه الناس ، فابتلاه الله تعالى بقوم جهلاء في مجلسه ذاك .

فقام إليه رجل فسأله : رحمك الله يا أبا عبيدة .ما (العنجيد)؟

فقال أبو عبيدة مستغربا : رحمك الله ! ما أعرف هذا.

فقال له الرجل : سبحان الله !! فأين ذهب عنك قول الأعشى:

يـوم تـُبدى لنـا قُتـَيْلَةُ عـن جيـدٍ مـليحٍ يَزِينـُه الأطـواقُ

فقال أبو عبيدة : رحمك الله . " عن" : حرف جر ، و" الجيد" : العنق. ثم قام رجل آخر وقال :يا أبا عبيدة ، رحمك الله . ما "الأودع"؟

فقال أبو عبيدة :لا أعرفه.

فقال الرجل : سبحان الله . فأين أنت من قول العرب :"زاجِمْ بعودٍ أو ْ دعْ

فقال أبو عبيدة : ويحك !! هاتان كلمتان . "أو" :حرف تمييز ، و"دع" : فعل أمر بمعنى اترك .

ثم استغفر أبو عبيدة ربه واستأنف درسه ، فقام رجل آخر وقال : أخبرني يا أبا عبيدة عن رجل من المهاجرين اسمه (كوفا)

فقال أبو عبيدة : لا أعلم من المهاجرين من سمي بهذا الاسم .

فقال الرجل : فأين أنت من قول الله ﷻ :

﴿ ....وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا ... ﴾ [1]

١- سورة الفتح : من الآية ٢٥ .

قال الرواة : فأخذ أبو عبيدة نعليه . وقام مغضباً يجري في مسجد البصرة حيث كان في مجلسه - وهو يصيح بأعلى صوته من أين حُشِرت البهائم عليَّ في هذا اليوم ؟!

يدافعون عن أنفسهم :

غير أن الله تعالى قيض لهؤلاء النحاة من يدافعون عنهم ما يُروَّج ضدهم من إشاعات وهمز ولمز ، فمن هؤلاء المحامين الكبار عن شرف علوم العربية : عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي (ت ١١٧هـ) وهو رأس من رؤوس اللغة أحسن إليها تأليفاً وتدريساً ودفاعاً .

فقد روى القفطى في إنباه الرواة (٢ / ١٠٤) في ترجمته موقفاً طريفاً حدث بينه وبين مفسِّر الأحلام التابعي الجليل ابن سيرين .

فقال : كان ابن سيرين يُبغِض النحويين ، وكان يقول : لقد بَغَّض إلينا هؤلاء المسجد ، وكانت حلقته إلى جانب حَلقة ابن أبي إسحاق.

وبلغ ابن أبي إسحاق أنه يَعيب عليه تفسير الشعر ويقول : ما علمه بإرادة الشاعر ! فقال ابن أبي إسحاق : إن الفتوى في الشعر لا تُحِلّ حراماً ، ولا تُحرِّم حلالاً ؛ وإنما نُفتي فيما اُستتر من معاني الشعر ، وأشْكَل من غريبه وإعرابه بفتوى سمعناها من غيرنا ، أو اجتهدنا فيها آراءنا ؛ فإن زللنا أو عثرنا فليس الزلل في ذلك كالزلل في عبارة الرؤيا ، ولا العثرة فيها كالعثرة في الخروج عما أجمعت عليه الأئمة من سنة الوضوء ، وكرهته الجماعة من الاعتداء في الطهور . فبلغ ذلك ابن سيرين

فأقصر عما كان عليه من الإفراط في الوضوء . وكان إذا جاءه الرجل يسأله عن الرؤيا قال:هات حتى أظن لك .

وكان ابن أبي إسحاق يعتمد الإعراب في عبارته حرفاً واحداً، فمرت به سِنورة [قطة]

فقال : اخْسَئْ ، فقال له صاحبه معاتباً ساخراً ألا قلتَ اخسئي !.

مواقف نكتة:

ومن النحاة قوم أوتوا نصيباً من خفة الظل جاءهم طبعاً لا تكلفاً فهم في أيامهم ولياليهم. ومجالسهم وسمرهم ، ظرفاء حقيقيون لا يصطنعون المزاح وإنما تغلب عليهم طبائعهم المرحة المتفائلة . فمن هؤلاء سعد بن شداد الكوفي تلميذ أبي الأسود الدؤلي وكان له مكان معروف يعلِّم فيه النحو ، ويحضره جمع من طلاب العلم .

قالوا : حضر سعد هذا مجلساً لأحد الحكام الغلاظ الشداد وهو زياد بن أبيه فجاء قوم من بني راسب وقوم من بني طُفاوة يختصمون في مولود ، كل قوم ينسبونه لهم .

فقال سعد : أيها الأمير.. يُلقى هذا المولود في الماء ، فإن رسب فهو من بني راسب وإن طفا فهو من بني طفاوة .

فقام زياد ضاحكاً ممسكاً نعله وكأنه يهدده به وقال له : ألم أنهك عن هذا الهزل في مجلسي ؟ قال السيوطي في البغية (١/ ٥٧٩) عن سعد هذا :

" وكان عُبيد الله بن زياد يستظرفه ويقرِّبه ، فأبطأ عن صلته شهراً ، فقال عبيد الله يوماً : ما أحوجني إلى وُصفاء لهم حلاوة وقدود ذوي رشاقة ، يقومون على رأسي ، فقال سعد : حاجتك عندي أيها الأمير؛ وعمد إلى أصلح مَنْ قدر عليه من الغِلمان الذين عنده في المكتب ، فألبسهم ثياب الوُصفاء ، وأتى بهم عبيد الله فاشتراهم وغالى بهم ، ومضى سعد واختفى عند بعض أصحابه ، فلما جاء الليل بكى الصبيان ، فقال لهم عبيد الله : ما تريدون ؟

قالوا : نريد بيتنا ، فقال : وأين بيتكم ؟ قالوا : في موضع كذا وكذا ، وأنا ابن فلان وهذا ابن فلان : ففطن عبيد الله أنها حيلة وسخرية ، فوضع عليه الرصد [أي خصص من يراقبه ويقبض عليه]. فلما جئ به إليه قال له : ما حملك على ما فعلت؟

قال : أبطأت علي صلتك ! فضحك منه ، وترك له المال ."

ومن هذه المواقف الفكهة ما روي عن أبي حاتم السجستاني أنه دخل بغداد فسئل عن قول الله تعالى :

﴿ ...قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ.... ﴾[1]

(قُوا أنْفُسكُم) : ما يقال منه للواحد ؟

فقال : قِ .

فقال السائل : فما يقال منه للاثنين ؟

---

١ - سورة التحريم : من الآية ٦ .

فقال أبو حاتم : قيا .

قال السائل : فالجمع ؟

قال : قُوا ، قال : فاجمع لي الثلاثة .

قال : قِ ، قيا ، قَوا .

قال أبو حاتم : وكان في ناحية المسجد رجل جالس معه قماش .

فقال لواحد بجانبه : احتفظ بثيابي حتى أجئ ، ومضى إلى صاحب الشرطة وقال : إني ظفرت اليوم بقوم زنادقة يقرءون القرآن على أنغام صياح الدِّيك فما شعرنا حتى هجم علينا الأعوان والشرطة ، فأخذونا وأحضرونا مجلس صاحب الشرطة ، فسألنا فتقدمت إليه وأعلمته بالخبر ، وقد اجتمع جمع من خلق الله ينظرون ما يكون ، فعنفني وعذلني [لامني] .

وقال : مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا ! وعمد إلى أصحابي فضربهم عَشَرة عشرة .

وقال : لا تعودوا إلى مثل هذا . فعاد أبو حاتم إلى البصرة سريعاً ، ولم يُقِمْ ببغداد ، ولم يأخذ عنه أهلها . !!

ومن هذه المواقف أيضاً ما روي عن عبد الله بن بري الذي لم يكن في الديار المصرية أعلم منه بالنحو وكان يقوم بتدريسه في جامع عمرو بن العاص في القرن السادس الهجري ، غير أنه كان بخيلاً اشترى يوماً عنباً فجعله في كم ثوبه ليخفيه عن الناس ، وفيما هو في طريقه استوقفه صاحب له فوقفا معاً يتحادثان وهو

يعبث في العنب من غير قصد حتى نقط العنب على قدمه ، فسأل ذلك النحوي البخيل صاحبه : أتحس المطر ؟

قال :لا .

قال فما هذا الذي ينقط على رجلي ؟

قال: هذا من العنب ! ! فخجل ومضى .

ويتصل بهذه الغفلة أيضاً ما رَوي عن النحوي المعروف باسم (شُمَيْم الحلي) واسمه علي بن الحسن .

روي عنه ياقوت ما يدل على خفة العقل .

فقال : أنشدني لنفسه أبياتاً في الخمر فاستحسنتها فغضب .

وقال : ويلك . ما عندك غير الاستحسان !!

قال ياقوت : فقلت له : و ما أصنع يا مولانا ؟

قال : هكذا : وقام فجعل يرقص ويصفّق إلى أن تعب .

ثم جلس وقال : بُليت ببهائم لا يعرفون الدر من البعر .!!

وروى عنه القفطي نادرة أشنع في الإنباه (٢/ ٢٤٤) عن أبي البركات سعيد بن أبي جعفر الهاشمي الحلبى .

قال : جاء شميم إلى حلب ، فدخلنا عليه مستفيدين (أي لنتعلم عليه) .

فرأيته يوماً وقد أنشدني لنفسه شعراً أكثرنا من الاستحسان له : فقام إلى أحد أركان المنزل ، ونام على ظهره ورفع رجليه إلى الحائط ، ولم يزل يرتفع حتى

استوى واقفاً على رأسه ثم جاءنا وقال: هكذا يُشكر الله على النعمة وهو أن يقف الإنسان على رأسه لا على رجليه .. !!

ومن حماقات النحاة ما روي عن الربعي النحوي (علي بن عيسى تلميذ السيرافي) من أنه كان مبتلى بقتل الكلاب ، فسأل يوماً أولاد الأكابر الذين يحضرون مجلسه أن يمضوا معه إلي منطقة معينة ، فظنوا أن له فيها حاجة فركبوا خيولاً و خرجوا و خرج ماشياً و معه كساء و عصا إلي كلب هناك ، فعدا نحوه ، و الكلب يثب عليه تارة ، ويهرب منه أخرى حتى أعياه ، فعاونه تلاميذه حتى أمسكوا الكلب وجاءوه به ، فعض النحوي الكلب بأسنانه عضاً شديداً و قال : هذا عضني منذ أيام وأردت أن أخالف .

وقد ورد في هذا المعنى قول شاعر قديم :

شَاتمنِي كلْبُ بني مِسْمَعٍ فَصُنْتُ عِنْهُ النَّفْسَ والعِرْضَا
ولم أجبه ، لاحتقاري له مَنْ ذَا يعضُّ الكلْبَ إنْ عَضَّا !

و من ظرفاء النحاة عثمان بن عيسى البُلَطي (بضم الباء وفتح اللام) ترجم له ياقوت و نقل السيوطي ما رواه عنه ياقوت فقال : كان عالماً ، إماماً ، نحوياً لغوياً إخبارياً ، مؤرخاً شاعراً عروضياً ، و كان يخلط المذهبين ، و كان خليعاً ماجناً شراباً للخمر ، منهمكاً في اللذات ، أقام بدمشق برهة ، ثم انتقل إلي مصر لما فتحت فحظي بها ؛ و رتب له الصلاح بن أيوب علي جامع راتباً يقرئ به النحو والقراءات .

وكان آخذ النحو عن أبي نزار وسعيد بن الدهان ، وكان يتطيلس ولا يدير الطيلسان علي عنقه بل يرسله، وكان يلبس في الصيف الثياب الكثيرة ، ويختفي في الشتاء ، فكان يقال له : أنت من حشرات الأرض . ويدخل الحمام وعلي رأسه مبطَّنة ، لا يرفعها إلا إذا سكب الماء على رأسه ثم يلبسها حتى يملأ السطل .

وحضر عنده مغنٍّ فغنّاه صوتاً أطربه ، فبكى هو وبكى المغني .

فقال له : أما أنا فبكيت من الطرب ، فما الذي أبكاك ؟

فقال المغني : تذكرت والدي ، فإنه كان إذا سمع هذا الصوت بكى .

فقال له البطلي : فأنت والله إذا ابن أخي ، وخرج، فأشهد على نفسه جماعة من عدول مصر بأنه ابن أخيه ، ولا وارث له سواه، ولم يزل يعرف بابن أخي البلطي

ومن المواقف الظريفة للنحاة تلك المواقف الشهيرة لإمام أهل الكوفة الكسائي رحمه الله فقد كان يحسن الدفاع عن أهل اللغة فمن ذلك ما روي عنه من حوار بينه وبين أبي يوسف صاحب أبي حنيفة رحمه الله فقد قالوا إن أبا يوسف كان يقع في الكسائي ويقول : أي شيء يحسنه الكسائي ؟ إنما يحسن شيئاً من كلام العرب ، وكأنه يستهين بعلمه ويرى الفقه خيراً منه ، فبلغ الكسائي ذلك . فالتقيا عند الرشيد - وكان الرشيد يعظم الكسائي لتأديبه إياه - فقال لأبي يوسف يا يعقوب : بأيشٍ تقول في رجل قال لامرأته : أنت طالق طالق طالق ؟

قال : واحدة .

قال : فإن قال لها : أنت طالق أو طالق أو طالق .

قال : واحدة .

قال : فإن قال لها : أنت طالق ثم طالق ثم طالق .

قال : واحدة .

قال : فإن قال لها : أنت طالق و طالق و طالق .

قال واحدة . قال (الكسائي) : يا أمير المؤمنين ، أخطأ يعقوب في اثنتين و أصاب في اثنتين .

أما قوله : طالق طالق طالق فواحدة ؛ لأن الثانيتين تأكيد ؛ كما تقول : أنت قائم قائم قائم ، و أنت كريم كريم كريم .

و أما قوله أنت طالق أو طالق أو طالق فهذا شك ، وقعت في الأولى التي تتيقن

و أما قوله : طالق ثم طالق ثم طالق ، فثلاث ؛ لأنها نسق ، وكذلك طالق وطالق و طالق .

وكتب دماز [أبو غسان صاحب أبي عبيدة] إلى المازني معبرا عن ضيقه بباب الإضمار وهو باب من النحو ثقيل ، عسر الهضم ، وكان دِماز قد قرأ من النحو إلى باب الواو والفاء ومن قول الخليل وأصحابه أن ما بعدها ينتصب بإضمار أن فشق عليه فهم هذه الجزئية . فقال دماز شاكيا باب الفاء وباب الواو لأنها بابا الإضمار:

وفكرت في النحو حتى مللت	وأتعبت نفسي له والبدن
وأتعبت بكراً وأصحابه	بطول المسائل في كل فن
فكنت بظاهره عالماً	وكنت بباطنه ذا فطن
خلا أن باباً عليه العفاء	للفاء يا ليته لم يكن

وللــــواو بـــابٌ إلى جنبـــه ... مــن المقــت أحسـبه قــد لعــن

إذا قلــت هـــاتوا لمـــاذا يقـــا ... ل : لســت بآتيــك أو تــأتين

أجيبــوا لمـــا قيــل هــذا كــذا ... على النصب ؟ قالوا : لإضمار "أن"!!

فقد كدت يا بكر من طول ما ... أفكــر في بابــه أن أجــن !!!

وروى محمد بن يزيد الشهير بالمبرد واقعة طريفة عن نفسه فقال : قال لي المازني: يا أبا العباس بلغني أنك تتصرف من مجلسنا فتصير إلى المخيس [مستشفى الأمراض العقلية] وإلى مواضع المجانين والمعالجين فما ذاك؟

قال : فقلت :

إن لهم أعزك الله طرائف من الكلام وعجائب من الأقسام.

فقال : خبرني بأعجب ما رأيته من المجانين.

قال فقلت : دخلت يوماً إلى مستقرهم فرأيت مراتبهم على مقدار بليتهم وإذا قوم قيام قد شدت أيديهم إلى الحيطان بالسلاسل ونقبت من البيوت التي هم بها إلى غيرها مما يجاورها لأن علاج أمثالهم أن يقوموا الليل والنهار لا يقعدون ولا يضطجعون ومنهم من

يحلب على رأسه وتدهن أرداؤه ومنهم من ينهل ويعل بالدواء حسب ما يحتاجون ، فدخلت يوماً مع ابن أبي خميصة وكان المتقلد للنفقة عليهم ولتفقد أحوالهم فنظروا وأنا معه فأمسكوا عما كانوا عليه لولاء موضعه فمررت على شيخ منهم تلوح صلعته وتبرق

للدهن جبهته وهو جالس على حصير نظيف ووجهه إلى القبلة كأنه يريد الصلاة.

فجاوزته إلى غيره فناداني : سبحان الله أين السلام من المجنون ترى أنا أم أنت . فاستحيت منه وقلت : السلام عليكم.

فقال: لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حسن الرد عليك على أنا نصرف سوء أدبك إلى أحسن جهاته من العذر لأنه كان .

يقال : إن لله إخاء على القوم دهشة اجلس أعزك الله عندنا. وأومى إلى موضع من حصيره ينفضه كأنه يوسع لي.

فعزمت على الدنو منه فناداني ابن أبي خميصة: إياك إياك! فأحجمت عن ذلك ووقفت ناحية أستحلب مخاطبته وأرصد الفائدة منه. ثم قال لي وقد رأى معي محبرة : يا هذا أرى معك آلة رجلين أرجو أن لا تكون أحدهما أتجالس أصحاب الحديث الأغثاث أم الأدباء من أصحاب النحو والشعر.

قال : أتعرف أبا عثمان المازني .

قلت: نعم معرفة ثاقبة .

قال : أفتعرف الذي يقول فيه :

وفتى من مازنٍ ساد أهل البصره أمه معروفة وأبوه نكره

قلت : لا أعرفه .

قال : أفتعرف غلاماً له قد نبغ في هذا العصر معه ذهن وله حفظ وقد برز في النحو وجلس في مجلس صاحبه وشاركه فيه يعرف بالمبرد .

قلت : أنا والله عين الخبير به.

قال : فهل أنشدك شيئاً من عبثات أشعاره؟

قلت : لا أحسبه يحسن قول الشعر.

قال : سبحان الله أليس هو الذي يقول:

حبذا ماء العناقيد بريق الغانيات ... بهما ينبت لحمي ودمي أي نبات

أيها الطالب أشهى من لذيذ الشهوات ... كل بماء المزن تفاح خدود الناعمات

قلت : قد سمعته ينشد هذا في مجلس الأنس .

قال : يا سبحان الله أويستحيا أن ينشد مثل هذا حول الكعبة ما تسمع الناس يقولون في نسبه .

قلت : يقولون هو من الأزد أزد شنوءة ثم من ثمالة.

قال : قاتله الله ما أبعد غوره أتعرف قوله:

سألنا عن ثمالة كل حيٍ ... فقال القائلون ومن ثمالة

فقلت محمد بن يزيد منهم ... فقالوا زدتنا بهم جهالة

فقال لي المبرد خل قومي ... فقومي معشر فيهم نذالة

قلت : أعرف هذه الأبيات لعبد الصمد بن المعذل يقوله لها فيه .

قال : كذب من ادعاها غيره هذا كلام رجل لا نسب له يريد أن يثبت بهذا الشعر له نسباً. قلت أنتم أعلم .

قال : يا هذا قد غلبت بخفة روحك على قلبي وتمكنت بفصاحتك من استحساني وقد أخرت ما كان يجب أن أقدمه. الكنية أصلحك الله؟

قلت : أبو العباس .

قال : فالاسم .

قلت : محمد .

قال : فالأب .

قلت : يزيد .

قال : قبحك الله أحوجتني إلى الاعتذار إليك مما قدمت ذكره. ثم وثب باسطاً يده لمصافحتي.

فرأيت القيد في رجله قد شد إلى خشبة في الأرض فأمنت عند ذلك غائلته .

فقال لي : يا أبا العباس صن نفسك عن الدخول إلى هذه المواضع فليس يتهيأ لك في كل وقت أن تصادف مثلي في مثل هذه الحال الجميلة أنت المبرد .

وجعل يصفق وقد انقلبت عينه وتغيرت حليته. فبادرت مسرعاً خوفاً أن تبدرني منه بادرة وقبلت قوله فلم أعاود الدخول إلى مخيس ولا غيره.

والنحوي قد يقبل أن يسبه أحد بشرط ألا يلحن ولا يخطئ فقد قالوا إن الشاعر الهجاء الماجن عبد الصمد بن المعذل كان قد وجد [غضب] من شيء أنكره المازني النحوي وكلام تكلم به فيه فقال يهجوه وأفحش :

بنت ثمانين بفيها لثغه	شوهاء ورشاء كطين الردغه
ممشوطة لتهـا الثمغه	ملوية أصباغها المصمغه
مخضوبة في قمص مصبغه	مثلبة للصاحب منزغه
فيها يعاف الخفرات ميلغه	ملسبةٌ بالناقرات ملدغه

أعارها الغضون منه الوزغه	والظربان كشحه وأزفغه
والديك أحذى الجيد منها النغنغه	ألقت حليساً لي وألقت مردغه
وهامستني بحديث فغفغه	وحلف منها وإفك مغمغه
إنك إن ذقت حمدت المضغه	فقلت ما هاجك قالت دغدغه
فقلت من أنت فقالت لي دغه	وابنى أبو عثمان ذو علم اللغه
فاطوِ حديثي دونه أن يبلغه	هممت أعلو رأسها فأدمغه

فبلغ أبا عثمان فلم يبال بتلك الصفات الوضيعة التي ألصقها بأمه وقال قولوا لهذا الجاهل بم نصبت "فأدمغه" لو لزمت مجالسة أهل العلم كان أعود عليك.!!!

ويروي لنا السيوطي في البغية نادرة عن أبي مكنون النحوي الذي وقف يدعو ربه فسمعه أعرابي كان بجواره وهو يدعو قائلا : اللهم ربنا وإلهنا ومولانا ، صل على نبينا ، اللهم ومن أرادنا بسوء فأحط ذلك السوء به كإحاطة القلائد على ترائب الولائد ، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على أصحاب الفيل ، اللهم اسقنا غيثا مريعا مجللا ، وحَياً سحاً سفوحا طبقا غدقا ، ودقا مثعنجرا .

ففزع الأعرابي وقام صارخا : يا خليفة نوح ، الطوفان ورب الكعبة . دعني آوي بعيالي إلى جبل يعصمني من الماء !!

وروى القفطي عن أبي علقمة النحوي أنه مر يوما على عبدين : حبشي وصقلي ، فإذا الحبشي قد ضرب بالصقلي الأرض ، فأدخل ركبتيه في بطنه وأصابعه في عينيه وعض أذنيه وضربه بعصا فشجه وأسال دمه ، فقال الصقلبى لأبي علقمة

- الذي مر بهما فشهد الضرب اشهد لي على خصمي بما رأيت ، فمضوا إلى الأمير فقال له الأمير : بم تشهد ؟

فقال : أصلح الله الأمير. بينا أنا أسير على كودني ، إذ مررت بهذين العبدين ، فرأيت هذا الأسحم قد مال على هذا الأبقع ، فحطأه على فدفد ، ثم ضغطه برضفتيه في أحشائه ، حتى ظننت أنه تدعج جوفه ، وجعل يلج بشناتره حجمتيه يكاد يفقؤهما ،وقبض على صنارتيه بمبرمه وكاد يحذهما ، ثم علاه بمنسأته فعفجه بها ، وهذا أثر الجريان عليه بينا.

فقال الأمير : والله ما فهمت مما قلت شيئا .

فقال أبو علقمة : قد فهمناك إن فهمت ، وأعلمناك إن علمت. وأديت إليك ما علمت ، وما أقدر أن أتكلم بالفارسية .

فجهد الأمير في كشف الكلام حتى ضاق صدره ، ثم كشف الأمير رأسه وقال للصقلبي المجني عليه : شجني خمساً وأعفني من شهادة هذا !!

مواصفات جزمة نحوي :

ويحكي لنا الشاعر المصري المجهول شرف بن أسد (ت ٧٣٨هـ) حكاية طريفة عن نحوي مر بإسكافي يبيع النعال فوقف ببابه يريد أن يشتري نعلاً فقال النحوي للإسكافي :

"أبيتَ اللعن ، واللعنُ يأباك ، رحم الله أمَّك وأباك ، وهذه تحية العرب في الجاهلية قبل الإسلام ، ولكن عليك السِّلْم والسَّلَمُ والسَّلام ، ومثلك من يُعز ويُحترمْ ويُكْرم ويُحْتَشَم ، إنني قرأتُ القرآن و" التيسير" و" العنوان " و" المقامات

الحريرية" و " والدرة الألفية " و " كشاف الزمخشري " و " تاريخ الطبري " ، وشرحت اللغة مع العربية على سيبويه ، ونفطويه، والحسن بن خالويه ، والقاسم بن كُمَيْل والنضر بن شميل ، وقد دعتني الضرورة إليك ، وتمثلت بين يديك ، لعلك تتحفني من بعض حكمتك ، وحسن صنعتك ، بنعل يقيني الحر ، ويدفع عني الشر ، وأعرب لك عن اسمه حقيقاً ، لأتخذك بذلك رفيقاً : ففيه لغات مختلفة ، على لسان الجمهور مؤتلفة : ففي الناس من كناه بـ " المَدَاس " ، وفي عامة الأمم من لقبه بـ" القَدَم"، وأهل شهرنورزة سموه بـ " الساموزة ".

وإني أخاطبك بلغات هؤلاء القوم ، ولا إثم عليَّ في ذلك ولا لوم، والثالثة بي أولى . وأسألك أيها المولى ، أن تتحفني بساموزة أنعم من الموزة ، أقوى من الصوان وأطول عمراً من الزمان ، خالية البواشي ، مطبقة الحواشي ، لا يتغير علي وشيها ،ولا يروعني مشيها، لا تنقلب إن وَطِئْتُ بها جُروفاً ، و لا تنفلتُ إن طحتُ بها مكاناً مخسوفاً ، ولا تلتوي من أجلي ، ولا يؤلمها ثقلي ، ولا تتمزق من رجلي ، ولا تتعوج ولا تلقوج ، ولا تنبج ، ولا تنفلج ، ولا تقب تحت الرجل ، ولا تلصق بخبز الفجل ظاهرها كالزعفران ، وباطنها كشقائق النعمان ، أخف من ريش الطير ، شديدة البأس على السير ، طويلة الكعاب ، عالية الأجناب ، لا يلحق بها التراب ، ولا يغرقها ماء السحاب ، تصر صرير الباب ، وتلمع كالسراب ، وأديمها من غير جراب جلدها من خالص جلود الماعز ، ما لبسها أحد إلا افتخر بها وعز ، مخروزة كخرز الخرنفوش ، وهي أخف من المنقوش ، مسمرة بالحديد ممنطقة ، ثابتة في الأرض المزلقة ، نعلها من جلد الأفيلة لا الحمير الفطير ، وتكون بالنرر الحقير" .

فلما أمسك النحوي وانتهى من كلامه ، وثب الإسكافي على أقدامه ، وتمشى وتبختر ، وأطرق ساعة وتفكر ، وتشدد وتشمر ، وتحرج وتنمر ، ودخل حانوته وخرج وقد داخله الحنق والحرج.

فقال له النحوي : جئت بما طلبت .

فقال : لا بل بجواب ما قلت .

فقال : قل وأوجز ، وسجع ورجز .

فقال : أخبرك أيها النحوي ، أن الشرسا يحزوي ، شطبطبات المتقرل والمتقبعقب لما قرب من قرى قوق القرنقنقق ، طرق رزقنا ، شراسيف قصر القشتبع من جانب الشرشنكل والديوك تصهلل ، كنهيق الرقايق الصولجانات ، والحرفرف الفرتاح ، يبيض القرقنطق والزعر برجوا حلبنبوا يا حيزا ، من الطير ، بحج بجمند كبشمردل ، خاط الركبنبو ، شاع الجبربر ، بجفر الرتاح ، ابن يوشاخ ، على لوى شمندخ ، بلسانتن القراوق .

مازكلوخ ، إنك أكيت أرس برام ، المسلطنح بالشمردلند مخلوط ، والزيبق بحبال الشمس مربوط علعل بشعلعل ، مات الكركندوش أدعوك في الوليمة ، يا تيس يا حمار يا بهيمة ، أعيذك بالرحواح ، وأبخرك بحصى لبان المستراح ، وأوفيك وأوقيك ، وأرقيك ، برقوات مرقات ، برقوات مرقات قرقوات البطون ، لتخلص من داء البرسام والجنون .

ونـزل مـن دكانـه ، مستغيثاً بجيرانـه ، وقبض لحيـة النحـوي بكفيـه ، وخنقـه بإصبعيه ، حتى خرّ مغشياً عليه ، وبربر في وجهه وزمجر ، ونأى بجانبه واستكبر وشخر ونخر ، وتقدم وتأخر.

فقال النحوي مستغربا مستغيثا : الله أكبر الله أكبر ، ويحك أنت تجننت ؟

فقال له : بل أنت تخرفت .!!

وهكذا انتهت قصة النحوي الذي أراد أن يشتري نعلاً من إسكافي لا شأن له باللغة فانتهي ذلك به إلى ما لا تحمد عقباه من المهانة والفضيحة ، وقد حكى لنا هذه الحكاية ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات (١٠٢/٢) وابن تغري بردي في المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (٢٣٦/٦) والذي يتتبع نوادر النحاة في كتب التراث يجد من أمثالها الكثير والكثير ولكن عليه أن يحتاط لنفسه بكثير من الصبر والأناة حتى لايصاب بما أصيب به النحاة من حب الغريب من اللفظ حتى لا تتأثر حياته الزوجية في عصرنا هذا الذي يتميز بالقلق ونفاد الصبر.

ملحوظة :

الكلمات الغريبة في عبارات الإسكافي لا أصل لها في اللغة فهي ليست ذات معنى وإنما هي تعبير عن ضيقه بحذلقة النحوي .!!

القسم الثاني :

قضايا وشخصيات

الشاعر الجاهلي المغمور

أبو دواد الإيادي

شاع فى كتب الأمثال العربية قولهم "جار كجار أبى دواد" فمن أبو دواد ؟ وما الذى فعله ذلك الجار الذى خلد فعله ذكراه ؟ ولم ضاع شعر أبى دواد؟٠

لقد كان أبو دواد الإيادى شاعرا مجيدا للوصف ، وكان ابنه شاعرا واسمه دواد، وابنته دوادة شاعرة أيضا٠

ولكن ما بقى من تراث هذه الأسرة الشاعرة قليل فى بطون أمهات الكتب٠ برغم جودته ورقته ٠

وفى السطور التالية نقضى ساعة فى ضيافة هذه الأسرة الشاعرة التى ذاع صيتها وضاع صوتها بين رياح التاريخ الأدبى الهوجاء:

اسمه وكنيته :

لم يتفق المؤرخون على اسم أبو دواد الإيادى٠ وهناك عدة روايات:

- قال الأصفهانى [1] : إن اسمه جارية بن الحجاج . وكان أبوه الحجاج يلقب بحمران بن بحر بن عصام بن منبه بن حذاقة بن زهير بن إياد بن نزار بن معد٠ ونسب القول بهذا الى يعقوب بن السكيت٠

---

١ - أبو الفرج الأصفهانى . الأغانى ، ج١٦ ٠ دار إحياء التراث العربى.- طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، ص ٣٧٣ وما بعدها .

- وقال محمد بن حبيب البغدادى (ت٢٤٥هـ) فى كتابه "كنى الشعراء" أن اسمه حارث بن حمران ابن بحر بن عصام ، وأشار عبد السلام هارون فى تحقيقه لهذا الكتاب إلى ما أورده صاحب المؤتلف من أن اسمه جويرية بن الحجاج أو حنظله بن الشرقى كما فى الشعر والشعراء [١].
- وقال الآمدى فى "المؤتلف والمختلف" : اسمه جويرية بن الحجاج من حى من إياد [٢].
- وقال ابن قتيبة فى "الشعر والشعراء : اختلفوا فى اسمه فقال بعضهم هو جارية بن الحجاج ٠ وقال الأصمعى : هو حنظلة بن الشرقى٠ وقد علق المحقق أحمد محمد شاكر على هذه العبارة واصفا إياها بالشذوذ لأن حنظلة بن الشرقى هو أبو الطمحان القينى ووردت له ترجمة فى الشعر والشعراء نفسه، كما أن الأصمعى الذى نسب إليه تسمية أبى دؤاد بحنظلة أورد لأبى دواد قصيدة فى الأصمعيات وقال : اسمه جارية بن الحجاج [٣]
- وقال كارل بروكلمان ان اسمه : جورية بن الحجاج [٤].
- وقالت د٠ بنت الشاطئ فى شرحها لرسالة "الصاهل والشاحج" لأبى العلاء المعرى عن جمهرة الأنساب أنه جارية بن الحجاج كما أشارت إلى ما

١- محمد بن حبيب . كتاب كنى الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه .- تحقيق عبد السلام هارون ، فى نوادر المخطوطات، ج٥.- ط٢ .- القاهرة : مكتبة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٧٣م؛ ص٢٨٥ .

٢ . الأمدى . المؤتلف والمختلف . بيروت : دار الكتب العلمية .- ط٢ ؛ ١٩٨٢، ص ١١٥.

٣ . ابن قتيبة . الشعر والشعراء .- ج١ .- القاهرة : دار المعارف؛ ١٩٨٢ ؛ ص ٢٣٧.

٤ . كارل بروكلمان . تاريخ الأدب العربى .- ج١.- ترجمة د٠ عبد الحليم النجار .- ط٥ .- القاهرة : دار المعارف ؛ ١٩٨٣؛ ص ١١٨ .

أورده ابن قتيبة من خلاف فى اسمه[١] .

- وذكر ابن خلكان أن اسمه حارثة بن حجاج وقيل حنظلة بن شرقى[٢] .

وحاصل ما تقدم أن اضطراب الرواة فى ذكر اسمه يجعلنا أمام أحد الاحتمالات التالية:

١- أن يكون اسمه حارثة أو جارية. وواضح أن الاختلاف بينهما مرجعه إلى ظاهرة التصحيف التى كانت تسيطر على كتب التراث التى قلما ورد فيها نقط الحروف فمبنى الكلمتين - بدون النقط - واحد هكذا (حاره)؛

٢- وأن تسمية "جويرية" وهى تصغير جارية التى أوردها الأمدى ونقلها عنه بروكلمان تقوى احتمال أن يكون الاسم جارية لاحارثة . وقد تكون تصغير الاسم صاحبة حقبة من حياته فى أول عمره مثلا .

٣- ولا خلاف بين الرواة على أن اسم أبيه "الحجاج" وأن لقب الحجاج هذا كان (حمران) مما جعل محمد ابن حبيب ينسبه إلى اللقب فيقول أن اسمه : حارث بن حمران .

٤- ولا خلاف بين الرواة على أن اسمه بعد أبيه مستقيم فجده هو بحر بن عصام .

١ . أبو العلاء المعرى . رسالة الصاهل والشاحج .- تحقيق د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) .- ط٢ .- القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٤؛ ص ١٥٨ .

٢ . ابن خلكان . وفيات الأعيان .- ج٥ تحقيق د: إحسان عباس، بيروت : دار صادر ، ١٩٧٧م ص ١٦٤ .

٥- وأما حنظلة بن شرقى فهو خطأ محض ، أو قول منسوب إلى الأصمعى دون دليل وقد نقله ابن خلكان فيما يبدو عن ابن قتيبة وإن لم ينص على ذلك صراحة .

وأما كنيته (أبو دواد) فقد أشار إليها ابن منظور[1] فى لسان العرب فى مادة (دود) فقال : "قال بن الأعرابى: الدوادى مأخوذ من الدواد وهو الخضف الذى يخرج من الإنسان· وبه كنى أو دواد الإيادى والخضف - كما قال فى اللسان أيضا - هو الضراط وأنشد:

إنـــا وجـــدنا خلفـــاً بـــئس الـــخلف

عبـــدا إذا مـــا نـــاء بالجمـــل خضـــف

أغلـــق عنـــا بـــابه ثـــم حـــلف

لا يُـــدخل البـــوابُ الا مـــن عَـــرَف

ولكننا نستبعد أن يكون هذا المعنى اللغوى البعيد عن الذوق العربى هو مصدر الكنية .

ونميل إلى أن يكون أو دواد قد كنى بهذه الكنية لأن له ولداً اسمه دواد أشارت المصادر التاريخية الى وجوده والى أن لهذا الولد مع أبيه مواقف مشهودة سيأتى ذكرها ولعله كان أكبر - أو من أكبر - أولاده فكنى به .

---

١ . ابن منظور · لسان العرب .- م٢ - القاهرة : دار المعارف ؛ د·ت؛ ص ١٤٥٠ (مادة دود)؛ ص ١١٨٩ مادة (خضف) .

موطنه :

يبدو أن دواد بن أبى دواد كان من أكابر بنى إياد الذين سكنوا شمالى الجزيرة العربية فقد وصفه المؤرخون بأنه كان أحد نُعَّات الخيل الثلاثة المشهورين والآخران هما طغيل الغنوى والنابغة الجعدى .

قالوا : "وإنما أحسن أبو دواد وصف الخيل لأنه كان على خيل النعمان بن المنذر"

وهناك من النصوص ما يدل على أن إيادا اختارت السكنى بأرض ما بين نهرى دجلة والفرات. فقد روى الأخفش الأصغر (ت ٣١٥هـ) فى كتاب "الاختيارين"[(١)]

قصيدة للأخنس بن شهاب التغلبى مطلعها:

لابنة حيطان بن عوف منازل كما رقَّش العنوان فى الرقّ كاتب

يذكر فيها بعض تنقلات قبائل العرب فى أراضى الجزيرة فيقول:

وبكر لها بر العراق ، وان تخف يحل دونها، من اليمامة حاجب

وصارت تميم بين قف ورملة لها فى حبال منتأى ومذاهب

وكلب لها خبث فرملة عالج إلى الحرة الرجلاء حيث تحارب

وغسان حى، عزهم فى سواهم يجالد عنهم حسر وكتائب

إلى أن يقول :

وغارت إياد فى السواد ودونها برازيق عجم تبتغى وتضارب

---

١ . الأخفش الأصغر (ت ٢٣٥هـ) . كتاب الاختيارين .- تحقيق د. فخر الدين قباوة .- ط٢ .- بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٤؛ ص ١٤٠ .

فالمراد بالسواد هنا أرض العراق، والبرازيق واحدها برزيق وهو الموكب بالفارسية.

كما روى الأخفش أيضا فى كتابه هذا قصيدة للأسود بن يعفر النهشلى [(١)] مطلعها:

نام الخلى وما أحس رقادى والهم محتضر لدى وسادى

جاء فيها :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد؟

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذى الشرفات من سنداد

أرض تخيرها لبرد مقيلها كعب بن ماجة وابن أم دواد

وسنداد أسفل الحيرة بينها وبين البصرة، كما جاء فى المصادر، وقد كانت الحيرة هى عاصمة ملك المناذرة وهم من أصول عربية يمنية ترجع الى قبيلة لخم وقد جاءوا إلى أرض العراق فى حوالى القرن الثالث الميلادى واتخذوا الحيرة مستقرا لهم وهى تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات على بعد ثلاثة أميال من المكان الذى بنيت فيه الكوفة فيما بعد [(٢)] .

وكانت قبيلة إياد – التى دان أكثر أفرادها بالنصرانية هم وتغلب وبكر – وقد غادرت أرض البحرين بعد أن أجْلتها عنها قبيلة عبد القيس، إلى أرض العراق بين

---

١ . السابق . ص ٥٥٨ .
٢ . د. يحيى الجبورى . الجاهلية .- بغداد : مطبعة المعارف، ١٩٦٨؛ ص ٤٩ .

النهرين واستوطن الإياديون تكريت وسنداد وغيرهما من تلك البلاد الخصبة واتخذوا الزراعة مهنة لهم.

ولم تكن الزراعة من المهن التى تتفق مع الطبيعة العربية التى تميل إلى التجارة والرعى.

فقد كان العرب يرون فى الزراعة ذلا وهوانا لأنها كانت حرفة الحضر وأهل الحضر المستقرين، أما أهل البادية فكانوا أهل مغامرة وفتوة. وقد عير الأعشى قبيلة إياد بامتهان الزراعة.

فقال [١]:

لسنا كمن جعلت إياد دارها ... تكريت تنظر حبها أن يحصدا

قوما يعالج قُمَّلا أبناؤهم ... وسلاسلا أجدا وبابا موصدا

وهذه الأبيات السابقة تدل على مساكن إياد بعامة ومساكن أبى دواد (ابن أم دواد) وكعب بن مامة بصفة خاصة.

وذهب ابن خلكان فى ترجمته لأبى عبد الله محمد بن سنان الحرانى التبانى الحاسب (ت٣١٠هـ) وهو عالم فلكى قديم توفى بموضع يسمى الحضر بفتح الحاء وسكون الضاد - وهى مدينة قديمة بالقرب من تكريت بين دجلة والفرات فى البرية يلقب حاكمها بالساطرون - بفتح السين وكسر الطاء وضم الراء - وهو لفظ

---

١ . السابق ، ص ٧٨ .

سرياني معناه الملك، إلى أن أبادوا الايادى ذكر فى شعره حصار أردشير بن بابل أول ملوك الفرس لهذه المدينة وقتل الساطرون فقال أبو دواد [1]:

وأرى الموت قد تدلى من الـ حضر على رب أهله الساطرون

مرعته الأيام من بعد ملك ونعــــيم وجـــوهر مكـــنون

مكانة أبي داود بين قومه :

روى الأصفهاني فى الأغاني (١٦/٣٧٧) عن الأصمعى أن أبا دالود كان على خيل المنذر بن ماء السماء فأكثر وصفه للخيل. وقد كان المنذر بن ماء السماء (٥١٤- ٥٥٤م) من أشهر ملوك المناذرة ومحط رحال الشعراء وكان يتمتع بشخصية قوية فقد رفض الديانة المزدكية التى عرضها عليه "قباذ" ملك الفرس الذين كان المناذرة يتبعونهم سياسيا مما أدى إلى عزله حتى أعاد كسرى أنو شروان الذى خلف قباذا وكان يبغض المزدكية فعاد المنذر حاكما للحيرة وعادت معه عاداته التى عرف بها مثل يومى النعيم والؤس وغيرهما.

ولاشك فى أن تولية أبى دواد أمر الخيل بالنسبة لملك كالمنذر كانت دليلا على مكانة اجتماعية متميزة حظي بها هذا الشاعر الإيادى مما جعله يتفنن فى نيل الحظوة بتجويد شعره وإتقان عمله، فأجاد فى وصفه الخيل حتى اشتهر. وقد كان لأبى دواد ناقة تسمى الزباء وكان بنو إياد - فيما يروى صاحب الأغانى - يتبركون بها. فلما أصابتهم سنة قاحلة تفرقوا ثلاث فرق : فرقة سلكت فى البحر فهلكت وفرقة قصدت اليمن الى حيث أصولها الأولى فسلمت. وفرقة قصدت أرض جيرانهم

---

١ . ابن خلكان . مرجع سابق ؛ ص ص ١٦٤- ١٦٥ .

من قبيلة بكر بن وائل فنزلوا بالحارث بن همام وكان السبب فى ذلك أنهم أرسلوا الزبا ناقة أبى دواد التى كانوا يتبركون بها واتبعوا سيرها فحيثما اتجهت اتبعوها ومازالوا كذلك حتى بركت فى فناء الحارث بن همام وكان أكرم الناس جوارا فقال أبو دواد يمدحه ويذكر ناقته الزباء:

فإلى ابن همام بن مرة أصعدت ... ظعن الخليط بهم فقل زيالها

أنعمت نعمة ماجد ذى منة ... نصبت عليه من العلا أظلالها

وجعلتنا دون الولى فأصبحت ... زباء منقطعا إليك عقاله

ويبدو أن أبا دواد لم يتبوأ تلك المكانة فى قومه إلا بعد أن ظهرت عليه مخايل الفروسية وأمارات الشجاعة فقد روى له أبو العلاء المعرى فى رسالة الصاهل والشاحج أبياتا تموج بالفخر والفروسية وحب ركوب الخيل يقول فيها(١):

علقت هامتى بعض ما يمـ ... ـنع منى الأعنة الأقدار

وانجرادى بهن نحو عدوى ... وارتحالى البلاد والتسيار

تلكم لذتى الى يوم موتى ... إن موتا وإن عمرت قصار

١ . أنظر المرجع رقم (٦) ص ١٥٨ .

قصة جار أبى دواد :

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن مكانة أبى دواد بين قومه أن نتغاضى عن البيت الشهير الذى يتردد كثيرا فى كتب التراث منسوبا إلى الشاعر قيس بن زهير العبسى وهو قوله:

أطوف ما أطوف ثم آوى　　　إلى جـار كجـار أبـى دواد

ويروى أحيانا :

سـأفعل مـا بـدا لى ثـم آوى　　　إلى جـار كجـار أبـى دواد

وقد ورد ذكر ذلك الجار نفسه فى قول طرفة بن العبد يمدح عمرو بن هند :

إنـى كفـانى مـن هـم هممـت بـه　　　جـار كجـار الحـذاقى الـذى انتصـفا

والحذاقى هو أبو داود منسوبا إلى حذاق وهم قبيلة من إياد. فمن ذلك الجار؟

الحقيقة أن الرواة اضطربوا فى تحديد شخصية ذلك الجار فمنهم من ذهب إلى أنه كعب بن مامة الإيادى وهو ابن عم أبى دواد ؛ ومنهم من ذهب إلى أنه الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ؛ ومنهم من ذهب إلى أنه المنذر بن ماء السماء .

وقد روى الأصفهانى ثلاث قصص يبدو فيها عدم القدرة على تحديد ذلك الجار الشهم من بين هؤلاء الثلاثة. أما ابن قتيبة فقد جعل ذلك الجار ملكا من

ملوك اليمن لجأ ليه أبو دواد، ثم جعله مرة ثانية الحارث بن همام بن مرة ، ثم نقل عن أبى عبيدة أنه كعب بن مامة ، ولم يحدد لنا كذلك إلى أى الروايات يميل .

أما أن هذا الجار الممدوح هو الحارث بن همام فقد ساق ابن قتيبة فى تأييد ذلك قصة مؤداها أن قباذ - ملك الفرس- أرسل جيشا بقيادة الحارث بن همام لتأديب قبيلة إياد فاستجار به قوم من إياد فيهم أبو دواد فأجارهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن قباذ هذا أراد أن يفرض الديانة المزكية التى يدين بها على المناذرة فلم يفلح إزاء تشدد المنذر بن ماء السماء مما أدى إلى عزل المنزل ثم تولى كسرى أنو شروان فأعاد المنذر ملكا على الحيرة ، ولا يبعد أن يكون قباذ قد جيش جيوشا أرسلها إلى الحيرة ولكن من المستبعد أن يكون الحارث بن همام إذا كان أميرا لهذه الجيش من الوهن والضعف بحيث يغيث أى مستغيث ، ويعفو عن بنى إياد - وهو مرسل إليهم كما روى بن قتيبة - لمجرد أن أبا دواد استجاره .

وحتى إذا أجاره من القتل والتشريد فهل ستدوم بينهما العشرة حتى يصبح ممدوحا له وموصوفا بأنه خير جار ؟

وعلى فرض صحة تلك الرواية فماذا فعل أبو دواد بعد أن الت دولة قباذ وعاد المنذر بن ماء السماء ملكا على الحيرة وكان أبو دواد كما قدمنا قيما على خيله ؟ الذى نميل إليه أن تلك الرواية هشة لا تثبت لنقد ولا تقوى أمام تمحيص .

أما الأصفهانى فقد روى أن أبا دواد مدح الحارث بن همام فأعطاه عطايا كثيرة ثم مات ابن لأبى دواد وهو فى جوار الحارث فوداه ، فمدحه أبو دواد فحلف له الحارث أنه لا يموت له ولد إلا وداه ، ولا يذهب له مال إلا أخلفه فطريت العرب

المثل بجار أبى دواد ، وهذه أيضا قصة يبدو عليها الوهن لأن الحارث يبدو فيها شخصا أهوج سريع الانفعال ، ما إن سمع قصيدة المدح حتى أقسم ليدين كل ميت من البنين وليخلفن كل فائت من المال وكان حريا بالرواة أن ينقلوا إلينا شيئا من قصيدة تفعل هذا الفعل السحرى فى نفس من قيلت فيه، وهو مالا نجد له فى كتب التراث أثرا.

فليس فيما بين أيدينا من مصادر أبى أبيات يمدح منها أبو دواد الحارث بن همام سوى تلك الأبيات الثلاثة التى ذكرناها سابقا فى حديث ناقته الزباء .

وأما الرواية الثانية التى ذهبت إلى أن جار أبى دواد هو كعب بن مامة الإيادى - ابن عمه- فقد أسندها ابن قتيبة إلى أبى عبيدة وأسندها الأصفهانى أيضا الى أبى عبيدة فقال : جاور أبو دواد الإيادى كعب بن مامة الإيادى فكان إذا هلك له بعير أو شاه أخلفها .

وهذه الرواية ليست ببعيدة فقد روى الأصمعى فى الأصمعيات قصيدة أبى دواد الشهيرة الت مطلعها:

منـع النـوم مـاوى التهمـام ... وجـدير بـالهم مـن لا ينـام

والتى منها بيته الشهير:

لا أعد الإقتار عدما ولكن ... فقـد مـن قـد رزئتـه الإعـدام

ومنها يعتب على ابن عمه كعب بن مانه فيقول:

وأتانى تقحيم كعب لى المن ... طـق أن النـكثية الإقحـام

فى نظام ما كنت فيه فلاير ... زنك شيء ، لكل حسناء ذام

ولقد رابنى ابن عمى كعب أنــه قــد يــروم مــالا يــرام

فإذا صح أن جار أبى دواد المقصود هو ابن عمه كعب بن مامة الايادى ، فلا يبعد أن يكون هذا العقاب الذى ورد فى هذه القصيدة الأصمعية مما يكون بين الجيران والأصبه ممن يعرف بعضهم أقدار بعض، ولا يبعد أن تكون هذه القصة أعنى قصة مجاورة أبى دواد لكعب بن مامة وتعهد كعب بأن يخلف ما يتلف من ابن أبى دواد- مما ألف الرواة أن يصطنعوه إذا ما اشتهر علم من الأعلام بصفة من الصفات ، وكان كعب بن مامة ممن سار ذكرهم فى بلاد العرب واشتهروا بالجود والكرم فقد أثر رفيقة النمرى بالماء ومات عطشا فضرب بالمثل فى الكرم والتضحية (مجمع الأمثال ١٦٢/١) ومن ثم فلا يبعد أن يسند الرواة إليه كثيرا مما يقابلهم من قصص المرؤءة والشهامة .

وأما القصة الثالثة التى جعلت المنذر بن ماء السماء هو جار ابى دواد المعنى فى البيتين المنسوبين الى قيس بن زهير وطرفه فقد ساقها الأصفهانى فقال :

" كان أبو دواد الإيادى الشاعر جارا لالمنذرين ماء السماء .

وإن ابا دواد نازع رجلا بالحيرة من بهراء، يقال له رقبة بن عامر بن كعب بن عمرو، فقال له رقبة : صالحنى وحالفنى .

فقال أبو دواد : فمن أين تعيش إياد إذا ، فوالله لولا ما تصيب من بهراء لهلكت ، وانصرفا على تلك الحال .

ثم إن أبا دواد اخرج بنين له ثلاثة فى تجارة الى الشام ، فبلغ ذلك رقبة البهرانى ، فبعث الى قومه فأخبرهم بما قال له أبو دواد عند المنذر ، وأخبرهم أن

القوم ولد أبى دواد ، فخرجوا إلى الشام، فلقوهم فقتلوهم ، وبعثوا برءوسهم إلى رقبة فلما انته الرءوس صنع طعاما كثيرا، ثم أتى المنذر ، فقال له : لقد اصطنعت لك طعاما كثيرا، فأنا أحب أن تتغذى عندى ، فأتاه المنذر وأبو دواد معه ، فبينا الجفان ترفع وتوضع ، جاءته جفنة عليها بعض رءوس بنى ابى دواد، فوثب وقال : ابيت اللعن ! إنى جارك ، وقد ترى ما صنع بى ، وكان رقبة ايضا جارا للمنذر. فوقع المنذر منهما فى سوءة ، وأمر برقبة فحبس ، وقال لأبى دواد : أما يرضيك توجيهى بكتيبتى الشهباء والدوسر إليهم ؟

قال : بلى .

قال : قد فعلت . فوجه إليهم بالكتيبتين .

فلما بلغ ذلك رقبة قال لامرأته : ويحك ! ألحقى بقومك فأنذريهم ، فعمدت الى بعض إبل زوجها فركبته ، ثم خرجت حتى أتت قومها ، فلما قربت منهم تعرت من ثيابها ، وصاحت وقالت : أنا النذير العريان ، فأرسلتها مثلا ، فعرف القوم ما تريد ، فصعدوا إلى أعالى الشام ، وأقبلت الكتيبتان فلم تصيبا منهم أحدا ، فقال المنذر لأبى دواد : قد رأيت ما كان منهم، وأنا أدى كل ابن لك بمئتى بعير، فأمر له بست مئة بعير، فرضى بذلك ، فقال فيه قيس بن زهير العبسى :

سأفعل ما بدا لى ثم آوي … إلى جار كجار أبى دواد

وهذه القصة الثالثة كما هو واضح فيها كثير من الغلو، وإن كانت توافق كثيرا من الطبائع العربية الحادة، ولا تخالف الواقع التاريخى الذى عاش فيه أبو دواد مقربا من المنذر بن ماء السماء والجمع بين الروايات الثلاث ليس عسيرا .

فلنا أن نتخيل أن أبا دواد وقومه نزلوا بالحارث بن همام فى أول مقدم قبيلتهم من البحرين مهزومين مطرودين على أيدى قبيلة عبد القيس، فأكرم وفادتهم وقضى حاجاتهم وأخلف بعض ما تلف من أموالهم .

وقد مدحه أبو دواد على حسن جواره فتناقل الرواة بعض هذا المدح الذى لم يعد له بين أيدينا وجود يذكر باستثناء تلك الأبيات الثلاثة التى اشرنا إليها عند حديثنا عن ناقة ابى دواد (الزباء) التى بركت فى فناء الحارث بن همام ، ثم زالت تلك العلاقة لأية أسباب طرأت أو إذا صح ما روى من أن الحارث كلف محاربة بنى إياد لحساب ملك الفرس "قباذ". فلما عاد الملك إلى المنذر عاد بنو إياد ليعيشوا فى كنفة .

وأما أن يكون جار أبى دواد المقصود هو كعب بن مامة فهذا ما نستبعده لكونه ابن عمه. والعرب لا تصف الكريم ذا المروءة بأنه (جار) فلان إلا إذا كان الجوار هو العلاقة الوحيدة بينهما كما هو الحال بين أبى دواد والمنذر، أو أبى دواد والحارث. ولعل أبا دواد مدح الثلاثة فتناقل الرواة أخبار مديحة إياهم ثم سمعوا بقصة دفع أحدهم دية أولاده أو إخلاف ما تلف من ماله، فجعلوا كعبا مرة وجعلوا الحارث مرة ثانية وجعلوه المنذر مرة ثالثة .

وكل من الثلاثة من ممدوحى أبى دواد وليس الجوار بالأمر اليسير عند العرب فقد كان من مفاخرهم حماية الجار وبخاصة إذا كان ذلك الجار غريبا لاذ بقوم أو استعاذ بهم أو استنصرهم فقد كانوا يبذلون فى سبيل حمايته كل ما يستطيعون من قوة .

وقد كان أبو دواد نفسه ممن يرعون حرمة الجار فهو يفخر بذلك فيقول عن قومه [(١)]:

أرى جارنا آمنا وسطنا   يروح بعقد وثيق السبب
إذا ما عقدنا له ذمة   شددنا العناج وعقد الكرب

والعناج عروة فى أسفل الدلو من باطن تشد إلى أعلى الكرب، فإذا انقطع الحبل أمسك العناج الدلو حتى لا يقع فى البئر ، والكرب هو الحبل الذى يربط به الدلو وقد يثنى ويثلث تقوية له، فهو يعنى بهذا شدة عنايتهم بالعهد الذى يربطهم بجيرانهم .

وفى موقف آخر نرى أبا دواد يعاتب بعض قومه من بنى كعب وعمرو فيذكر أنهم لم يحفظوا له ما ينبغى من حقوق الجوار فيقول [(٢)]:

كنت جارا لكم فأشمتم النا   س بى اليوم آل كعب وعمرو
شركم حاضر ودركم در   فردوس من الأرانب بكسر

١ . انظر ابن قتيبة (المرجع رقم ٤) ، ص ٢٤٠ .
٢ . أنظر المرجع رقم (٦) ، ص ٥٢٢ .

فلا غرو إذا كان أبو داود يرعى للجوار هذه المنزلة، أن يكون هو نفسه خير مداح لمن يحسن جواره ويرعى حرمته سواء أكان ذلك الجار هو سيدة ومليكة المنذر أو ابن عمه كعبا أو الحارث بن همام.

شاعرية أبى دواد :

تدل النصوص التى وصلت إلينا من شعر أبى دواد ، ومن أقوال نقاد الشعر ورواته عنه على أنه كان شاعرا مجيدا مطبوعا. إلا أن الرواة لم يتوسعوا فى رواية شعره لأن لغته ليست بنجدية كما نقل ابن قتيبة عن الأصمعى .

ويروى ابن قتيبة ايضا أن الحطيئة حين سئل من اشعر الناس؟ قال : الذى يقول:

لا أعد الاقتار عدما ولكن — فقد من قد رزئته الإعدام

من رجال من الأقارب فادوا — من حذاق ، هم الروس الكرام

فيهم للملاينين أناة — وعُرام إذا يراد العرام

فعلى إثرهم تساقط نفسى — حسرات ، وذكرهم لى سقام

وهذه القصيدة أجود شعره، ويستجاد منها قوله فى صفة إبله:

إبلى الإبل لايحوزها الرا — عون، مج الندى عليها المدام

سمنت فاستحش أكرعها، ا الـ — نى نى ولا السنام سنام .

فإذا أقبلت نقول : إكام — مشرفات ، بين الإكام إكام

وإذا أعرضت تقول : قصور — من سنماهيج فوقها آطام

وإذا مـا فجئتهـا بطـن غيـث   قلت : نخل قدحان منها صرام

فهى كالبيض فى الأداحى، مايو   هـب منهـا لمستتم عصـام

وقد شهد لأبى دواد فى مقدرته الفذة على وصف الخيل كل من الأصمعى وأبى عبيدة وهما من أعلام اللغويين المتذوقين فقد قال الأصمعى فيما يروى صاحب الأغانى : "ثلاثة كانوا يصفون الخيل، لايقاربهم أحد : طفيل ، وأبو دواد ، والجعدى

فأما أبو دواد فإنه كان على خيل المنذر (بن ماء السماء)· وأما طفيل فإنه كان يركبها وهو أغرل الى أن كبر، وأما الجعدى فإنه سمع ذكرها من اشعار الشعراء فأخذ عنهم ".

وقال أبو عبيدة : " أبو دواد أوصف الناس للفرس فى الجاهلية والإسلام وبعده طفيل الفتوى والنابغة الجعدى".

ونقل صاحب الأغانى عن ابن الأعرابى قوله : "لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبو دواد"·

وقد شهد لأبى دواد بالقدرة الفنية علم لغوى آخر هو أبو الأسود الدؤلى فقد روى الأصفهانى أن الإمام عليا كرم الله وجهه كان من عادته أن يفطر الناس فى رمضان، وكان من عادته إذا فرغ الناس من العشاء، أن يتكلم معهم قليلا أو كثيرا وحدث ذات ليلة أن اختصم الناس حتى ارتفعت أصواتهم فى اشعر الناس ·

قال الإمام على لأبى الأسود الدؤلى : قل يا أبا الأسود·

فقال أبو الأسود الدؤلى - وكان يتعصب لأبى ال دواد - : اشعر الناس الذى يقول:

ولقد اغتدى يدافع ركنى أهو ذى ذو ميعة إضريج

مخلط مزيل مكر مفر منفح مطرح سبوح خروج

سلهب شرجب كأن رماحا حملته وفى السراة دموج

فهو يصف حصانه فى هذه الأبيات ذات الكلمات الغليظة بأنه حصان متمرس يحسن الجرى ويتفنن فيه، ويحسن مسابقة الخيل، وينتقل فى جرية من حال إلى أحسن حال منها .

وقد نقل الأصفهانى ايضا شهادة الحطيئة لأبى دواد بأنه أشعر الناس تلك التى ذكرها ابن قتيبة، ومن مجموع هذه الشهادات يظهر لنا أن أبا دواد كان يتمتع بسمعة فنية طيبة حتى بعد عصره بعهد طويل .

أسرة أبى دواد :

يبدو أن أبا دواد كان مزواجا وكان ذا أسرة كبيرة، فقد سبق أن ذكرنا أن ثلاثة من أبنائه قتلهم رقبة البهرائى ووداهم المنذر بن ماء السماء كما سبق أن أشرنا إلى أنه كنيته من المرجح أن يكون قد كنى بها بعد أن كبر ابنه دواد الذى أصبح بدوره شاعرا، وقد روى له صاحب المؤتلف والمختلف أبياتا قال إنه رثى بها أخاه هى قوله(١) :

فبات فينا وأمسى تحت هادية يا بعد يومك من ممسى واصباح

لا يدفع السقم إلا أن يسقيه ولو ملكنا مسحنا السقم بالراح

---

١ . انظر المرجع رقم (٣) ص ١١٦ .

لا يصحب الغى إلا حيث فارقه إلى الرشاد ولا يصغى إلى اللاجى

إلا أن الأصفهانى فى جعل هذه الأبيات فى رثاء أبيه أبى دواد وروى منها بيتين فقط هما:

فبات فينا وأمسى تحت هائرة ما بعد يومك من ممسى واصباح

لا يدفع السقم إلا أن نفديه ولو ملكنا مسحنا السقم بالراح

وواضح أن فيهما تصحيفا أو تحريفا .

ومما جعلنا نقول أن أبا دواد كان مزواجا تلك الروايات التى ساقها من أرخوله عن خلافاته مع زوجاته .

فقد روى أن زوجة أم دواد ماتت وتزوج غيرها وكان دواد قد اصبح شابا فتيا فأولعت به زوجة أبيه التى كانت مخطية عند أبى دواد ، فأرادت أن تكيد لدواد فأمرت أباه أن يطرده من منزله فخرج به وقد اردفه خلفه الى أرض جرداء ليس فيها شيء ، فألقى سوطه متعمدا وقال : أى دواد ٠ أنزل فناولنى سوطى، فنزل، فدفع أبو دواد بعيرة بعيدا عنه ثم قال يخاطبه :

أدواد إن الأمر أصبح ما ترى فانظر دواد لأى أرض تعمد؟

فقال له دواد : على رسلك .

فتمهل فى سيره فقال له دواد :

وبأى ظنك أن أقيم ببلدة جرداء ليس بغيرها متلدد؟

فرجع إليه وقال له : أنت والله أبنى حقا٠ ثم رده الى منزله . وطلق امرأته .

ورووا أنه كان متزوجا من امرأة يقال لها أم صبير فكانت تلومه على إنفاقه المال فى المكرمات وبذله للأقربين والمحتاجين فلم يكن يسمع لومها فساءت بينه وبينها العلاقات حتى هجرته وفى هذه الزوجة يقول من قصيدة له :

فى ثلاثين ذعذعتها حقوق أصبحت أم حبتر تشكونى

زعمت لى بأننى افسد الما ل وأزويه عن قضاء ديونى

أملت أن أكون عبداً لمالى وتهنا بنافع المال دونى

ويقول فيها من قصيدة أخرى:

حاولت حين صرمتنى والمرء يعدز لا محالة

والدهر يلعب بالفتى والدهر أروغ من ثعالة

والمرء يكسب ماله والشح يورثه الكلالة

والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة

والسكت خير للفتى فالحين من بعض المقالة

وقد روى الأصفهانى ما يدل على أن أسرة أبى دواد ربما عقدت فيما بينها جلسات لمطارحة الشعر فمن ذلك ما رواه فقال:

بينا أبو دواد وزوجته وابنه وابنته على ربوة، وإياد إذ ذاك بالسواد ، إذ خرج ثور من أجمة ، فقال أبو دواد :

وبدت له أذن توجس حرة وأحسم وأرد

وقوائم عوج لها من خلفها زمع زوائد

كمقاعـد الرقبـاء للـض ... ربـــاء أيـــديهم نواهـــد

ثم قال : أنفذى يا أم دواد ، فقالت :

وبـــدت لـــه أذن توجـــ ... س حـــرة وأحـــم مولـــق

وقوائـــم عـــوج لـــه ... مـن خلفهـا زمـع معلـق

كمقاعـد الرقبـاء للـض ... ربـــاء أيـــديهم بـــألق

ثم قال : أنفذ يا دواد ، فقال :

وبـــدت لـــه أذن توجـــ ... س حـــرة وأحـــم مرهـــف

وقوائـــم عـــوج لـــها ... مـن خلفهـا زمـع ملفـف

كمقاعـد الرقبـاء للضـ ... ربـــاء أيـــديهم تـــلقف

ثم قال : أنفاى يا دوادة ٠

قالت : وما أقول مع من أخطأ .

قالوا : ومن أين أخطأناه ؟

قالت : جعلتم له قرنا واحدا ، وله قرنان .

قالوا : فقولى .

قالت :

وبـــدت لـــه أذن توجـــ ... ــس حـــرة وأحمتـــان

وقوائـــم عـــوج لـــها ... مـن خلفهـا زمـع ثمـان

كمقاعـد الرقبـاء للمضـ ... ربـــاء أيـــديهم دوان

اللغة - توجس : تسمع إلى الصوت الخفى ، وحرة : صادقة السمع مرهفة .

والأحم : القرن الأسود .

والوارد : الطويل .

الزمع : الشعر الذى فى مؤخرة رجلى الشاه أو الظبى ، واحدته زمعة .

الرقباء : الذين يمسكون عيونهم وينظرون سمات القداح . والضرباء : الذين يضربون القداح .

يريد بالانفاذ هنا : محاكاة شعره مع تغيير الكلمة الأخيرة منه، تمرينا على القول ، والتمرس بالقوافى .

فهل تكون هذه السطور دعوة للقراء والباحثين لبذل مزيد من الجهد لتجلية تراثنا العظيم المجهول ؟

جانب مجهول من شخصية معروفة

ابن خلكان شاعراً

حين يظلم التاريخ علماً من الأعلام فيضعه حيث طارت شهرته ، ويغفل وضعه في مجالات أخرى برع فيها وأبدع ، يكون هذا مقبولاً على مضض ، فمثلاً يقدم التاريخ إلينا ابن سينا على أنه طبيب بارع ، وأحياناً على أنه فيلسوف ونادراً ما يقدمه إلينا على أنه شاعر مجيد أيضاً .

ولكن حين يظلم التاريخ علماً من الأعلام ، ويكون هذا العلم مؤرخاً صناعته تدوين التاريخ ، نجد أنفسنا أمام موقف غريب يثير الضحك الحزين أو الحزن الضاحك إن جاز التعبير .

فمن المعروف أن كتاب " وفيات الأعيان " - بفتح الواو والفاء - لابن خلكان من أشهر كتب التراجم في تراثنا العربي ، ذلك أنه تميز من دونها بميزات عديدة منها أنه ترجم لمساحات زمنية واسعة قد تصل إلى ستة قرون من الزمان ومنها أنه كان يهتم بذكر تواريخ الميلاد والوفاة ، ومنها أنه كان يتحرى الصدق في الروايات التي ينقلها عمن سبقوه ، ومنها أنه كان يذكر البارعين المشاهير في مجالات مختلفة ، فلا يترجم لفئة دون فئة كما فعل بعض سابقيه ممن اهتموا بالترجمة للشعراء فقط أو للمفسرين فقط أو لرجال الحديث فقط .

وقد نال ابن خلكان عناية تليق بمكانته كمؤرخ متميز بين المؤرخين حققها بكتابه ذاك ، وبمنهجه العلمي السديد الذي ألتزمه فيه ، وقد حظي كتابه باهتمام لاحقيه من المؤرخين فنهلوا من معينه ، واعترفوا له بالفضل والسبق والإجادة ، وإن كان لم يسلم – كغيره من العلماء – من الطعن والغمز سواء في منهجه العلمي أو على مستوى سلوكه الشخصي ، ولعل هذا راجع إلى الحسد الذي أشار الإمام الغزالي في كتابه " أصناف المغرورين " إلى أنه يكون بين العلماء .

ولعل الجانب المجهول من حياة ابن خلكان هو كونه شاعراً بل لقدِ كان شاعراً رقيقاً وظريف المعاني ، جيد السبك ، مستريح القافية ، تبدو لغته الشعرية في غاية الروعة والرقة ، وليت التاريخ – الذي كان صناعته – قد حفظ لنا هذا الجانب المشرق من جوانب شخصية ابن خلكان .

وابن خلكان هو أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي الأربلى ويكنى بأبي العباس ، قال عنه الزركلي في الإعلام (٢٢٠/١) هو المؤرخ الحجة ، والأديب الماهر كتابه " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطاً وإحكاماً .

ولد في أربل بالقرب من الموصل على شاطئ دجلة الشرقي ، وانتقل إلى مصر فأقام فيها مدة ، وتولى نيابة قضائها وسافر إلى دمشق ، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام ، ثم عزل بعد عشر سنين ، فعاد إلى مصر وأقام بها سبع سنين ثم أعيد قاضياً للشام ، ثم عزل بعد مدة وتفرغ للتدريس في كثير من مدارس دمشق حتى توفي بها سنة إحدى وثمانين وستمائة ، وكان مولده سنة ثمان وستمائة .

ومن النماذج القليلة التي أوردها صاحب " الوافي بالوفيات " في ترجمته لابن خلكان ، والتي أثبتها في مقدمة المجلد الأول محقق كتاب " وفيات الأعيان " نستطيع أن نتبين شاعرية ابن خلكان التي لا يعرفها الكثيرون ، ونستطيع استنتاج أن هذا المؤرخ الفذ ، لو أتيح لنتاجه الشعريّ أن ينتشر لفاق كثيراً من كبار الشعراء الذين نعرفهم وقد يكون من السائغ أن نسأل عن سبب خمول ذكر ابن خلكان شاعراً ، ولكن المؤكد أننا لا نملك إجابة قاطعة على هذا السؤال وإن كانت هناك احتمالات يمكن أن نقدمها :

الاحتمال الأول :

أن الرجل كان عالماً كبيراً بدأ حياته بسماع صحيح البخاري بمدينة أربل من ابن مكرم الصوفي ، وتتلمذ لعدد كبير من مشاهير العلماء الذين أدركهم كالمؤيد الطوسي وعبد المعز الهروي وغيرهما . كما انه اشتغل بالتدريس والتأليف وقد شاعت في تراثنا القديم فكرة تذهب إلى التعارض بين العلم والشعر استشهد عليها القدماء بقول القائل (وينسب أحياناً للإمام الشافعي)

ولولا الشعر بالعلماء يزري　　　لكنت اليوم أشعر من لبيد

ومرجع هذه الفكرة إلى تلك المفاهيم الخاطئة التي سادت العقلية العربية وربطت بين الجن وقرض الشعر . الأمر الذي استوجب أن ينفي القرآن الكريم الشاعرية عن محمد ﷺ لأن الوحي منزل من عند الله ﷻ ، وما يوحي به الشياطين لأوليائهم هو الكذب والعبث ، فكان من مظاهر التقوى أن تنزه العلماء عن قول الشعر وهذا خطأ جسيم .

الاحتمال الثاني :

أن الرجل عمل بالقضاء سنين عدداً ، ولمنصب القاضي أو قاضي القضاة هيبته ورهبته التي تمنع شاغله من أن يكون كآحاد الناس ، وتتطلب منه قدراً من الوقار الذي يلائم منصبه الديني الخطير.

الاحتمال الثالث :

أن الرجل وقد عرف عنه أنه عاش ميسور الحال كريم الموضع، عظيم المكانة في قلوب القيادة الحاكمة ، وفي قلوب الجماهير ، لم يكن راغباً في تحقيق شهرة عن طريق الشعر ، فكان يستمع إلى الشعراء يمدحونه ، وقد يكافئهم ، وإذن فمن العسير عليه أن يقف مادحاً بين يدي ملك أو وزير أو أمير.

ويؤيد أحد هذه الاحتمالات ، أو يؤيدها جميعاً ، أن النماذج التي بين أيدينا من شعر الرجل كلها من الشعر الوجداني العاطفي الرائع لا تشتم منها رائحة مدح ولا تلمس فيها أثرا للسياسة .

ويستطيع قارئ شعر ابن خلكان أن يلحظ ملمحين بارزين من ملامح شعره هما :

أولاً : التضمين .

ثانياً : سهولة العبارة مع جودة المعنى .

أما التضمين فهو إيراد اقتباس بنصه ووضعه في القصيدة بحيث يبدو كما لو كان جزءاً منها وهو ليس له ، وقد سبقه في هذا كثيرون ، ولكن التضمين نادراً ما يكون دقيقاً رقيقاً على النحو الذي نجده عند شاعرنا .

فمن ذلك قوله يصف ثلة من الغيد يلهون ويسبحن في غدير مياه حيث يقول :

وسرب ظباء في غدير تخالهم
يقول عذولي والغرام مصاحبي
وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى
بدوراً بأفق الماء تبدو وتغربُ
أمالك عن هذي الصبابة مذهبُ؟
فقلت له " ذرهم يخوضوا ويلعبوا"

(المطلول : المسفوك بلا ثمن)

فهو هنا يضمن شعره جزءاً من آية قرآنية كريمة :

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ (١)

والصورة الشعرية مع ذلك متماسكة جيدة التركيب ، فقد شغفه حب أولئك الغيد ، وهن لاهيات عنه عابثات بمشاعره فتخيل هو وتخيل عذوله أن الماء الذي يسبحن فيه هو من دمه الذي سفكه عشقه إياهن .

ومن ذلك تضمينه للقول المأثور في قوله يصف غلاماً :

انظر إلى عارضه فوقه — لحاظه ترسل منها الحتوفْ
تشاهد الجنة في وجهه — لكنها تحت ظلال السيوفْ

ومنه في نفس المعنى وهو يضمن من القرآن الكريم :

لما بدا العارض في خده — بشّرت قلبي بالنعيم المقيمْ

---

١ - سورة الزخرف : الآية ٨٣ .

وقلت هذا عارضٌ ممطر فجاءني فيه العذاب الأليمْ

ويقول مضمناً شطر بيت لأبي تمام :

كم قلت لما أطلعت وجناته حول الشقيق الغضّ دوحة آس

لعذاره الساري العجول بخده "ما في وقوفك ساعةً من باس"

فالشطر الثاني من البيت الثاني ، هو الشطر الأول من مطلع قصيدة مشهورة وقف أبو تمام يمدح فيها الخليفة العباسي فقال :

ما في وقوفك ساعةً من بأسِ تقضي حقوق الأربع الأدراسِ

ويروي الرواة أنه لما وصل إلى قوله في وصف مناقب الخليفة :

إقدام عمرو في سماحة حاتمٍ في حلم أحنف في ذكاء اياس

قال له بعض الجالسين من المنافقين : كل من شبهت الخليفة بهم أقل منه شأناً ، فأطرق أبو تمام ثم ارتجل مباشرة :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

على أن لابن خلكان أشعاراً فريدة في حسنها ، معانيها مبتكرة . والتمكن فيها من الموهبة واضح . فمن ذلك قوله يصف معاناته بعد فراق الأحباب :

وما سر قلبي منذ شطت بك النوى نعيمٌ ولا لهوٌ ولا متصرّفُ

ولا ذقت طعم الماء إلا وجدته سوى ذلك الماء الذي كنت أعرفُ

فالبيت الثاني من هذين البيتين غاية في دقة وصف مشاعر المحب المهجور حين تسود في وجهه الدنيا ويتساوى عنده الحزن والفرح ويصبح في حالة كانعدام الوزن أو هي أسوأ ، فيتغير لون الأشياء ويتفق طعمها ، بل ربما تفقد حواسه القدرة على التمييز.

ومن ذلك قوله :

كـــأنني يـــوم بـــان الحـــي مـــن أضـــم

ورقـــاء ظلـــت لفقـــد الإلـــف ســـاجعةً

يـــا جـــبرة الحـــي هـــل مـــن عـــودة فعســـى

إذا ظفـــرت مـــن الـــدنيا بقـــربكم

والقلـــب مـــن ســـطوات الـــبين مـــذعور

تبكـــي عليـــه اشـــتياقاً وهـــو مأســـور

يفيـــق مـــن نشـــوات الشـــوق مخمـــور

فكـــل ذنـــب جنـــاه الـــدهر مغفـــور

إن ابن خلكان عاشق متيم ، ومحب مدله موله ، ولكن شعره العاطفي يختلف عن شعر غيره من المحبين الشعراء ، فهو يتغزل في محبوبه فيبتكر المعاني ابتكاراً ، ويصطنع الصور الفنية فيحكم صوغها ، ثم هو بعد ذلك لا يتهتك ولا يستعطف ، ولا يتذلل ، بل يبث محبوبه أشواقه وهيامه مرتفع القامة أو قل أنه لا يتذلل لمن يتدلل بل يتعلل بالذكرى ، ويرتوي بسيرة المحبوب الذي هاجر ، كل ذلك في ثوب قشيب من الصور وقصيدته التالية خير مثال مستدل به على أنه كان حرياً

بشعر هذا الشاعر أن يكون له صدىً بعيد المدى لولا أن طغت عليه شهرته كقاض ومؤرخ ، وفي هذه القصيدة يقول :

أي ليــــلٍ علـــــى المحــــــب أطالــــــهْ

يزجـــــر العِــــيسَ طاويـــــاً يقطـــع المَهْمَــــه

أيهـــــا الســــــائق المُجــــــدّ ترفـــــقْ

وأنخْهـــــــا هُنيهــــــــةً وأرحهـــــــــا

لا تطـــــل ســــيرها العنيـــف فقـــد بـــرّح

ســـــائق الظعــــــن يـــــوم زمّ جمالـــــهْ

عســــــــــفاً ســــــــهوله ورمالـــــــــه

بالمطايــــــا فقـــــد ســـــئمن الرحالـــــة

قـــــد براهـــــا الســـــرى وفـــــرط الكلالــــة

بالصـــــــــب في ســـــــراها الإطالـــــــة

إن الشاعر في هذه الأبيات يصف حالة الإبل التي نقلت متاع المحبوب وأهله وهاجرت بهم إلى بلاد لا يعلمها ، وهو هنا يناشد سائق الإبل أن يترفق بهذه الإبل الجائعة الكليلة المرهقة التي لا تستريح ، بل تجد في سيرها كان لها غايةً تريد أن تبلغها سريعاً فهي تصل الليل بالنهار حتى سئمت الارتحال والسير . هل يصف الشاعر هنا حالته هو نفسه ؟ ويتخذ من الحالة النفسية للإبل معادلاً موضوعياً لآلامه النفسية لابد أن الأمر كذلك . فقد أسفر الشاعر في البيت الأخير عن التوحد

التام بينه وهو الصب المغرم وبين الإبل ، فالإبل تسير وتتألم وهو أيضاً يتألم كلما طال بها السير واشتد بها العذاب .

ثم ينتقل الشاعر إلى خطاب سائق الإبل لعله يرق لحاله فيعود بالمحبوب فيصف لنا نفسه بأنهم تركوه حليف الوجد والهم يطوف بديار المحبوب الخالية يندب أيامه وذكرياته ويسأل هذه الأطلال التي استحالت خراباً عن محبوبه ، وهو يدرك أن الأطلال المحيلة لن تجيب له سؤالاً ، ولكنه يقنع نفسه بمجرد الوقوف عندها والتأمل فيها ويذرف الدموع غزاراً حسرة وألماً على حاله:

وتـــــركتم وراءكـــــم حلـــــف وجـــــد

يســـأل الربـــع عـــن ظبـــاء المصـــلى

ومحـــــال مـــــن المحيـــــل جـــواب

هـــــذه ســــنة المحـــــبين يبكـــــون

يــــا ديــــار الأحبـــاب لا زالـــت الأنْ

وتمشـــــي النســـــيم وهـــــو عليـــــل

أيـــن عـــيشٌ مضـــى لنـــا فيـــك مـــا أســـ

حيـــث وجـــه الشـــباب طلـــق نضـــيرٌ

نادبـــــاً في محلكـــــم أطلالـــــه

مـــا علـــى الربـــع لـــو أجـــاب ســـؤاله

غـــير أن الوقـــوف فيـــه علالـــة

علـــى كـــل منـــزل لا محالـــة

مُــــعُ في تـــــرب ســـــاحتيك مذالــــــة

في مغانيــــــك ســــــاحباً أذيالـــــــه

ــــــرع عنــــا ذهابـــــه وزوالــــــه

والتصـــــابي غصـــــونه ميالـــــــة

إن الشاعر يتحسر على ذكرياته في هذه الأماكن حتى إنه ليتمنى أن يعيش صورة ماضيه ولو في منامه حيث يستمتع للحظات بصور فاتنة ما أكثر ما استمتع بها في عالم الحقيقة :

ولنـــــا فيــــك طيـــــب أوقـــــات أنــــس

وبأرجـــــاء جـــــوك الرحـــــب ســـــرب

مـــــن فتـــــاة بديعـــــة الحســـــن ترنـــــو

ورخـــــيم الـــــدلال حلـــــوا المعـــــاني

ليتنـــــا في المنـــــام نلقـــــى مثالـــــه

كـــــلُّ عـــــين تـــــراه تهـــــوى جمالـــــه

مـــــن جفـــــون لحاظهـــــا مغتالـــــة

تتثنـــــى أعطافـــــه مختالـــــة

أولم نقل إن شعر هذا الشاعر كان خليقاً بأن يهيئ له مكاناً مرموقاً بين الشعراء المجيدين ؟ وكما رأينا فإن معظم النماذج التي وصلتنا من شعره وجدانية لا تتزلف حاكماً ولا تنافق أميراً ولا وزيراً ولا كبيراً ، بل إنه يصف – فقط – معاناته العاطفية الخاصة ولا يتبقى إلا أن نشير إلى الاضطراب الذي يرتبط بضبط اسم ابن

خلكان ، فقد روى صاحب " روضات الجنات " أن اسمه ينطق بفتح الخاء وتشديد اللام المكسورة ، أو بضم الخاء وفتح اللام المشددة ، أو بكسر اللام والخاء جميعاً وجاء في التاج أنه بكسر الخاء وتشديد اللام المكسورة ، وهو ما نستريح إليه لاتفاق روايتين حوله ، كما أنه يقترب من الأسماء الفارسية وقد سبق أن أشرنا إلى أنه من ذرية البرامكة .

بن عبدل

اسم الشهرة الذي عرف به هذا الشاعر هو الحكم بن عبدل الأسدي ثم الغاضريّ الكوفي. أما تمام اسمه ونسبه فهو الحكم بن عبدل بن جبلة بن عمرو بن ثعلبة ابن عقال بن بلال بن سعد بن حبال بن نصر بن غاضرة ابن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة الأسدي ثم الغاضري الكوفي وهو شاعر مشهور القول، مجيد هجَّاء. نفاه ابن الزبير من العراق لما نفى عنها عمال بني أمية وقدم دمشق. وكان له من عبد الملك بن مروان موضع. وقال ابن ماكولا: هو الشاعر الأعرج، كوفي مشهور. قال غيره قال: كان يأتي ابن بشر فيقول له: أخمس مائةٍ أحبُّ إليك العام، أم ألف في قابل؟ فيقول: ألف في قابل. وإذا أتاه من قابل، قال له: ألف أحبُّ إليك العام أم ألفان من قابل؟ فيقول: ألفان من قابل، قال: فلم يزل كذلك حتى مات ابن بشر ولم يعطه شيئاً. وقال صاحب الأغاني: كان أعرج أحدب لا تفارقه العصا. فترك الوقوف بباب الملوك. وكان يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسوله. فلا يحبس له رسول ولا تؤخَّر له حاجة. فقال في ذلك يحيى بن نوفل:

عصا حكمٍ في الدار أوّل داخلٍ ... ونحن على الأبواب نقصى ونحجب

وكانت عصا موسى لفرعون آيةً... فهذي لعمر الله أدهى وأعجب

تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها ... ويرغب في المرضاة منها ويرهب

وشاعت هذه الأبيات بالكوفة، وضحك منها الناس. فكان الحكم يقول ليحيى: يا بن الزانية، ما أردت من عصاي حين صيَّرتها ضحكة؟ واجتنب أن يكتب عليها كما كان يفعل أولاً. وكان له صديق أعمى يدعى أبو عليَّة، وكان ابن عبدل قد أقعد. فخرجا ليلة من منزلهما إلى منزل بعض إخوانهما والحكم يحمل وأبو علَّية يقاد، فلقيهما صاحب العسس بالكوفة وأخذهما فحبسهما، فلما استقرا في الحبس، نظر الحكم إلى عصاه موضوعة بجنب عصا أبي عليَّة فضحك وقال:

حبسي وحبس أبي عليّة ..... من أعاجيب الزمان

أعمى يقاد ومقعدٌ ..... لا الرِّجل منه ولا اليدان

هذا بلا بصرٍ هناك ..... ، وبي يخبُّ الحاملان

يا من رأى ضبَّ الفلاة ..... قرين حوتٍ في مكان

طرفي وطرف أبي عليَّة ......- دهرنا - متوافقان

من يفتخر بجواده ...... فجوادنا عكَّازتان

طرفان لا علفاهما ...... يشرى ولا يتصاولان

وقال أيضاً من أبيات:

ففي حالتينا عبرةٌ وتفكُّر ...... وأعجب منه حبس أعمى ومقعد

كلانا إذا العكَّاز فارق كفَّه ...... يخرُّ صريعاً أو على الوجه يسجد

فعكَّازه تهدي إلى السُّبل أكمهاً ...... وأخرى مقام الرِّجل قامت مع اليد

وكان بالكوفة امرأة موسرة، وكان لها على الناس ديون بالسَّواد. فاستعانت بابن عبدل في دينها، وقالت: إني لست بزوج. وجعلت تعرِّض بأنها تزوجه نفسها. فقام ابن عبدل في دينها حتى اقتضاه. فلما طالبها بالوفاء، كتبت إليه:

سيخطئك الذي حاولت مني ...... فقطِّع حبل وصلك من حبالي

كما أخطاك معروف ابن بشرٍ...... وكنت تعدُّ ذلك رأس مال

وضرب الحجّاج البعث على المحتملين ومن أنبت من الصِّبيان. وكانت المرأة تجيء إلى ابنها فتضمنه وتقول: يا ابني جزعاً عليه، فسمِّي ذلك الجيش جيش با ابني. وأحضر ابن عبدل وجرِّد، فوجد أحدب أعرج، فأعفي من ذلك فقال:

لعمري لئن جرَّدتني فوجدتي ...... كثير العيوب سيءَّ المتجرَّد

فأعفيتني لّما رأيت زمانتي ...... ووفِّقت مني للقضاء المسدَّد

ولست بذي شيخين يلتزمانه ...... ولكن يتيمٌ ساقط الرِّجل واليد

وخرج ليلةً وهو سكران، محمولاً في محفَّة، فلقيه صاحب العسس، فقال له من أنت؟ فقال له: يا بغيض، أنت أعرف بي من أن تسأل عني،اذهب إلى شغلك فإن اللصوص لا يخرجون في الليل في محفَّة، فضحك الرجل وانصرف. وكانت له جارية سوداء، فولدت له إبناً أسود، وكان أعرم الصبيان فقال فيه:

يا ربَّ خالٍ لك مسودِّ القفا ...... لا يشتكي من رجله مسَّ الحفا

كأنَّ عينيه إذا تشوَّفا ...... عينا غرابٍ فوق نيق أشرفا

واختصم البارقي وامرأة يوما إلى الشعبي، فقضى على البارقي وأنشأ يقول:

فتـــن الشعبـــي لـمـا ... رفـــع الطرف إليها

فـتنتـــه بقــــوام ... ويخطـــي حاجبيها

وبنـان كـــالـمــداري ... ويحســـن مقلتيها

كيــف لـو أبصر منها ... نحرها أو ساعديها

لصبـا حتــــى تـــراه ... ساجداً بين يديـهـا

بنت عيسى بن جراد ... ظلم الخصم لديها

فقضــى جـوراً علينا ... ثم لم يقض عليها

قال للجلــواز قـدمها ... وأحضر شاهديها

وروى صـــاحب أخبـــار القضـــاة - (ج ١ / ص ٢٤٧)قـــال : جـــاء الشـعبي يومـا إلى قصر عبد الملك بن مروان، فقرع البـاب، فقـال الآذن: من هذا ؟ فقـال: الشعبي ... فقال الآذن :

فتن الشعبي لما ... رفع الطرف إليها

فقال الآذن: فتنته بقوام قال الشعبي: ويخطّي حاجبيها قال الآذن: كيف لو أبصر منها قال الشعبي: خصرها أو معصميها قال الآذن: لصبا حتى تراه. قال الشعبي: ساجداً بين يديها.

قال الآذن: تلكم بنت جراد. قال الشعبي: ظلم الخصم لديها. قال الآذن: قال للجلواز قدمها.

قال الشعبي: وأحضر شاهديها. قال الآذن: فقضى جوراً علينا.قال الشعبي: ثم لم يقض عليها. ثم ضحك الشعبي: حتى استلقى، ثم قال: والله ما كان من هذا شيء قط. !!

وولي الشرطة بالكوفة رجل أعرج ثم ولي الإمارة آخر أعرج و في أحد الأيام خرج الشاعر ابن عبدل - وكان أعرج - فلقي سائلاً أعرج قد تعرض للأمير يسأله فقال ابن عبدل للسائل:

ألق العصا ودع التحامل والتمس ...... عمــــلاً فهذي دولة العرجان

فـأميـرنا وأميـــر شرطتنا معاً ...... يا قــــومنا لكليهما رجلان !!

فإذا يكــــون أميــرنا ووزيــــره ...... وأنا ، فإن الرابع الشيطان !!

فبلغت أبياته ذلك الأمير الأعرج فبعث له مائتي درهم وسأله أن يكف عنه.

وقيل: قدم الحكم بن عبدل واسطاً على ابن هبيرة وكان بخيلاً، فأقبل حتى وقف بين يديه فقال:

أتيتـــــك في أمر من امر عشيرتي ... وأعلى الأمور المفظعات جسيمها

فإن قلت لي في حاجتي أنا فاعل ... فقد ثلجت نفسي وولت همومها

فقال الأمير: أنا فاعل إن اقتصدت فما حاجتك قال: غرم لزمنا، قال: كم هو قال: أربعة آلاف درهم، قال: نحن مناصفوها، قال: أصلح الله الأمير، أتخاف علي التخمة إن أممتها قال: أكره أن أعود الناس هذه العادة، قال: فأعطني جميعها سراً وامنعني جميعها ظاهراً حتى تعود الناس المنع ، وإلا فالضرر واقع عليك إن عودتهم نصف ما يطلبون، فضحك ابن هبيرة وقال: ما عندنا غير ما بذلناه لك، فجثا بين

يديه، وقال: امرأتي طالق إن أخذت أقل من أربعة آلاف درهم أو انصرفت وأنا غضبان، فقال: أعطوه إياها قبحه الله فإنه ما علمت حلاف مهين، فأخذها وانصرف.

وقيل لما وقع الطاعون بالكوفة ومات منهم بنو زر بن حبيش العامري صاحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكانوا ظرفاء وبنو عم لهم، فقال الحكم بن عبدل الغاضري يرثيهم:

أبعد بنـــي زر وبعـــد ابن جندل ... وعمرو أرجي لذة العيش في خفض

مضوا وبقينا نأمل العيش بعدهم ... ألا إن من يبقى على إثر من يمضي

وارتحل الحكم بن عبدل ذات مرة مع عمر بن هبيرة إلى واسط فشكا إليه الضيقة فوهب له جارية من جواريه فواثبها ليلة أن صارت إليه تسع مرات أو عشرة ، فلما أصبح الصباح قالت له: جعلت فداك من أي الناس أنت ؟ قال امرؤ من أهل الشام، قالت: بهذا العمل غلبتم أهل العراق في حربكم.!!

وقال صاحب الأغاني : لما ظفر ابن الزبير بالعراق وأخرج عنها عمال بني مروان أخرج ابن عبدل معهم إلى الشام وكان فيمن يدخل إلى عبد الملك ويسمر عنده فقال لعبد الملك ليلة يا ليت شعري وليت ربما نفعت * هل أبصرن بني العوام قد شملوا

بالذل والأسر والتشـريــد إنهـم *** على البرية حتف حيث ما نزلوا

أم هل أراك بأكناف العراق وقد *** ذلـــت لعـــزك أعداء وقد نكلوا

فقال عبد الملك بن مروان [ويروون أنه هو قائل هذا الشعر] :

إن يمكن الله من قيس ومن جرش   ومن جذام ويقتل صاحب الحرم

نضرب جماجم أقوام على حنـــق   ضـــربا ينكـــل عنـــا غابر الأمم

ودخل ابن عبدل يوما على عبد الملك بن بشر بن مروان فقال أصلح الله الأمير رؤيا رأيتها في المنام أقصها عليك قال هاتها فأنشأ يقول :

أغفيت قبل الصبح نوم مسهد *** في ساعة ما كنت قبل أنامها

فرأيت أنك جدت لي بوليـــدة *** مغنوجة حسن علي قيامهـــا

وببدرة حملت إلي وبغلـــــة *** شهباء ناجية يصل لجامهـــا

فسألت ربك أن يثيبك جنـــة *** يلقاك منها بردها وسلامهـــا

فقال كلما رأيت عندنا إلا البغلة الشهباء الناجية فإن التي عندنا دهماء فارهة

فقال ابن عبدل : امرأتي طالق إن كانت رأيتها إلا دهماء ولكني نسيت !!

فأمر أن يحمل إليه كل ما ذكر في شعره !!

وقالوا خطب محمد بن حسان الأسدي ابنة لطلبة بن قيس بن عاصم المنقري وقد كان ابن عبدل الأسدي أتاه وهو وال على خراسان فلم يعطه شيئا فقال يهجوه:

أبـــاع زيـــادٌ ســـود الله وجهـــه ...... عقيلة قـــومٍ ســـادةٍ بـــالدراهـــــم

لعمرك ما زوجتهـــا من كفـــاءة ...... ولكنمـــا زوجتهـــا للـــــدراهـــم

وما كان حسان ابن سعد ولا ابنه ...... أبوالبخر من أكفاء قيس بن عاصم

ولكنـــــه رد الزمـــان على استه ...... وضيـــع أمـــر المحصنات الكرائم

له ريقة بخراء تصرع من دنا ...... وتنـــتن خيشــوم الضجيع الملازم

خذي دية منه تكن لك عــدة ...... وروحي إلى باب الأمير فخاصمي

قالوا: فلما بلغ أهلها شعره أنفوا من ذلك، فاجتمعوا على محمد بن حسان حتى فارقها. قال: وكان محمد بن حسان عاملاً على بعض كور السواد، فسأله ابن عبدل حاجةً فرده عنها، فقال فيه هذا الشعر وغيره وهجاه هجاءً كثيراً. وكانت المرأة التي تزوجها معاذة بنت مقاتل بن طلبة، فلما سمعت ما قال ابن عبدل فيها نشزت على زوجها وهربت إلى أهلها، فتوسطوا ما بينهما وافتديت منه بمال وفارقها.

وحدث النضر بن شميل قال: دخلت على أمير المؤمنين المأمون بمرو فقال أنشدني أقنع بيت للعرب فأنشدته قول ابن عبدل :

إنـــي امـــرؤ لم أزل - وذاك ...... من الله - أديبا أعلم الأدبا

أقيم بالدار ما اطمأنت بي الدا ...... ر، وإن كنت نازحا طـــربا

لا اجتوي خلـــة الصـــديق ولا ...... أتبع نفسي شيئا إذا ذهبا

أطلب ما يطلب الكريم من الرز...... ق بنفســي وأجمل الطلبا

إني رأيت الفتـــى الكـــريم إذا ...... رغبتـــه في صنيعـــة رغبـــا

والعبد لا يطلـــب العـــلاء ولا ...... يعطيـــك شيئا إلا إذا رهبا

مثل الحمار المـــوقـــع السوء لا ...... يحســـن مشيا إلا إذا ضربا

ولم أجد عـــروة الخـــلائـــق إلا ...... الدين لما اختبرت والحسبا

قد يرزق الخفض المقيـــم ومـــا ...... شـــد بعنس رحلا ولا قتبا

ويحرم الرزق ذو المطيـــة والـــرح ...... ل ومـــن لا يـــزال مغتربا

قال أحسنت يا نضر. ومن شعر ابن عبدل الذي يستشهدون به على حسن خلقه وعفته قوله :

وإني لأستغني فما أبطر الغنى ...... وأعرض ميسوري لمن يبتغي قرضي

وأعسر أحيانا فتشتد عسرتي ...... وأدرك ميسور الغنى ومعي عرضي

وقالوا: لما وقع الطاعون بالكوفة أفنى بني غاضرة ومات فيه بنو زر بن حبيش الناضري صاحب علي بن أبي طالب، وكانوا ظرفاء، وبنو عم لهم، فقال الحكم بن عبدل الغاضري يرثيهم:

أبعد بني زر وبعد ابن جندلٍ ..... وعمرو أرجي لذة العيش في خفض

مضوا وبقينا نأمل العيش بعدهم ..... ألا إن من يبقى على إثر من يمضي

فقد كان حولي من جيادٍ وسالمٍ ..... كهولٌ مساعيرٌ وكل فتىً بض

يرى الشح عاراً والسماحة رفعةً .....أغر كعود البانة الناعم الغض

وقال أبو الفرج: ونسخت من كتاب أبي محلم قال: سأل الحكم بن عبدل أخو بني نصر بن قعين محمد بن حسان بن سعد حاجةً لرجلٍ سأله مسألته إياها؛ فرده ولم يقضها؛ فقال فيه ابن عبدل:

رأيت محمداً شرهاً ظلوماً ... وكنت أراه ذا ورعٍ وقصد

يقول أمانتي ربي خداعاً ... أمات الله حسان بن سعد

فلولا كسبه لوجدت فسلاً ... لئيم الكسب شأنك شأن عبد

ركبت إليه في رجلٍ أتاني ... كريمٍ يبتغي المعروف عندي

فقلت له وبعض القول نصحٌ ... ومنـــه مــا أسـرلــه وأبــدي

تـــوق دراهــم البكري إني ... أخاف عليك عاقبـــة التعدي

أقرب كل آصـــرةٍ ليـدنـــوا ... فمـــا يــزداد منـــي غير بعد

فأقســـم غيـــر مستثنٍ يميناً ... أبـــا بخـــرٍ لتتخمـــن ردي

وحدث محمد بن سهل الأسدي راوية الكميت : أن الحكم بن عبدل الأسدي أتى محمد بن حسان بن سعد التميمي وكان على خراج الكوفة، فكلمه في رجل من العرب أن يضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه؛ فقال: أماتني الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً؛ فانصرف ابن عبدل وهو يقول:

دع الثلاثين لا تعرض لصاحبها ... لا بـــارك الله في تلك الثلاثينا

لما علا صوته في الدار مبتكـــراً ... كأشـــتفان يرى قوماً يدوسونا

أحسن فإنك قد أعطيت مملكـةً ... إمارةً صرت فيها اليوم مفتونا

لا يعطك الله خيراً مثلها أبـــداً ... أقسمـت بالله إلا قلـت آمينا

قال: فلم يضع له شيئاً مما على الرجل؛ فقال فيه:

رأيت محمداً شرهاً ظلـــومـــاً ... وكنـــت أراه ذا ورعٍ وقصد

يقـــول أماتنـــي ربي خداعاً ... أمات الله حسان بن سعد

فما صادفت في قحطان مثلي ... ولا صادفـت مـثلك في معد

أقـــل بـــراعـــةً وأشد بخـلاً ... وألأم عنـــد مسئلـــة وحمد

نحـــوت محمـداً ودخان فيه ... كريح الجعر فوق عطين جلد

فـــأقسم غـــير مستثـــنٍ يميناً ... أبـــا بخـــرٍ لتتخمـــن ردي

فلو كنت المهذب من تميمٍ ... لخفت ملامتي ورجوت حمدي

نكهت علي نكهة أخدري ... شتيم أعصل الأنياب ورد

فما يدنو إلى فمه ذبابٌ ... ولو طليت مشافره بقند

فإن أهديت لي من فيك حتفا ... فإني كالذي أهديت مهدي

قال محمد بن سهل: وما زال ابن عبدل يزيد في قصيدته هذه الدالية حتى مات وهي طويلة جداً. قال: واشتهرت حتى إن كان المكاري ليسوق بغله أو حماره فيقول: عد

أمات الله حسان بن سعد

فإذا سمع ذلك أبوه قال: بل أمات الله ابني محمداً، فهو عرضني لهذا البلاء في ثلاثين درهماً.

وقالوا: دعا أبو المهاجر، الحكم بن عبدل ليشرب عنده وله جارية تغني فغنت فقال ابن عبدل:

يا أبا المهاجر قد أردت كرامتي ... فأهنتني وضررتني لو تعلم

عند التي لو مس جلدي جلدها ... يوماً بقيت مخلداً لا أهرم

أو كنت في أحمى جهنم بقعةً ... فرأيتها بردت علي جهنم

قال: فجعل أبو المهاجر يضحك ويقول له: ويحك! والله لو كان إليها سبيلٌ لوهبتها لك، ولكن لها مني ولدٌ.

وكان عمر بن يزيد الأسدي مبخلاً، ووجده أبوه مع أمةٍ له فكان يعير بذلك وجاءه الحكم بن عبدل الأسدي ومعه جماعة من قومه يسألونه حاجةً، فدخلوا إليه وهو يأكل تمراً فلم يدعهم إليه، وذكروا له حاجتهم فلم يقضها؛ فقال فيه ابن عبدل:

جـئنا وبين يديـه التمر في طبقٍ ... فما دعانا أبو حفص ولا كادا

علا على جسمه ثوبان من دنسٍ ... لـؤم وجـبنٌ ولولا أيره سادا

وقالوا : كان الحكم بن عبدل صديقاً لبشر بن مروان، فرأى منه جفاءً لشغلٍ عرض له، فغاب عنه شهراً، ثم التقيا فقال: ياابن عبدل، مالك تركتنا وقد كنت لنا زواراً؟ فقال ابن عبدل:

كنـت أثنـي عليك خيراً فلما ... أضمر القلب من نوالك ياسا

كنت ذا منصب قنيت حيائي ... لم أقـل غير أن هجرتك باسا

لم أطق ما أردت بي يابن مروا ... ن ستلقـى إذا أردت أناسا

يقبلون الخسيـس منـك ويثنو ... ن ثنـاءً مدخمـساً دخماسا

فقال له: لا نسومك الخسيس ولا نريد منك ثناءً مدخمساً، ووصله وحمله وكساه.

وقالوا : تزوج ابن عبدل امرأةً من همدان فقالوا له: على كم تزوجت؟ فقال:

تزوجت همدانيةً ذات بهجةٍ ... على نمـط عـادية ووسائد

لعمري لقد غاليت بالمهر إنه ... كذاك يغالى بالنساء المواجد

قال: فلما دخل بها كرهها فقال:

أعـاذلتـي من لومٍ دعاني ... أقـلا اللـوم إن لم تعذراني

فإني قد دللت على عجوز ... مبرقعة مخضبة البنان

تغضن جلدها واخضر إلا ... إذا ما ضرجت بالزعفران

فلما أن دخلت وحادثتني ... أظلتني بيومٍ أرونان

تحدثني عن الأزمان حتى ... سمعت نداء حر بالأذان

فقالت قد نكحت اثنين شتى ... فلما صاحباني طلقاني

وأربعةٌ نكحتهم فماتوا ... فليت عريف حي قد نعاني

وقالت ما تلادك قلت مالي ... حمار ظالع ومزادتان

وبوريٌ وأربعةٌ زيوف ... وثوبا مفلسٍ متخرقان

وقطعة جلة لا تمر فيها ... ودناً عومةٍ متقابلان

فقالت قد رضيت فسم ألفاً ... ليسمع ما تقول الشاهدان

وما لك عندنا ألفٌ عتيد ... ولا تسعٌ تعد ولا ثمان

ولا سبعٌ ولا ست ولكن ... لكم عندي الطويل من الهوان

وقد كان الحكم بن عبدل الأسدي منقطعاً إلى بشر بن مروان، وكان يأنس به ويحبه ويستطيبه، وأخرجه معه إلى البصرة لما وليها، فلما مات بشر جزع عليه الحكم وقال يرثيه:

أصبحت جم بلابل الصدر ... متعجباً لتصرف الدهر

مازلت أطلب في البلاد فتىً ... ليكون لي ذخراً من الذخر

ويكون يسعدني وأسعده ... في كل نائبةٍ من الأمر

حتى إذا ظفرت يداي به ... جاء القضاء بحينه يجري

إني لفي هم يباكرني ... منه وهم طارقٍ يسري

فلأصبرن وما رأيت دوىً ... للهم غير عزيمة الصبر

والله ما استعظمت فرقته ... حتى أحاط بفضله خبري

وخرج يزيد بن عمر بن هبيرة يوما يسير بالكوفة فانتهى إلى مسجد بني غاضرة، وأقيمت الصلاة، فنزل يصلي، واجتمع الناس لمكانه في الطريق وأشرف النساء من السطوح، فلما قضى صلاته قال: لمن هذا المسجد؟ قالوا لبني غاضرة. فتمثل قول الشاعر:

ما إن تركن من الغواضر معصراً ... إلا فصمن بساقها خلخالا

فقالت له امرأةٌ من المشرفات:

ولقد عطفن على فزارة عطفةً ... كر المنيح وجلن ثم مجالا

فقال يزيد: من هذه؟ فقالوا: بنت الحكم بن عبدل؛ فقال: هل تلد الحية إلا حية! وقام خجلاً.

وعن ابن عياش قال: رأيت ابن عبدل الأسدي وقد دخل على ابن هبيرة، فقال له: أنشدني شيئاً فقال: أنشدك مقولةً أيها الأمير؟ قال: هات؛ فأنشده هذه الأبيات وهي قديمةٌ وقد تمثل بها ابن الأشعث حين خرج، ويروى أنها لأعشى همدان -

نجم ولا نعطى وتعطى جيوشهم ... وقد ملئوا من مالنا ذا الأكارع

وقد كلفونا عدةً وروائعاً ... فقد وأبي رعناكم بالروائع

ونحن جلبنا الخيل من ألف فرسخ ... إليكم بمجمر من الموت ناقع

قال: فغضب ابن هبيرة من تعريضه به، وقال به: والله لولا أني قد أمنتك واستنشدتك لضربت عنقك.

و كان عمر بن يزيد الأسدي بخيلاً على الطعام، فدخل عليه الحكم بن عبدل الشاعر وهو يأكل بطيخاً، فسلم فلم يرد عليه السلام ولم يدعه إلى الطعام؛ فقال ابن عبدل يهجوه.

في عمـــر يـزيـد خلتا دنس ... بخـلٌ وجـبنٌ ولولا أيره سادا

جئناه يأكل بطيخاً على طبقٍ ... فما دعانا أبو حفصٍ ولا كادا

وكان لعبد الملك بن بشر بن مروان كاتبٌ يقال له محمد بن عمير وكان كلما مدحه ابن عبدل بشيء وأمر له بجائزة دافعه بها وعارضه فيها، فدخل يوماً إلى عبد الملك وكاتبه هذا يساره، فوقف وأنشأ يقول:

ليـتَ الأميرَ أطاعَنِي فشفيتُه ... من كلِّ مَن يُكْفِي القصيدَ ويَلْحَنُ

متـــكَوِّرٌ يَحْثُـو الكلام كأنَّـما ... باتَـتْ مناخِـــرُهُ بدُهْـنٍ تـُعْرَنُ

وبنَي لهم سِجناً فكنتُ أميرَهم ... زَمناً فأضربُ مَنْ أشاءُ وأسجُـنُ

قل لابنِ آكِلة العِفَاصِ محمَّـدٍ ... إن كنتَ من حبِّ التقرُّب تـجبُنُ

أنتَ امرؤٌ في أرضِ أمِّك فلفلٌ ... جَمٌّ وفلفلنا هنـــاك الــدِّنـْدِن

فبحـقِّ أمِّكَ وهي منك حقيقَةٌ ... بالبـرِّ واللُّطَـفِ الـذي لا يُخْزَنُ

لا تـُدْنِ فـاكَ من الأميرِ ونحِّهِ ... حتَّى يُـداوِيَ ما بأنفِـك أهْرَنُ

إنْ كانَ للظِّربـانِ جُحْرٌ منتنٌ ... فلَجُحْـــر أنفِـك يا محمَّدُ أنتَنُ

فسَــلِ الأميــرَ غيــرُ موفَّق ... وبَنُــو أبيــهِ للفَصاحــة مَعْــدِنُ

وسَلِ ابنَ ذَكْوانٍ تجِدْهُ عالِمــاً ... بسَليقــةِ العُــرْبِ التي لا تحزُن

إذْ أنتَ تحعَلُ كلَّ يومٍ عفصــةً ... فتجيدُ ما عمِلــت يَداك وتحسِنُ

أشبهتَ أمَّكَ غيرَ بابٍ واحــدٍ ... أنْ قد خـُـتِنـْـتَ وأنـَّها لا تُخْتـَـنُ

فلَئِن أصبتَ دراهماً فدفنتَــها ... وفُتِنْــت فيها، وابــنُ آدمَ يُفتَـنُ

فبما أراك وأنتَ غيرُ مُدَرْهِــمٍ ... إذْ ذاك تَقْصِف في القِيان وتزْفِنُ

إذ رأسُ مَالِكَ لُعْبَــةٌ بصــريَّة ... بَيْضَاءُ مُغْرِبَةٌ عليهــا السَّوْسَــنُ

ألقيتَ نفسَكَ في عَرُوضٍ مَشقَّةٍ ... ولحَصْدُ أنفِكَ بالمنَـاجِلِ أهْــوَنُ

أنت امرؤٌ في أرضِ أمِّــكَ فُلفلٌ ... جَــمٌّ وفُلفُلنــا هُنــاكَ الدَّنــْدِنُ

فبحقِّ أمِّك وهي منك حقيقــةٌ ... بالبِــرِّ واللُّطَــفَ الــذي لا يُخْزَنُ

لا تــُدْنِ فاكَ من الأميرِ ونحِّــه ... حتــَّى يُداويَ ما بأنــْفِكَ أَهْرَنُ

إن كـــان للظّربانِ جُحْرٌ مُنتِنٌ ... فلَجُحْرُ أنفــك يا محمَّدُ أنتَـنُ

وعن محمد بن سهل راوية الكميت قال: خطب ابن عبدل امرأةً من همدان يقال لها: أم رياح فلم تتزوجه، فقال: أما والله لأفضحنك ولأعيرنك فقال:

فلا خير في الفتيان بعد ابن عبدلٍ ... ولا في الزواني بعد أم رياح

فأيــري بحمد الله ماضٍ مجربٌ ... وأم ريــاحٍ عرصةٌ لنكاحي

وولد للحكم بن عبدل ابنٌ فسماه بشراً، ودخل على بشر بن مروان فأنشده:

سميـــت بشـــراً ببشـــر الندى ... فـــلا تفضحني بتصداقها

إذا مـــا قـــريـــشٌ البـطـــا ... ح عنـــد تجمـــع آفـاقهـا

تـــســـامت قرومهـــم للنـــدى ... تبـــاري الرياح بأوراقها

فمـــالك أنفـــع أمـــوالـهـــا ... وخلقـــك أكرم أخلاقها

فأمر له بألفي درهم، وقال: استعن بهذه على أمرك.

وقـالوا : اقـترض ابـن عبـدل مـالاً مـن التـجـار وحلـف لهـم بـالطلاق ثلاثـاً أن يقضيهم المال عند طلوع الهلال، فلما بقي من الشهر يومان قال:

قـــد بات همـي قـرناً أكـابده ... كأنما مضجعي على حجر

من رهبةٍ أن يرى هـــلال غـــدٍ ... فـــإن رأوه فحق لي حذري

من فقـــد بيضـــاء غادةٍ كملت ... كأنـــها صـــورةٌ من الصور

أصبحت من أهلي الغداة ومن ... مالـي على مثل ليلة الصدر

فبلغ خبره عبد الملك بن بشر فأعطاهم مالهم عليه وأضعفه له؛ فقال فيه:

لـــمـــا أتـــاه الـــذي أصبت به ... وأنشـــدوه إياه في شعـــري

جاد بضعفي ما حل من غرمي ... عفواً فزالـــت حرارة الصدر

لأشـــكـــرن الـــذي مننت به ... ما دمت حياً وطال لي عمري

وقـال محمـد بن سـهل: اجتمـع الشعراء إلى الحجـاج وفـيهم ابن عبـدل. فقـالوا للحجـاج: إنما شعر ابن عبدل كله هجاءٌ وشعرٌ سخيف؛ فقـال له: قد سمعت قولهم فاستمع مني؛ قال هات فأنشده قوله:

وإني لأستغني فما أبطر الغنى ... وأعرض ميسوري لمن يبتغي قرضي

وأعسر أحياناً فتشتد عسرتي ... فأدرك ميسور الغنى ومعي عرضي

حتى انتهى إلى قوله:

ولست بذي وجهين فيمن عرفته ... ولا البخل فاعلم من سمائي ولا أرضي

فقال له الحجاج: أحسنت! وفضله في الجائزة عليهم بألفي درهم.

وقال ابن عبدل أيضاً:

نـَجَوت محمداً ودخـانُ فيـه ... كريح الجَعْر فوقَ عَطِين جِلْدِ

ركبـتُ إليـه في رَجُلٍ أتاني ... كـريم يطلبُ المعروفَ عِندي

فقلـتُ لـه ولم أعجَل عليه، ... وذلكَ بعـدَ تقريظي وحَمْدي

فأعْـرَضَ مُكْمَحاً عنّي كأنـّي ... أكَلِّمُ صَخْـرَةً في رأس صمْـدِ

أقـرِّبُ كـل آصِرَةٍ ليدنـو ... فمـا يزْداد منّي غيرَ بُعْـدِ

فأقسِمُ غيـرَ مستثـنٍ يميناً ... أبـا بَحْـرٍ لتتـَّخِمَـنَّ رَدِّي

فلـو كنتَ المهذبَ مـن تميم ... لخفتَ ملامَتي ورجوتَ حَمدي

نـَجَوتُ محمداً فوجدتُ ريحاً ... كريـح الكلبِ ماتَ قريبَ عَهْدِ

وقد ألْذعتـَنِي ثعبانَ نـَتـْنٍ ... سيبلـغ إنْ سـلِمْنا أهلَ نـَجْدِ

وأدنـَى خـَطْمَه فودِدتُ أنـّي ... قَرَنـْتُ دونـَّه منـي ببُعْـدِ

كما افْتـَدَتِ المعاذةُ من جَواهُ ... بخِـلْعَتها ولم تـَرجِع برَنـْدِ

وفارقَـها جـواه فاستراحَتْ ... وكـانتْ عنـدَه كـأسيرِ قِدِّ

وقد أدنيتُ فاه إليَّ حتـَّى ... قتلـتُ بـذاك نفسي غيرَ عَمْدِ

وما يدنو إلى فيه ذبابٌ ... ولو طُليت مشافره بقَنْد

يَدُقن حلاوةً ويَخفْن موتاً ... زعافاً إنْ هممْنَ له بِوردِ

فلما فاحَ فُوه عليّ فَوْحاً ... بمثل غَثيثةِ الدَّبِرِ المُغِدٌ

فقلت له: تنحَّ بفيك عنِّي ... فما هذا بريح قُتَارِ رَنْدِ

وما هذا بريح طِلاً ولكنْ ... يفوحُ خِرَاكَ منه غير سَرْدِ

فحدِّثْنِي فإنَّ الصِّدقَ أدنى ... لبابِ الحقِّ من كذِب وجَحْدِ

أباتَ يجولُ في عَفَجٍ طحور ... فأعلم أمْ أتاكَ به مُغنِّي

نكِهتَ عليَّ نكهةَ أخدَريٍّ ... شتيمٍ أعصلِ الأنياب وَرْدِ

فإن أهديتَ لي من فيكَ حتْفي ... فإنِّي كالذي أهديتَ أهدي

لكم شُرُداً يَسرن مغنِّياتٍ ... تكونُ فنونُها من كل فِنْدِ

أما تخزى خَزِيت لها إذا ما ... رَوَاها النَّاسُ من شِيبٍ ومُرْدِ

لأرجُو إن نجوت ولم يُصبْني ... جَوًى إنِّي إذن لَسعيد جدِّ

وقلتُ له: متى استطْرفتَ هذا ... فقال أصابني من جوفِ مَهْدِي

فقلت له: أما دَاويتَ هذا ... فتعذر فيه آمالا بجَهْدِ

فقال: أمَا علمت له رِقَاءً ... فتسديَه لنا فيما ستُسْدي

فقلت له: ولا آلوه عيا ... له فيما أسرُّله وأُبدي

عليكَ بقيئةٍ وبجَعْرِ كَلْبٍ ... ومثليْ ذاك من نون كَنَعْدِ

وحِلتيتٍ وكُرَّاثٍ وثُومٍ ... وعُودَي حَرْمَلٍ ودِماغِ فَهْدِ

وحَنْـجَرَةِ ابنِ آوى وابنِ عِرسٍ ... ووزنِ شَعيـرةٍ مـن بَزْرِ فَقْـدِ

وكَـفٌّ دُرُخْـرُجٍ ولسانِ صَقرٍ ... ومثقالين من صـوّان رَقْـدِ

يُـدَقُّ ويُعجَـن المنخول منه ... ببـولِ آجِـن وبجَعْـرِ قِـرد

وتدفِنـُه زمـانـاً في شـعـيرٍ ... وترقبـه فـلا يَبـدُو لبَـرْدِ

فـدخِّـن فاكَ ما عتَّقت منه ... ولا يعجـن بأظفـار ونـدٌّ

فـإنْ حضَرَ الشتاءُ وأنتَ حيٌّ، ... أراك اللّهُ غَيَّـكَ أمـرَ رشدِ

فـدَحْرجْـها بنادِقَ وازدرِدْها ... متـى رُمْـتَ التكلُّم أيَّ زَرْدِ

فتقـذف بالمِصَـلِّ على مِصَلٍّ ... ببلعـومٍ وشِـدْقٍ مُسْمَـعِدٍّ

ويـلَكَ ما لِبَطْنِـك مذْ قعَدْنا ... كـأنَّ دوِيَّـهُ إرزام رَعـد

فـإنَّ لحِكَّـةِ الناسور عندي ... دواءً إن صبرتَ له سيُجـدِي

يُميـت الدُّودَ عنـكَ وتشتهيه ... إن انت سَنَنْـتَهُ سنَّ المقدِّي

به، وطليتَـه بأصـولِ دِفْلَى ... وشـيءٍ من جنَـى لَصَفٍ ورَنْدِ

أَظُنـِّي ميِّتاً مِنْ نَتْنِ فيـهِ ... أهـانَ اللّهُ من ناجَاهُ بَعْدِي

وقيل لِعَلُّويه كلبِ المطبخ: أيُّ شيءٍ معنى قولهم: هذا نبيذٌ يمنع جانِبَه؟ قال: يريدُون أن الدّبَّان لا يدنو منه، وكان الرّقاشي حاضراً فأنشدَ قول ابن عبدل:

عَشَّـشَ الْعَنكَبُـوت في قَعْـرِ دَنّـي	إنَّ ذا مِـنْ رَزِيَّـتي لَعَظِـيمْ
لَيـتني قـد غَمَـرْتُ دَنـي حتـَّى	أُبْصِـرَ العَنْكبُـوتَ فيـهِ يَعُـومْ
غرقًـا لا يُغيثـه الـدَّهْرِ إلاَّ	زَبَـدٌ فـوقَ رأسِـه مركـومْ
مخرجًـا كفَّـه ينـادي ذبابًـا	أن أغثـْني فإنـَّني مَغـْمومْ

قــال: دَعْــني فَلَــنْ أُطِيــقَ دُنــُوّاً ... مــن شَــرابٍ يشَــمُّهُ المزكــومْ

قال الجاحظ في كتاب الحيوان بعد أن ذكر تلك القصة : والذِّبَّان يضرَب به المثلُ في القَذَر وفي استطابة النَّتْن، فإذا عَجزَ الذُّبابُ عن شمِّ شيءٍ فهو الذي لا يكون أنتنُ منه.

ولذلك حينَ رمى ابنُ عبدلٍ محمَّدَ بن حَسَّان بن سعْد بالبخر، قال:

ومــا يدنــُو إلى فيــهِ ذبــابٌ ... ولــو طُلِيَــتْ مَشــافِرُه بقَنــْد

يَــرَيْنَ حــلاوةً ويخفْــنَ مَوتــاً ... وَشِــيكاً إنْ هَمَمْــنَ لــه بــورْد

وقال ابن عَبدَل في الفأرة والسنَّور:

يــا أبــا طلحــةَ الجــوادَ أغــثني ... بســجالي مــن ســيبك المقســوم

أحيِ نفسي فـدتك نفسي فـإني ... مفلــسٌ قــد علمــتَ ذاك عــديم

أو تطــوعْ لنــا بســلفِ دقيــق ... أجــرُه إن فعلــتَ ذاك عظــيمْ

قــد علمتــُم فــلا تعــامس عنــِّي ... مــا قضــى اللّٰه في طعــام اليتــيم

[أراد: لا تعامَسُوا، فاكتفى بالضمة من الواو، وأنشد:

فلــو أنَّ الأطبَّــاء كــان حــولي ... وكــان مــع الأطبــاء الأســاة]

لــيس لــي غــيرُ جــرة وأصــيص ... وكتــابٍ منمــنمٍ كالوشــوم

وكســـاء أبيعــه برغيــفٍ ... قــد رقعنــا خروقــه بــأديمْ

وإكـــاف أعارنيـــه نَشِـــيطٌ ... هــو لحــافٌ لكــلّ ضــيف كــريمْ

ونبيــذٍ ممــا يبيــع صُــهيبٌ ... يــذر الشــيخَ رمحــه مــا يقــومْ

ربِّ حـلا فقـد ذكـرتُ أصيصـي ... ولحـافي حتـى يغـورَ النجـومْ

كـل بيـت عليـه نصـفُ رغيـف ... ذاك قسـمٌ علـيهمُ معلـومْ

فـر منـه موليـا فـارُ بـيتي ... ولقـد كـان سـاكناً مـا يـريمْ

قلتُ: هـذا صـومُ النصـارى فحلـوا ... لا تليحُـوا شـيوخَكم في السَّـمومْ

ضـحكَ الفـأرُ ثـم قلـن جميعـاً ... أهـو الحـقُّ كـلَّ يـومٍ تصُـومْ

قلـتُ: إن الـبراء قـد قـامَ في ال ... نـاسِ بـإذنٍ وأنـتَ فينـا ذمـيمْ

حملـوا زادهـم علـى خنفسـات ... وقـراد مخـيس مزمُـومْ

وإذا ضـفدعٌ عليـه إكـاف ... علمـوه بعـد النفـار الرسـيمْ

خطمـوا أنفـهُ بقطعـة حبـل ... يـا لقـومي لأنفِـه المخطُـومْ

تصـبُوا منجنـيقهم حـولَ بـيتي ... يـا لقـومي لبـيتيَ المهـدومْ

وإذا في الغبـاء سـمٌّ بُـرَيص ... قـائمٌ فـوقَ بيتنـا بقـدومْ

قلتُ: بيتُ الجرينِ مجمعُ صدق ... كـان قـدماً لجمعكـم معلـوم

قلـنَ: لـولا سـنورتاهُ احتفرنـا ... مسـكناً تحـتَ تمـرهِ المركـوم

إن تـلاقِ سنورتـاهْ فضـاءً ... تـذرانا وجمعُنـا كـالهزيمْ

عشـشَ العنكبـوت في قعـر دنـي ... إن ذا مـن رَزِيـتي لعظـيم

ليـتني قـد غمـرت تـدنى حتـى ... أبصـرَ العنكبـوتَ فيـه يعـومْ

غرقـاً لا يغيثـه الـدهرَ إلا ... زبـدٌ فـوقَ رأسـهِ مركـوم

وكان الحكمُ بن عبدل أعرجَ، وكان بعد هجائه لمحمد بن حسَّان بن سعد بالقصيدة الدالية الشهيرة السابقة لا يبعث إلى أحدٍ بعصاه التي يتوكأ عليها وكتبَ عليها حاجَته إلاّ قضاها كيفَ كانت، فدخل على عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وهو أميرُ الكوفة، وكان أعرجَ، وكان صاحبُ شُرطته أعرَج فقال ابن عَبْدَل:

ألقِ العَصَا ودَعِ التَّعَارجَ والتمِسْ ... عملاً فهذي دَولَةُ العُرجانِ

فأميرنُا وأميرُ شُرطِتنَا مَعاً ... يا قومنا لكليهما رِجلان

فإذا يكونُ أميرنُا ووزيرُه ... وأنا فإنّ الرَّابعَ الشيطانُ

وقال آخر ووصف ضَعفه وكِبَر سنِّه:

آتِي النديَّ فلا يُقرَّب مجلسي ... وأقودُ للشرَف الرفيع حمارِيا

وقال ابن عبدل في بشر بن مروان بن الحكم:

ولو شاء بشر كان من دون بابه ... طماطم سود أو صقالبة حمر

ولكن بشراً أسهل الباب للتي ... يكون لبشر عندها الحمد والأجر

بعيد مراد العين ما رد طرفه ... حذار الغواشي باب دار ولا ستر

وقال ابن عَبدل:

نِعمَ جَارُ الخنزيرة المُرضع الغَرْ ... ثَى إذا ما غَدَا، أبو كلثومِ

طاوِياً قد أصابَ عند صديق ... من غِذاء مُلبَّقٍ مأدومِ

ثمَ أنحَى بجَعرِه حاجِب الشَّمْ ... سِ فألقَى كالمِعلفِ المهدومِ

وقال ابن عبدلٍ الأسدي

بينــا هــم بــالظهر قــد جلسوا ... يومــاً بحيــث ينــزع الــذبح

فــإذا ابــن بشــر في مواكبــه ... تهــوى بــه خطــارة ســرح

فكأنمــا نظــروا إلى قمــر ... أو حيــث علــق قوســه قــزح

الشاعر الجاهلي خفيف الظل:

علباء بن أرقم

كان علباء بن أرقم اليشكري الشاعر الجاهلي معاصراً للملك النعمان بن المنذر، وكان النعمان قد أحمي كبشاً، أي أذاع في الناس أن هذا الكبش يرتع ما شاء أينما شاء في حمى النعمان، وحدث مرة أن ألقت الأقدار هذا الكبش في طريق علباء فذبحه وأكله، وعرف النعمان ذلك فغضب وتوعد علباء، فلما بلغ ذلك علباء اغتم كثيرا ثم اهتدت نفسه إلى حيلة طريفة، وهي مدح الملك النعمان بقصيدة فيها اعتذار خفيف الدم، فصنع قصيدته هذه وبدأها بوصف لحياته الزوجية المضطربة الحافلة بالشجار، فلم يكن علباء من السعداء في حياتهم الزوجية وكعادة الشعراء الجاهليين، يقص علينا في قصيدة أخرى كيف أن زوجته "تماضر" هجرت منزله، وسارت غضبى إلى بيت أبيها في منطقة تسمى "فلجا" بينما يقيم هو وأهله في منطقة "اللوى"، وزعمت أنه لا خير فيه، وأن أبناءها منه سوف يعوضونها بعد وفاته حياة خيراً من حياتها معه:

حلت تماضر غربة فاحتلَّتِ ... فَلْجاً وأهلُك باللِّوى فالحِلَّتِ

وكأنما في العين حب قرنفل ... أو سنبلاً كحلت بها فانهلتِ

إن عينه لتهطل بالدموع حتى لكأن فيها حب قرنفل أو سنبلاً، وقد أفاض الشراح في تأويل نصب حب قرنفل، وقالوا إن السنبل نبات طيب الرائحة غير أن السياق يقتضي أن يكون حب القرنفل والسنبل مما يؤذي العين لأن الشاعر يريد في

هذا البيت أن يصف لنا غزارة دمعه المذروف على فراق زوجته ، فلابد أن يكون النبات الذي اختاره مما يساعد على ذرف الدموع كما هو الحال مع بعض التوابل .

زعمت تماضر أنني إما أَمُتْ　　　يسدد أبينوها الأصاغر خَلَّتي

إن زوجته تزعم أن أبناءها سيسدون الفراغ الذي سيتركه إذا مات ، وهو يأتي بكلمة "أُبَيْنوها" تصغيراً لأبنائها كنوع من الاستهزاء والسخرية.

ثم يعاتب زوجته عتاباً رقيقاً ويذكرها -بعد أن يدعو لها بالثراء والغنى- بأنه كان وفياً لقومه إذا أيسر وإذا أعسر ، وبأنه كان يقي قومه المعضلات الشداد مهما تعظم وبأنه فارس محارب :

تربت يداك، وهل رأيت لقومه　　　مثلي على يسري وحين تعلتي

يوماً إذا ما النائبات طرَقْنَنَا　　　أكفي بمعضلةٍ وإن هي جلتِ

ومناخِ نازلة كفيتُ وفارس　　　نهلت قناتي من مطاة وعَلَّتِ

ثم يذكرها بأنه كان يسرع إلى التضحية بالنوق العشار إذا لاحظ أن الضر أو الجوع قد مس الفقراء ، وهو يذكرها بهذه الصفات في لغة غليظة يلتزمها الشعراء الجاهليون حين يتحدثون عن النوق والنحر :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت　　　واستعجلت نصب القدور فَمَلَّتِ

دَرَّتْ بأرزاق العيال مغالقٌ　　　بيديَّ من قمع العشار الجلةِ

[ملت : أي شوت الخبز أو اللحم في الملة أي الرماد الحار، العيال الفقراء، المغالق : قداح الميسر، القمع : جمع قمعة وهي أعلى سنام الإبل. الناقة العشراء : أي التي مر على حملها عشرة أشهر. الجلة : العظام الكبار.]

ثم يتحدث الشاعر عن تدخله للصلح بين عشيرته ، وكيف أنه بهذا التدخل قد كفى عشيرته الدواهي الكبار والصغار :

ولقد رَأيتُ ثَأَيَ العشيرة بينها ... وكفيت جانبها اللُّتيَّا والتي

وصفحت عن ذي جهلها ورفدته ... نصحي ولم تُصب العشيرة زلتي

وكفيتُ مولاي الأحمَّ جريرتي ... وحبستُ سائمتي على ذي الخلة

إنه يتجاوز عن حقه إذا أخطأ أحد في حقه ، بل إنه يبذل له النصح حتى لا يتكرر منه الخطأ ، ثم إنه يحاول تجنيب قومه آثار خطئه ، فإذا أخطأ لم يصب عشيرته من خطئه ما يؤذيهم . ويتحمل وحده نتائج جريرته إذا بدرت منه جريرة. ويعود فيذكر في آخر شطرة أنه قد نذر إبله وأنعامه ليطعمها البائس الفقير ومن به حاجة إليها. إن علباء في هذه القصيدة يتفاخر بأمجاده، وكأنه يستدر عطف زوجته الناشز كي تعود إليه، ولكننا نحس من قصيدته الثانية شيئاً آخر، إنه يعتذر إلى النعمان بن المنذر عن خطئه في حق كبشه المحمي، وهو يقدم لهذا الاعتذار بصورة لبيت مضطرب : زوجة مشاكسة، لا تنام ولا تريد لزوجها أن ينام، زوجة غضوب لا تريح ولا تستريح، تعذب زوجها بتوزع عواطفها بين الرضا حيناً والغضب حيناً آخر فيوم ترضى يرى منها زوجها وجهاً حسناً وسيماً قسيماً كوجه ظبية ذات جيد مبسوط تمده في مرح ورضا لتنال به بغيتها من الشجر، وهي يوم تغضب تدعي أمام جيرانها أنه ظالم وأن أباه ظالم وتريد أن تقتسم معه ماله لتضمه إلى مالها، فإذا أبى ذلك عليها ظلا يتعاركان طوال الليل، يستمع الجيران إليهما وهما يتبادلان الشد والجذب والأيمان المغلظة:

ألا تكلمـا عِرْسِـي تصـد بوجههـا وتــزعم في جاراتهـا أَنَّ مـن ظَلَـمْ:
أبونـا، ولم أظلـم بشـيء عملتـه سوى ما تَـرَيْنَ في القَذالِ من القدمْ
فيومــاً تُوافينـا بوجــه مُقَسَّــم كـأن ظبيـة تعطـو إلى وارف السَّلَمْ
ويومــاً تريـد مالنــا مــع مالهــا فــإن لم نـُنِلْها لم تـُنِمْنا ولم تنَـمْ
نبيـتُ كأنـَّا في خـُصومٍ غَرَامـةٍ وتسـمعُ جـاراتي التـَّأَلِّيَ والقَسَـمْ

ويسبخط علباء على زوجه، ويبلغ به السخط مدى بعيداً، فيحذرها تحذيراً واضحاً ويهددها تهديداً سافراً بترك المنزل، ويقول لها فيغلظ في القول ويؤكده لئن لم تنتهي أيتها الزوج المشاغبة لأجزينك جزاء تندمي عليه، ولآخذن إبلي وأرتحل عنك وستخسرين بذلك رجلاً شجاعاً كريماً في عسره ويسره:

فقلــتُ لهــا إن لا تَنَنـَاهَيْ فــإنني أخو النُّكْرِ حتى تقرعي السنَّ من نَدَمْ
لَتَجْتَنِبَنْكِ العيسُ خُنْسْاً عُكُومُهـا وذو مِـرَّةٍ في العسـر واليسـر والعَـدَمْ

ولعل الشاعر حين بلغ هذا المبلغ من قصيدته رأى ابتسامة هادئة تتسلل إلى وجه الملك النعمان. ولعل الملك طرب لهذا الوصف الساخر لحياة الشاعر الزوجية ومشاغباته اليومية مع زوجته. أفيكون من اللائق بالملك إذاً أن يعذب هذا الإنسان بسبب كبش اصطاده؟ أفلا يكفيه ما هو فيه من عذاب يومي في منزله؟ إن الشاعر قد تسلل في رشاقة وظرف إلى نفسية الملك السمح الذي يفد إليه الشعراء من كل فج عميق.. إن الشاعر يوجه خطاباً إلى جموع الحاضرين في مجلس الملك ويسألهم مستنكراً: هل رأيتم قبل ذلك ملكاً كريماً جليلاً من قبيلة "معد" العظيمة يعذب

واحداً من مواطنيه الفقراء؟ وفيم؟ في كبش يسير عابثاً لا حارس معه، ولا قطيع ينتمي إليه؟

وأيُّ مليكٍ من مَعَدٍّ - عَلِمْتُمُ -يُعَذِّبُ عبداً- ذي جلالٍ وذي كرمْ
أمن أجل كبش لم يكن عند قريةٍ ولا عند أذوادٍ رِتَاعٍ ولا غَنَمْ؟

إن هذا الكبش استفز علباء، فهو يسير مختالاً متباهياً مغروراً كأنه لا يرى أحداً ينافسه، فهو يقطع الأرض طولاً وعرضاً ينال من النبات ما يستهويه، وإن علباء ليأخذه العجب من هذا الكبش المغرور المتخايل، فيقسم أنه تحير في أمره أيكون هذا الكبش مخموراً فهو يمشي هذه المشية الاستفزازية؟ إن علباء يشعر بالجوع الشديد، ويبدو أن مظهر الكبش الممتلئ الوحيد الذي لا يقربه أحد من الناس خشية غضب الملك، وأن مظهره أغرى به علباء فتاقت نفسه إلى ذبح هذا الكبش الشارد ويطعم لحمه من معه من الرفاق وكلهم جائعون:

يُمَشِّي كأنْ لا حَيَّ بالجزع غيرُه ويعلو جراثيم المخارمِ والأكَمْ
فواللّهِ ما أدري وإني لصادقٌ أمن خَمَرٍ يأتي الطِّلالَ أم اتَّخَمْ
بصرت به يوماً وقد كاد صحبتي من الجوع ألا يبلغوا الرَّجْمَ مِ الوَخَمْ

ثم إن علباء بن أرقم يصف لنا في ثلاثة أبيات غلاظ شداد كيف كان ذبح ذلك الكبش وما الأدوات التي استخدمها في إنضاجه، فيذكر لنا الحطب الكثير والسكين الحادة القاطعة، والخشبتين اللتين تستقدح بهما النار، والقدر التي أنضج فيها لحم الكبش ورائحتها التي تجتلب الكلاب:

بـذي حطـب جَـزْلٍ وسـهل لِفـائِـدٍ ... ومـبراةٍ غـرَّاءٍ يُقـال لهـا هُـدَمْ

وزَنْـدَيْ عَفَـارٍ في السـلاح بقـادح ... إذا شئت أوري قبل أن يبلغ السأَمْ

وقِـدْرٍ يُهـاهِي بـالكلاب قَتارُهـا ... إذا خـف أيسـارُ المسـاميح واللَّحَـمْ

ثم إنه يشير إلى أن أصحابه حذروه من صنيعه ذاك، على الرغم مما بهم من جوع وتشاءموا من فعلته، وذكروه بأحمر عاد، وهو رجل يقال له قدار بن سالف وإرم هي المدينة التي كان يسكنها ثمود -وأحياناً يطلق على ثمود "عاد الأخيرة" تفريقاً بينها وبين عاد الأولى قوم هود- وكان لقوم ثمود (أو عاد الأخيرة) ناقة قد حرم الله عليهم الاعتداء عليها وحذرهم نبي الله صالح عليه السلام من المساس بها فعقرها قدار بن سالف فأهلك الله قوم ثمود بسببها، والرواة يقولون أحمر عاد ويقصدون أحمر ثمود وهو قدار هذا، ويعود الفضل إلى المبرد في توضيح هذا اللبس والإشارة إلى إطلاق اسم عاد الثانية على ثمود في قصة الناقة المشهورة.

وقد ورد هذا البيت الذي أشار فيه علباء إلى ذلك :

وقـال صِحَابي إنَّـك اليـوم كـائنٌ ... علينـا كمـا عَفَّـى قُـدارٌ علـى إرَمْ

وفي رواية الأصمعي ورد هذا البيت قبل البيت الثالث في الأبيات الثلاثة السابقة ولكنا نميل إلى ترتيب الأبيات الأربعة على هذا النحو الذي أوردناه مراعاة للسياق، ولا نشك في أن ما حدث هو محض خطأ من الرواة والنساخ.

ونحن نستنتج من هذا البيت أن علباء كان قبل أن يعقر الكبش عالماً بأنه محمي للملك النعمان، وعلى ذلك يكون مرتكباً لجنايته تلك مع سبق الإصرار كما يقول أصحاب القانون. ولعله كان من الشهرة في المرح والدعابة بحيث يثق في

سماحة الملك مع أمثاله من الشعراء، ولعله كان يعرف طبيعة الملك ولا يشك في أن فيها متسعاً للعفو، وقد قدمنا أنه اختار أنموذجاً من خلافاته الزوجية الشائقة ليكون مفتتحاً لقصيدته الاعتذارية أمام الملك، فهو إذاً صاحب شخصية مميزة، لم يعتذر للملك اعتذاراً مهيناً كما فعل النابغة الذبياني ولم يبدأ قصيدته بوصف الأطلال كما كان يفعل معاصروه من الجاهليين.

لكنه يقول إنه كان جائعاً، وكان رفاقه جياعاً، ومر بهم هذا الكبش يتهادى ويتخايل فاستفزهم فنحروه وأشبعوا جوعهم، وحين عرفوا أن الكبش محمي للملك ثار فيهم علباء زاجراً، وهل يغضب الملك من أجل كبش أكله جائع من رعاياه؟ إن التخويف بالملك مبالغة فظة مجافية للخلق الكريم لأن فيها تعريضاً لا يليق بالملوك، فليس الملك بخيلاً مغلول اليد، وليس المجني عليه عمًّا ولا خالاً للملك: ألم نقل إن علباء رجل يحب الهزل؟!

أُخــوَّف بالنعمــان حتــى كأنمــا	قتلتُ له خالاً كريماً أو ابن عمْ؟!!
وإن يَــدَ النعمــان ليســت بِكَــزَّةٍ	ولكــن سمــاء تمطـر الوبْـل والـدِّيَمْ

ولعل الملك أغرق في الضحك حين بلغ الشاعر هذا المبلغ من قصيدته، ولعل الملك تذكر حينئذ أخواله وأبناء عمومته، وتذكر كرم يده وسخاءها، وبره بالشعراء وحنوه عليهم.

ولعل الشاعر حين بلغ هذا المبلغ من قصيدته، ورأى ابتسام الملك أو ضحكه يريد أن يتمادى في غيه، فهو يعود إلى وصف حالته النفسية حين رأى هذا الكبش السمين الشارد، وهو يعاني من الجوع، ورفاقه يعانون الجوع، ويمعن الكبش في

استفزاز هؤلاء القوم الجوعى، وكأنه يهزأ بهم ويسخر منهم فيثير التراب برجليه ليعلو وجوههم الناحلة المغبرة، وليتسرب إلى حلوقهم الجافة الساخطة في حين يرتع ذلك الكبش ويأكل ويشرب مما يحلو له من نبت وماء إن الشاعر هنا يقول إنه كان مسلوب الإرادة إزاء هذا الاستفزاز، حتى لكأنه في حالة دفاع شرعي عن النفس كما يقول أصحاب القانون أيضاً:

لبستُ ثياب المقتِ إن آب سالماً ولم أفنهُ، أوأن أُجَرَّ إلى الرَّجَمْ

وفي هذا البيت الأخير صورة نفسية رائعة لهذا الكبش وللشاعر، فالكبش ساهٍ لاهٍ عابثٌ يثير الترب برجليه على الشاعر وكأنه يتحداه، والشاعر جائع ظامئ مغبر تكاد روحه تبلغ الحلقوم، أو تكاد تخرج فعلاً منه من ألم السفر وألم الجوع وألم العبث الذي يعبثه هذا الكبش:

يثير على التربَ فَحْصاً برجله وقد بلغ الدَّلْقُ الشواربَ أوْ نَجَمْ

أما الذلق فهو الحد، وأما الشوارب فمجاري النَّفَس، ثم ينهي الشاعر قصيدته بوصف إلية الكبش الضخمة، وكيف ذبحه ويصف لنا عملية الذبح وخروج الدم من الحلق وتقطيعه للكبش وطهيه، ثم يقول إنه فاز هو ورفاقه باللحم وفازت الذئاب والطيور الجارحة بما تبقى من عظامه ورأسه:

له إلية كأنها شطُّ ناقةٍ أَبحُّ إذا ما مُسَّ أبهرُه نجَمْ
وقطعته باللوم حتى أطاعني وألقى على ظهر الحقيبة أوْ وَجَمْ
ورحنا على العبءِ المعلق شلوه وأكرعه، والرأس للذئب والرخمْ
مواريث آبائي وكانت تريكةً لآل قُدار صاحب الفطرِ في الحُطَمْ

ونحن لا نجد معنى لهذا البيت الأخير الذي يصف فيه هذه الفعلة بأنها من فعال آبائه التي يفخر بحفاظه عليها، إذْ إن المجال ليس بمجال فخر في مواجهة الملك، بل مجال اعتذار وأسف.

وأغلب الظن أن في القصيدة أبياتاً ضائعة، أو لعل هذا البيت الأخير دخيل عليها، أو لعل في ترتيب أبيات القصيدة اضطراباً على النحو الذي أشرنا إليه عند قوله :

وقال صِحَابي إنَّك اليوم كائنٌ ... علينا كما عَفَّى قُدارٌ على إرَمْ

على أن هذا الرأي لا يغض من قيمة القصيدة بوصفها تحفة فنية شائقة ولوحة شعرية خفيفة الظل، متجددة العطاء.

هذا الشاعر الرائع الجميل.. ابن الحمارة !!

نحن اليوم ضيوف على مجلس شاعر عجيب الشأن، فهو شاعر مجيد في شعره غاية الإجادة، وهوموسيقي ملحن يهتم بفنه كل الاهتمام، وهو رجل دولة بلغ مرتبة الوزارة، ومع ذلك كله تغافل عنه المؤرخون واضطربوا في شأنه فلم يذكروا لنا عنه إلا نتفاً يسيرة، إلا أنهم اتفقوا على شئ واحد هو هذا الاسم الغريب العجيب الذي يذكرونه به (ابن الحمارة)!!

ترجم له ابن سعيد المغربي في كتاب (المغرب في حلى المغرب) [١٢٠/٢- ط دار المعارف- الترجمة رقم ٤٣٦] فذكر أنه كان تلميذاً لفيلسوف الأندلس الشهير ابن باجه وأن اسمه (أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطي،ويروى له رثاء في أستاذه ابن باجة الفيلسوف لما مات، فقد وقف ابن الحمارة على قبره راثياً بقوله:

يا صاحب القبر القريب ودونه ... هم تبيت له الكواكب تسهر

قم- إن أطقت- وهات عن صور الردى ... خبراً، فقد عانيت كيف تصور

واخبر عن الملكوت كيف رأيته ... إن الغريب عن الغرايب بخبر

وفي تحقيقه لكتاب ابن سعيد المغربي نقل الدكتور شوقي ضيف في ترجمة ابن الحمارة أن الضبي ترجم له في البغية (ص١٧ه) وقال عنه: شاعر مجيد خبيث الهجاء ذكره الفتح في كتاب "المطمح" واستدرك الدكتور ضيف على هذا النقل أن كتاب المطمح المطبوع لم ترد فيه ترجمة لابن الحمارة.

وقد ترجم لابن الحمارة كذلك المقرى فى "نفح الطيب" نقلاً عن ابن سعيد إلا أنه دعاه أبا الحسين علياً بن الحمارة- كما يقول د. ضيف، وذكره ابن دحية فى "المطرب" ودعاه الوزير أبا عامر بن الحمارة، وذكره الصفدى فى الوافى بالوفيات ودعاه أبا بكر بن الحمارة (٢/٢٤٢).

وخلاصة هذه النقول والتراجم أننا أمام شاعر لا خلاف على إجادته الشعر ولكن الخلاف فى اسمه وكنيته فبعضهم أخفى اسمه واكتفى بكنيته وجعلها (أبا عامر) وبعضهم صرح باسم له هو (على) وجعل كنيته (أبا الحسين)، وأحدهم لقبه بالوزير، ولكن أحداً لم يذكر لنا سنة مولده ولا سنة وفاته. إلا أن ابن سعيد فى المغرب نسبه إلى غرناطة فقال (أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطى) وذكر أنه كان يعمد للشَّعْراء (بفتح الشين المشددة وسكون العين: بمعنى الروضة ذات الشجر الكثير) فيقطع العود من الشجرة بيده فيسويه ويصنع منه عوداً للغناء، وكان ينظم الشعر، ويلحنه،ويغنيه، فنحن إذا أقام شاعر وملحن موسيقى هاو يحب فنه ويخلص له، هذه أول ناحية نلمسها فى شخصيته، والناحية الثانية أنه إنسان ودود يحب الناس ويحبونه، ونستنتج ذلك من نوعين من شعره: أولهما شعره فى رثاء أستاذه الفيلسوف ابن باجة وقد ذكرناه سابقاً، وثانيهما شعره فى رثاء زوجته حين ماتت فرثاها قائلاً:

ولما أن حللت الترب قلنا ... لقد ضلت مواقعها النجوم

ألا يا زهرة ذبلت سريعاً ... أضن المزن؟ أم ركد النسيم ؟

فالرثاء دليل الوفاء، والوفاء مقرون بالتواد والتحاب بين الناس، والنوع الثانى من شعره الذى نستنتج منه أنه كان ودوداً محباً محبوباً بين الناس شعره فى الإخوانيات وما يرتبط بها من مناسبات، فمن ذلك ما روى من أن امرأة مشهورة بجمالها أهدت إليه مسكاً فقال:

أتانا فتيت المسك يعبق عرفه ... ويثنى على ذاك الندى والتكرم

فأشعرنى ريا حبيب أعيره ... على رقبة لحظ المشوق المتيم

فوالله لولا أن تقول لى المنى ... وراءك لا تقدم على غير مقدم

لحدثت نفسى عند ذلك أننى ... أشم الذى ما بين عينيك والفم

وأهدت إليه أخرى تفاحة فقال:

بعثت إلى كخدها تفاحة ... وكطعم ريقتها رحيقاً سلسلاً

فصرفت وجهى عنهما ولقد أرى ... مترشفاً عذب الجنى ومقبلاً

كى لا يغار على الحبيب حبيبه ... فيقول بات بغيرنا متعللا

شعره ورقته:

وإذا كان شعراء الأندلس معروفين برقة أشعارهم،وخفة أرواحهم وتأثرهم ببيئتهم الخضراء الوارفة الظلال، الطيبة الثمار، فإن ابن الحمارة بلغ من هذه الرقة ذروتها، وتسنم من تلك الخفة أعلى مراميها،وشعره الغزلى أكبر شاهد على أن حسه الفنى كان دقيقاً رقيقاً، واقرأ إن شئت قوله يصف حاله وغربته ويخاطب ليله الطويل:

ألا يا ليل هل لك من صباح ... وهل لأسير نجمك من سراح

ألا يا ليل طلت على حتى ... كأنك قد خلقت بلا صباح

فهل باتت فطيمة فيك تشكو ... كما أشكو اغترابي وانتزاحي

أردد زفرة المضنى كأنى ... جريح أن من ألم الجراح

يقلبنى الأسى جنباً لجنب ... كأنى فوق أطراف الرماح

ثم يتجه بالخطاب إلى حبيبته التى أسماها فطيمة وهو هنا يكنيها بأم عمرو فيشكو لها لهفته إلى رؤيتها،ورغبته فى لقائها، وكيف تجشم المشاق ليزورها فجاء بلاداً ينكره أهلها وينكرهم، فأقام بينهم غريباً، عاشقاً، محزوناً، محروما، فهو يعاتب حبيبته لأنها لم تسمح بلقائه ولو أرادت لفعلت فهو يقول:

دعانى الحب نحوك أم عمرو ... فطرت إليك خفاق الجناح

ولو أسطيع من طرب وشوق ... ركبت إليك أجنحة الرياح

أحبتنا رويدكم علينا ... فقد جمح الهوى كل الجماح

هو القدر المتاح جرى علينا ... ومن يسطيع للقدر المتاح

غريب حل داركم فأضحت ... له يهماء موحشة النواحى

تناكرت الوجوه بها عليه ... وكانت ذات عرف وانشراح

ويشتد ابن الحمارة فى عتاب حبيبته أم عمرو، فيقول إن بيدها أن تلقاه فيبثها شوقه ولهفته وحبه ولواعج غرامه، وهى إن فعلت ذلك فما زادت على أن

صدقت ما كانت تزعمه من محبتها إياه، وعشقها له. وها هو ذا يشك فى كلامها فهو مريض بحبه وهى صحيحة معافاة لا تعانى سقم الحب، وهول العشق:

ولـو شـئتم لمـا حسـن انفـرادى بأشـواقى ولا وجـب اطراحـى

وقلـتم إنكـم تجـدون وجـدى وهيهـات المـراض مـن الصـحاح

أعـاتبكم لأنكـم بخلـتم وأنـتم قـادرون علـى السـماح

ويبدو أن ابن الحمارة قد عبر البحر من الأندلس إلى المغرب وأقام فيه زمناً ففى شعره قصيدة يذكر فيها (المسيلة) وهى من بلاد المغرب الأوسط. وهو فى هذه القصيدة يخاطب محبوبة يكنيها بأم طلحة تقيم فى مدينة المسيلة على ما يبدو، فيقول:

لم يـدر طيـف خيالـك المتـأوب أنـى علـى جمـر الأسـى أتقلـب

وافـى يعارضـه رقيبـى لم يـدع نـومى يجـئ ولا سـهادى ذهـب

وانظر إلى روعة التصوير فى قوله يصف يقظة قوم أم طلحة وحراسها الذين يسهرون على حراستها من هذا العاشق المتربص، فيخيل إليه أن نيل النجوم أقرب إليه وأسهل عليه من أن يظفر بساعة ينام فيها هؤلاء الرقباء الحراس المزعجون:

يـا أم طلحـة والـديار قريبـة والـنجم مـن غفـلات قومـك أقـرب

هـل تـذكرين إذ الأعـادى نـزح والملتقـى كثـب ودارك مشـغب

يـا سـرحة حرمـت علـى وإنهـا لألـذ مـن مـاء الحيـاة وأعـذب

مـا بعـد ظلـك لى مقيـل فـاعلمى كـلا ولا لى بعـد مائـك مشـرب

يا صاحبى وإليك شكوى صاحب عجزت محالته وضاق المذهب

امرر على هدف "المسيلة" إنه هدف إلى مع العشى محبب

ويبدو أنه يئس من لقاء حبيبته أم طلحة وغادر المسيلة عائداً إلى غرناطة ففى إحدى قصائده يظهر تأثره وتحسره على أيام أم طلحة فيقول:

ألا ليت شعرى هل تعود كعهدنا ليال طويناهن طى المراحل

إذا ذكرتها النفس كادت من الأسى تسرب فى أولى الدموع الهوامل

وإنى وتركى أم طلحة بعدما تسلسل منى حبها فى المفاصل

لظمآن قفر أبصر الماء حسرة وقد ذيد عن أطرافه بالمناصل

ولولا رجائى عطفة الدهر لم أبل متى نزلت بالنفس إحدى النوازل

عن النوم سل عيناً به طال عهدها وكان قليلاً فى ليال قلائل

أبيت بمستأنى الخيال ودونه طروق سهاد واعتياد بلابل

إذا ظن وكراً مقلتى طائر الكرى رأى هدبها فارتاع خوف الحبائل

والأبيات الثلاثة الأخيرة بلغت الغاية فى الإجادة وحسن تصوير الأرق، وما يجلبه الأرق والسهاد من ألم ومرض وحزن واكتئاب، لا ندرى أكان أكثره من الغربة أم من فراق الأحباب؟.

أبو العلاء المعري ضد تعليم المرأة

اسمه أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، وكنيته أبو العلاء، ولقبه المعري نسبة إلى قرية " معرة النعمان " التي ولد بها من بلاد. الشام وتنوخ قبيلة عربية أصيلة نسبها بيعرب بن قحطان ويشهد المؤرخون لها بأنها "كانت من أكثر العرب مناقب وحسبا"، وبنو الساطع الذين منهم بيوت المعرة، أعز بطون تنوخ، وبيت أبى العلاء من بنى سليمان ابن داود بن المطهر سليل الساطع، ويقول فيهم " ابن العديم " مؤرخ حلب " وأكثرها قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وأدبائها من بنى سليمان "

وقد ولد أبو العلاء في بيت علم وقضاء وجاه، وكانت ولادته سنة ثلاث وستين وثلاثمائة (٣٦٣هـ) الموافقة لسنة ٩٧٣ ميلادية.

وكان نحيف الجسم، وأصيب بالجدرى صغيرا فعمى في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. وطلب العلم وبرع فيه حتى اشتهر.

ودخل بغداد سنة ٣٩٩ هـ وظل فيها قرابة سنة ونصف سنة ثم عاد إلى معرة النعمان، ولزم منزله، وشرع في التصنيف، وأخذ عنه الناس وسار إليه الطلبة من الآفاق، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار، وسمى نفسه " رهين المحبسين " للزومه منزله وذهاب بصره، ويذهب بعض الكتاب إلى أنه رهين ثلاثة محابس لا محبسين اثنين، ويستدلون لذلك بقوله في اللزوميات:

أرانى في الثلاثة من سجونى　　فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقـدي نــاظري، ولــزوم بيتــي   وكـون الـنفس في الجسـد الخبيـث (١)

وقد ظل أبو العلاء معتكفا في منزله هذا من بعد عودته من بغداد في نحو سنة ٤٠٠ هـ حتى وفاته سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة، وثمان وخمسين وألف بعد ميلاد المسيح.

ويذكر المؤرخون لأبي العلاء أنه قضى هذه الحقبة في التدريس لطلابه الذين كانوا يقصدونه من كل صوب وصوب، وفي تأليف الكتب، ومؤلفاته كثيرة ومشهورة ومن أشهرها رسالة الغفران، وديوان سقط الزند، وديوان اللزوميات، وغيرها كثير. وكان يتصف إلى جانب علمه وثقافته بصفات خلقية رفيعة أطنب المؤرخون في تفصيلها، كما كان يرى رأى بعض الحكماء (= الفلاسفة) في عدم إيلام الحيوان ومن هنا جاء تحريمه أكل اللحم على نفسه ما يقرب من خمس وأربعين سنة.

أبو العلاء وتعليم المرأة:

يتلخص رأى أبي العلاء في المرأة في أنها شر، ولكنه شر لابد منه فهو على مستوى النظرية قدم لنا في اللزوميات الآراء المتعددة التي تؤكد هذا. وعلى مستوى التطبيق عاش بلا زوجة ولا ولد. غير أن آراءه المتعددة لا تخلو من تناقض:

فهو ينصح الإنسان بأن يزوج ابنته ولا يزوج ابنه:

واطلب لبنتك زوجاً كي يراعيها   وخوف ابنك من نسل وتزويج

وذلك لأن الزواج عصمة للمرأة من الفتنة، وفي ذلك وقاية للمجتمع من الفساد الذي يترتب على خروج النساء، وعدم إحصانهن. أما الرجال فهم قادرون

على الصبر على عدم الزواج، والرهبان أصدق مثال على ذلك لولا أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل.

ويعجبني عيش الذين ترهبوا ... سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

وهو يدعو إلى التفرد واعتزال النسل لأن الإنجاب يعرض الذرية لآلام الحياة وفي عدم الإنجاب وقاية من ذلك:

هذا جناه أبي علي ... وما جنيت على أحد

وقوله:

الحكم لله، فالبث مفرداً أبداً ... ولا تكن بصنوف الناس مختلطاً

ولست أدري سوى أني أرى رجلاً ... يرب نسلاً لرب الدهر قد غلطا

وهو يرى أن طبيعة المرأة فاسدة، ويؤكد أن النساء ناقصات عقل، ويستدل على ذلك بقاعدة نحوية وهى جمع غير العاقل بالألف والتاء وهما علامة جمع التأنيث فنحن نقول في جمع مجلة وكراسة وسماء: مجلات وكراسات وسماوات، كما نقول في جمع بنت: بنات، فهو يستنتج من ذلك أن انعدام العقل في الجمادات هو الذي جعلنا نختار لها من بين صيغ الجموع التي تعرفها لغة العرب، صيغة جمع المؤنث، وهو استنتاج عجيب ولا دليل عليه. يظهر في قوله:

إنا، معاشر هذا الخلق، في سفه ... حتى كأنا على الأخلاق نختلف

إن الرجال إذا لم يحمها رشد ... مثل النساء عراها الخلف والخلف (٢)

ألا تـرى جمـع مـالا عقـل يسـنده جمــع المؤنــث فيــه التــاء والألــف

وقد صرح أكثر من مرة بأنه يوافق على وأد البنات، أو لعله يقصد أن الموت خير للفتاة من الحياة. فمن ذلك قوله:

إن الأوانس أن تزور قبورها خير لها من أن يقال عرائس

وهـو ينصـح الزوجـات اللاتـي لهـن بنـات، أن يتشـددن في تربيـة بنـاتهن ولا يتركنهن يخـرجن لشـهود حفـلات الـزواج وهـن متزينـات بـالحجول (الخلاخيـل) والأقراط:

نصحتك يـا أم البنـات فحـاذري وســـاوس ولاج الأسـاود، فنـاس

ولا تلبسي الحجلين بنتك والبرى لتشهد عرساً، واشغلنها بعـرنـاس [٢]

فعلـى الأم أن تشـغل ابنتهـا بمغـزل تتلـهى بـه، وألا تسـتمع لـمن يوسـوس لهـا بخروجها.

وأبو العلاء إذ يرفض المرأة، ويرى الموت خيراً لها من الحياة، فإنما يرفضها في جميع حالاتها بدرجات مختلفة، فهي تعبث بألباب الرجال ومن صفاتها ألا تنصف أحداً حتى من عشاقها:

نعـــوذ بالله مــن غــوان يكــن بــاللـــب معصفات

ومن صفـات النسـاء قـدما أن لسن في الود منصفـات

ولذلك نجده ينصح الرجل ألا يأمن للمرأة وألا يسايرها في غوايتها لأن تبعات ذلك كثيرة.

لا تتبعن الغانيات مماشيا   إن الغواني جمة تبعاتها

وهو يرى أن أمر المرأة كله شر، فليست فتنة النساء في دخول الحمامات (وهي أماكن عامة كانت تنتشر في ذلك الوقت للنظافة) فحسب، بل إن مجرد تفريط الرجل وسماحه للمرأة بالخروج متعطرة متزينة هو شر كبير حتى لو كان خروجها إلى المسجد، فمن ذا الذي يأمن الإمام الذي ستصلي خلفه ؟ يقول أبو العلاء مرتجزاً:

شر على المرأة من حمامها   إرسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب في أكمامها   يفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد في إلمامها   تأتم والخيبة في ائتمامها
بأحدل ما عف عن كمامها   أعاذها الخالق من إمامها

وفي اللزوميات قصيدة مطولة خاصة بالنساء عرض فيها أبو العلاء آراءه بالتفصيل والوضوح مطلعها:

ترنم في نهارك مستعيناً   بذكر الله في المترنمات

فهو يصف النساء في هذه القصيدة بأنهن يتظلمن وهن ظالمات، فلا ينبغي على الرجل أن يرد عليهن السلام إذا أشرن إليه بالسلام لأنهن طرق إلى الغي والفتنة، لا يكتفين بالوسامة الطبيعية، بل يلتمسن الوسامة بالخضاب (=الحناء)

ولا ترجع بإيماء سلاماً ... على غيد أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم ... وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غي ... لقينك بالأساور معلمات
وسام ما اقتنعن بحسن أصل ... فجئنك بالخضاب موسمات

وماذا سيستفيد الإنسان من صحبة النساء ؟ إذا ولدن له أولاداً فقد يعاني من عقوقهم وأذاهم وما يجرونه إليه من مصائب، وإذا ولدن له إناثاً قسيمات الوجوه جميلات، فما أشد بؤسه بهذه الوجوه الحسان التي تريد حلياً وتريد زواجاً وهن لا يدفعن عن الرجل في الحرب ولا يرددن عنه غارة، ومع ذلك فإنه لايسلم من لومهن وتأنيبهن:

صحبتك فاستفدت بهن ولدا ... أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء ... بذلك عن نوائب مسقمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق ... وأرزاء يجئن مصممات
وان تعط الإناث فأى بؤس ... تبين في وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حلياً ... ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم ضرب ... ولا في غارة متغشمات

فأفضل شيء للنساء دفنهن، لأنهن إذا كبرن وتزوجن ثم فقدن أزواجهن فسيصرن عبئاً على آبائهن مرة أخرى، كما أنهن قد يلدن في المستقبل من يعادى جده أو أخواله، وقد يجلبن العار إذا مسهن ظلم أو هضمت حقوقهن:

ودفن والحوادث فاجعات ... لإحداهن إحدى المرمات

وقد يفقدن أزواجاً كراماً ... فيا للنسوة المتأيمات

يلدن أعادياً ويكن عاراً ... إذا أمسين في المتهضمات

وهو ينهى عن تعليم المرأة صراحة، ويدعو إلى تعليمهن حرفة الغزل لأن في ذلك أماناً لهن:

ولا تحمد حسانك إن توافت ... بأيد للسطور مقومات

فحمل مغازل النسوان أولى ... بهن من اليراع(٤) مقلمات

لأن النساء إذا تعلمن فسيستعملن ما تعلمنه في الشر:

سهام إن عرفن كتاب لسن ... رجعن بما يسوء مسممات

ويتركن الرشيد بغير لب ... أتين لهديه متعلمات

وان جئن المنجم سائلات ... فلسن عن الضلال بمنجمات(٥)

ليأخذن التلاوة من عجوز ... من اللائى فغرن مهتمات

يسبحن المليك بكل جنح ... ويركعن الضحى متأثمات

فما عيب على الفتيات لحن ... إذا قلن المراد مترجمات

وإذا كان لابد من تعليمهن فيجب أن يختار الرجل لتعليم بناته معلماً عجوزاً أكل عليه الدهر وشرب، يعلمهن آيات القرآن، بحيث يكون قد بلغ من الكبر مبلغاً يجعله مرتعش اليدين، أشيب الشعر:

ولا يُدْنينَ من رجل عجوز يلقنهن آيا محكمات

سوى من كان مرتعشاً يداه ولمته من المتثغمات

ويتحدث أبو العلاء عن ظواهر اجتماعية بعينها، كالشعوذة، فينصح كل أب أن يحتاط في معاملة بناته، وأن يسعى في تربيتهن سعى المشفق عليهن. ومن أساليب التربية التي يدعو إليها الآباء، ألا يتركوا بناتهن يخرجن لزيارة اترابهن ممن تزوجن وأصبحن عرائس فيخرجن متخذات زينتهن لباساً كريش الطاووس وعطوراً يجعلنها في وجوهن.

وإن طاوعن أمرك فانه غيداً يزرن عرائساً متممات

أخذن كريش طاووس لباساً ومسكا بالضحى متلغمات(٦)

ومن أساليب تربية الرجل لبناته ألا يتركهن يذهبن إلى عجائز النساء المشعوذات اللائي يزعمن أنهن قادرات بسحرهن على جلب الأزواج وتليين قلوب العشاق وعطفها حتى يعودوا إلى معشوقاتهم:

وأبعدهن عن ربات مكر سواحر يفتدين معزمات

يقلن: نهيج الغياب حتى يجيئوا بالركاب مزممات

ونعطف هاجر الخلان كيما يزول عن السجايا المسئمات

فلا يدخلن دارك باختيار فقد ألفيتهن مذممات

كما أن أبا العلاء يذم زواج المصلحة، فلا ينبغي أن تتزوج فتاة مراهقة من شيخ عجوز، لاسيما إذا كان فقيراً، لأن الفقر مع تقدم السن بلاء مبين، وإذا أراد ذلك العجوز أن يتزوج فعليه أن يبحث عن امرأة عانس تقلبت مر الدهر وانتظرت الزواج عاماً بعد عام فهى شمطاء واهنة تتسلى بغزل الصوف مع مرور السنين:

ولا يتأهلــــنْ رجــل مقــل بمعصـــرة من المتنعمات(٧)

فان الفقر عيب إن أضيفت إليه الســن جاء بمعظمات

ولكن عرس ذلك بنــت دهر تجنبــت الوجوه محممات

من اللائي إذا لم يجـــد عام تفوقـن الحوادث معدمات

من الشمط اغتزلن بكل عودٍ وأفنيــن السنين مجرمـات

ثم إن الرجل إذا تزوج فلا ينبغي له أن يعدد زوجاته بل لابد أن يكتفي بواحدة.

وواحدة كفتـــك فلا تجاوز إلـى أخرى تجيء بمؤلمات

وهو ينهى عن ظلم الزوجة لأن النساء كالزجاج، ولعله اقتبس هذا المعنى من القول المأثور (رفقاً بالقوارير) أو القول الآخر (استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج، إذا جئت تقومه كسرته):

وإن أرغمت صاحبة بضر فأَجْدِرْ أن تروع بمعرمات(٨)

زجاج إن رفقت به، وإلا رأيت ضروبه متقصمات

ونجده في غير هذه القصيدة يلح في تعليم المرأة، لأن المرأة لا ينبغي أن تطلب من العلم إلا ما يحفظ عليها دينها، ويكفى في ذلك أن تحفظ سورة الإخلاص وسورة الفاتحة، وتستغني بها في صلاتها عن السور الطوال:

علموهن الغزل والنسج والردن وخلوا كتابة وقراءة

فصلاة الفتاة بالحمد والاخلاص تجزى عن يونس وبراءة.

وقد بلغ من تشدد أبي العلاء على المرأة بعد أن نهاها عن الصلاة في جماعة أن نهى عن حج المرأة، وهو بهذا يخالف قواعد الدين ولا نستطيع أن نلتمس له في ذلك عذراً.

وخلاصة ما سبق:

أن أبا العلاء ساء ظنه بالمرأة إلى درجة من النادر أن بلغها شاعر غيره.

- أنه يرى تعليم المرأة في ظروف مشددة من رجل عجوز.
- ولا ينبغى أن تزيد في تعليمها عما تتطلبه أمور العبادة.
- وألا تخرج المرأة متزينة متبرجة متعطرة.
- وأن يبتعد الرجال بأنفسهم وبأسرهم عن الفتنة.
- وأن الزواج شر، فإن كان ولابد فواحدة تكفى.
- وعلى الرجال أن يسارعوا بتزويج بناتهم، وألا يسارعوا في تزويج أولادهم.

- **أن أبا العلاء قد تناقض مع نفسه في كثير من آرائه فيما يخص المرأة.**

أن بعض آراء أبى العلاء في المرأة تخالف أصول الدين حيث تطرف في مراعاة الحذر حتى دعا إلى وأد البنات واستحسن ذلك، كما حذر من شهود المرأة الجماعات.

من عجائب التصحيف

حكاية عيسى !!!

التصحيف هو تغيير بعض أحرف الكلمة فيتغير معناها ، ويكون التصحيف بتغيير ضبط الحروف (حركاتها) أو تغيير ترتيبها بتقديم أو تأخير ،وقد روى صاحب كتاب " تصحيح التصحيف وتحرير التحريف " في كتابه كثيرا من نوادر التصحيف في تراثنا ، فمن التصحيف اللطيف ما روي عن الشاعر المتفنن صفيّ الدين الحلي، الذي كان ولوعا باستعمال التجنيس والتورية وسائر فنون البديع في شعره ، والأبيات التالية تتحد فيها كلمة الروي (عيسى) ولكنها تأتي بمعان مختلفة إذا ما كتبت خالية من التنقيط ، وهذه المعاني المختلفة أساسها تلك الاحتمالات المتعددة التي يمكن أن تنطق بها تلك الكلمة حال خلوها من النقط :

سألتُ الحِبّ: ما اسمُك، وهو ظبي من العرب الكرام، فقال: عيسى،

(الاسم العلَم أي : أن اسمه " عيسى ")

فقلتُ له: انتسِبْ من أيّ قومٍ تكون من الأنام؟ فقال: عيسى،

(عَبسيّ من بني عبْس)

فقلتُ: وما صَنيعُك في البوادي لتحصيل الحِطام؟ فقال: عيسى،

(يعني عشّاباً)

فقلتُ: ومَنْ أنيسك في البوادي إذا جنّ الظلامُ؟ فقال: عيسى.

(عَنْسى : يعني ناقته)

فقلتُ: وعمّ تسألُ كلَّ غادٍ يمر على الدوامِ؟ فقال: عيسى،

(عن شيء)

فقلتُ: وأي عيش في البوادي يلَذّ لذي الغرام؟ فقال: عيسى.

(عيشي)

فقلت: ولِمْ عصيْتَ نُصيحَ حبٌ دعاك الى المقامِ؟ فقال: عيسى،

(غشني)

فقلت: لقد سلبتَ القلبَ منّي بلحظِك والقوام، فقال: عيسى،

(عبثتَ بي)

فقلتُ: عساكَ تسمحُ لي بوصلٍ أيا بَدرَ التّمام، فقال: عيسى،

(عنّيتَني : من العناء أي أرهقتني)

فقلتُ: وما الذي يدعوكَ حتى تجافى بالكلام، فقال: عيسى،

(غَبَنْتَني أي ظلمتني من الغبن يقصد أنه لم يتعمد مجافاة الكلام)

فقلتُ له: صدَقْتَ وكلّ شيء تقولُ على النِّظام، فقال: عيسى،

(عُنيتَ بي)

فقلت: بمَن أعيش وأنت سُؤْلي وتبخل بالمرام، فقال: عيسى،

(عِشْ لي)

وقال الشاعر عز الدين أبو الحسن الموصلي الحنبلي أبياتا يحاكي بها أبيات صفي الدين الحلي السابقة ، وحاول أن يزيد عليها فقال :

أتى عيسى وناداني: تُرى مَن تُحب من الأنام؟ فقلت: عيسى،

(عَنَيتَني)

فقال: نعم رأيتُ إليك قلبي يحنّ من الهيام فقلت: عيسى،

(عَيْنُ بَثْيّ)

فقال: وما حَلالي قط شيءٌ سِوى هذا المقام فقلت: عيسى،

(غيّبتَني)

فقال: ونيّتي واللّهِ وصلٌ به يُمْحى الملامُ فقلت: عيسى،

(عينُ نيّتي)

فقال: عليك لي عتبٌ إذا ما تطارَحْنا الغرامَ فقلت: عيسى،

(عَتبْتَني)

فقال: بشرطِ أنْ أشدو بلَحْنٍ على شُرب المدامِ فقلت: عيسى،

(غنّ شيء)

فقال: أما شدوتُ بطيبِ نغم يحنّ له الحَمام؟ فقلت: عيسى،

(غنّيتَني)

فقال: وقد أتتْ ليلى: سلامٌ، وأسرع في القيام فقلت: عيسى،

(عنّ بَيني)

فقال: وما حَداك على فراقي بلا رَدِّ السلام؟ فقلت: عيسى،

(عيّبتَني)

فقال: انظر وقد حنقتْ عليه وتعبس في الكلام فقلت: عيسى،

(عبّسي)

فقال: حملتَ عِبءَ العشقِ منها وصبرك في انهزامِ ، قلت: عيسى،

(عبءٌ سيئٌ)

فقال: وما ترى فعل اللواتي رَعَيْنَ لك الزمام؟ فقلت: عيسى،

(غيّبْتَني)

قال صاحب الكتاب : فقال لي بعض الناس: ألا إنك جعلت عوض فقلت: فقال وعوض فقال: فقلت. قال: فغيرتها الى الصورة التي قالها، وقلت:

أتى عيسى فقلت له: الى من تميل من الأنام؟ فقال: عيسى،

عَنَيْتَني

فقلت: نعم رأيت إليك قلبي يحن من الهيامِ، فقال عيسى،

عيْن بَتّي

فقلت: وما حَلالي قط شيء سوى هذا المقامِ فقال: عيسى،

غيّبْتَني

فقلت: ونيّتي يا بدر وصلٌ به يشفى الأُوامُ فقال: عيسى،

عينُ نيتي

فقلت: عليك لي عتب إذا ما تطارحنا الغرام فقال: عيسى،

عتَبْتَني

فقلت: بشرط أن أشدو بلحن على شرب المدام فقال: عيسى،

غنّ شيء

فقلت: أما شدوتَ بطيب نغم يحن له الحمام فقال: عيسى،

غنيتني

فقلت: اجلس فقد جاءتك ليلى تحيي بالسلام فقال: عيسى،

عنَّ بيني

فقلت: وما حداك على فراق وإسراع القيام فقال: عيسى،

عيّنْتني

فقلت: أقم، فقامتْ وهي غضبى تعبس في الكلام، فقال: عيسى،

عبسيّ

فقلت له: حملت العبء منها وصبري في انهزام، فقال: عيسى،

عبء سيئ

فقلت: فما فعل اللواتي رعَيْنَ لك الزمام، فقال: عيسى،

غيّبنني

قال صاحب التصحيف: وقد بقيتْ على ذلك زيادة ليس فيها زبدة، ولا يقدح البديع فيها زنده، فأحببتُ نظمها، وأردتُ رقمها، فقلت، وإنْ كان في ذلك قلَق، ولم ينشق دجاه عن فلَق، فإن المُتقدّمين الفاضِلين أخذا ما رقّ وراقَ، وفلَذا ما راع ونزل وما هو في درَج الفصاحة بِراقٍ ولا برّاق، فليعذرْ صاحبُ الذّوق مَنْ شبّ عمره في هذا المقام عن الطوق، وذلك:

غدا عيسى يفرُّ من الغواني فقلتُ له: عَلامَ؟ فقال: عيسى،

عبثْنَ بي

فقلتُ: اغفرْ وعُدْ، فالعود أولى، فما في ذاك ذام فقال: عيسى،

غبنٌ تُـنُـنِّـيَ

فقلت: احملْ أذى مَن بتّ تهوى ولا تخشَ الملام فقال: عيسى،

عيبٌ بُني

فقلتُ: وما يَسوءُك بثُّ سرّ تنالُ منه المرام فقال: عيسى،

عِبتُ بثّـي

فقلت: فراستي حكمت بهذا عليك فما ألام فقال: عيسى،

عيبٌ نُبي

فقلت: رأيتك مع فتاةٍ حكَتْ بدْرَ التمام فقال: عيسى،

غيّبَتْـني

فقلت: فما لقدك وهو غُصنٌ يميلُ من المدام فقال: عيسى،

عن نثنّـي

فقلت: فما ترى من بعد هذا فقل جاء المنام فقال: عيسى،

غشّني

فقلت: وما ركابك إن قطعنا الفلا تحت الظلام فقال: عيسى،

عِيسى

فقلت: أريد أن ألقاك خِلْواً تفرّ من الآثام فقال: عيسى،

غَشّيتني

قال مؤلف كتاب التصحيف المذكور :وقلت أنا في تصحيف يحيى:

ومليح قلتُ: ما الاسمُ حبيبي؟ قال: يحيى،

(العلَم المشهور)

قلتُ: خاطبني بتصحيفٍ تعِشْ لي قال: يحيى،

(يحيا من الحياة)

قلت: حيّاك إلهي، قال لي: بل أنت يحيى،

(تُحيًّا من التحية)

قلت: في قدّيْكَ وردٌ وهو غضّ قال: يحيى،

(يُجْنى من الجَنَى)

فتوقَّ الجفْنَ مني فهو سيفٌ، قلت: يحيى،

(يجْني بالجيم من الجناية)

قلتُ: أصبحتَ مليكَ الحُسْن فرداً، قال: يحيى،

(بختي من البخت)

والَى عندي حَراجُ الحُسنِ في الآفاق يحيى،

يجبَى من الجباية

وإذا الغُصن تثنّى فلقَدّي بات يحيى،

يُحنَي من الانحناء

وإذا قام بقدٍ فنسيم الريح يحيى،

ُجثى من جثا على ركبتيه

أنا لو شِئْتُ لحُسني كان فوق البدر يحيى،

تختي من التخت الذي يجلس فوقه

فهو في الصورة من فوقٍ وفي معناه يحيى،

تَحتي نقيض فوْقي

فقلت: هل أُحْبَى وِصالاً منك حلواً قال يحيى،

تُحْبى من الحِباء

قلت: لو بُحتُ بسري خفَّ ما بي قال يحيى،

بُحْ بي من البَوْح

وإذا ما ناحت الوُرْقُ على الأغصان يحيى،

نُحْ بي من النَّوْح

قلت: ما يقطع خصمي عندَ عذْلي؟ قال: يحيى،

بحْثي من البحْث

قلت: لكن اشتهى لو قطّعوه، قال: يحيى،

بجَبّي من الجَبّ وهو القطع

قلت: ما لي من شفيع يعتني بي، قال: يحيى،

بحُبّي من الحُبّ

قلت: ما تنجو سريعاً من وصالي، قال يحيى،

نجّني من النّجاج

قلت: نحّيت غرامي، قال: من قلبك يحيى،

نحّني من التنحية

قلت: نحتُ الصخر دأبي وقد أعيا فيكِ يحيى،

نحْتي من النحت

وكذاك الدهرُ ما زال على الأحرار يحيى،

يُخني أي يُهلِك

قلت: خذني لك عبداً، قال: من يألف يحيى،

بجِنّي من الجِنّ

قلت: جفن قد حَتَا الدمع بخدّي، قال: يحيى،

يُحتى من الحُثوة

قلت: قد سال دماً من جفن عيني، قال: يحيى،

ثجًّ بي من الثّجّ

قلت: في جفني قرحٌ من بكائي، قال: يحيى،

نجًّ بي من نَجَّت القرحة

قلت: دُخري دمع عيني، قال: للشدة يحيى،

يُخبا من الخبيئة

قلت: ما لي قط ذنبٌ، كيف تجفو؟ قال: يحيى،

تجنّى من التّجنّي

ثم لانَ القلبُ منه إذ رأى في اللفظ يحيى،

نُخَبي جمع نُخبة

قلت: قُمْ وانشطْ ولا تكسَلْ وسافر، قال يحيى،

نَخّني من النخوة

قلت: ما تركب إن سرنا جميعاً؟ قال: يحيى،

نُجبي جمع نجيب

قلت: فاخترْ لي مركوباً غليظاً، قال: يحيى،

بُختي بالخاء المعجمة

قلت: ما الزاد الذي تعتدّه لي؟ قال: يحيى،

يخني يعني مسْلوقاً

قلت: وما الماء الذي نلقاه ورْداً؟ قال: يحيى،

بجُبّي يعني الجُبِّ

قلت: إنْ كَلّ بعيري بمَ يُزْجى؟ قال: يحيى،

بخَثّي من الحثّ

فهُو لو لم يقضِ قَصْدي كُنتُ أقضي فيهِ يحيى،

نَحْبي من قضى نحبه

الألغاز الشعرية النحوية

الألغاز النحوية باب من أبواب تراثنا القديم طريف ممتع، عُني به أئمة اللغة الكبار من النحاة والبلاغيين، حتى كثر التصنيف فيه وأفردت له مؤلفات خاصة جمع فيها مصنفوها أفانين شتى من هذا اللون الشائق من ألوان البحث اللغوي وتباروا في النسج على منواله، وحلما فيه من إشكالات لفظية أو معنوية. والمتصفح لهذا التراث يجد بغيته منه تحت عناوين شتى منها "الألغاز" و"الأحاجي" و"المعمَّيات" و"الملاحن" ومع ما بين هذه العناوين من فروق دقيقة تناولها الدارسون يبقى أنها تجتمع جميعاً في أنها تمثل تحدياً لعقلية السامع، واستفزاز قدراته العقلية، وامتحان مهاراته اللغوية.

وقد حاول بعض السلف أن يحددوا القيمة البلاغية للألغاز فقد ذكر ابن الأثير في المثل السائر أن اللغز "إنما وضع واستعمل لأنه مما يشحذ القريحة، ويحد الخاطر لأنه يشتمل على معان دقيقة يُحتاج في استخراجها إلى توقد الذهن، والسلوك في معارج خفية من الفكر..." ، أي أن الوظيفة الحقيقة للألغاز تستهدف تنمية القدرات العقلية والملكة اللغوية، فضلاً عن وظيفتها الترفيهية المثلة في الإمتاع.

ولعل هذا المنظور نشأ مع نشأة الألغاز التي قُصد منها في بداية ظهورها تحدى عقلية المستمع وحفز تفكيره لمحاولة حل اللغز وبيان ما فيه من غرابة، وكانوا يتسامرون بهذه الألغاز كقول بعضهم عن النار :

وآكلـــة بغـــير فـــم وبطـــن لهـــا الأشـجار والحيـوانُ قـوتُ

إذا أطعمتهـا انتعشتْ وعاشتْ وإن أســـقيتها مـــاءً تمـــوتُ

ووجه الغرابة في هذا اللغز، يظهر من المفارقة بين الأكل والشرب. فهذه الآكلة المسؤول عنها، إذا شربت تموت. وهذا أمر مخالف لطبيعة كل المخلوقات الآكلة..

وهناك نوع آخر من الألغاز يعتمد على البناء اللغوي للكلمة التي هلى حل اللغز، كما في قول الشاعر:

حروفــــه محـــدودة خمســـةٌ إذا مضـى حـرفٌ تبقّـى ثمـانْ!

أي أن الشئ المجهول المسؤول عنه يتألف من خمسة حروف، إذا ضاع منها حرف بقى ثمانية حروف، فوجه الغرابة في اللغز أن المتبقي يجب أن يكون أربعة أحرف. ولكن المفارقة تأتي من استعمال كلمة (ثمان) فإنك إذا سبقتها بحرف واحد وهو العين صارت (عثمان) وهو حل اللغز المطلوب.

وهناك نوع آخر من الألغاز يصعب الاهتداء إلى حله بطريق الحدس والحزر وحسن التقدير، فهذا شاعر يتحدث عن ضرسه الذي يأكل به ويعتمد عليه في طعامه، فهذا الضرس يخدمه طوال عمره من غير أن يراه، فإذا خلعه وألقى به فلن يلتقيا بعد ذلك. يقول هذا الشاعر ملغزاً في ضرسه.

وصـــاحب لا أمـــل الـــدهر صـــحبته يشقى لنفعي ويسعى سعى مجتهد

مـا إن رأيت لـه شخصـا، ومذ وقعت عـيني عليـه، افترقنـا فرقـة الأبـد

ومثل هذا النوع من الألغاز، لا يدرك حله عن طريق البناء اللغوي، وإنما يُدرك حله عن طريق البحث العقلي عن وجه المفارقة والغرابة.

اللغز والتعقيد اللغوي:

وقد بلغت عناية القدماء بالألغاز أن عدوها صناعة لغوية رأوا فيها مجالا لقدح زناد العقول، وتدريب الأفهام على إدراك تراكيب اللغة المعقدة، وكشف العلاقات بين تلك التراكيب. والمثال التالي من هذا النوع، فالشاعر في هذا البيت يصف حاله وهو في معركة ومعه صديقاه خالد وعمرو، فلما تكاثر عليه الأعداء وبلغت السيوف أنيابه،أمر صديقه عمراً أن يلحق بخالد، فهو يقول:

أقول: لِ خالداً يا عمرو، لّما   عَلَتْ نابي السيوفُ المرهفاتُ

واللام المكسورة (لِ) ليست حرف جر، بل هي فعل أمر من الفعل (وَلِي – يلي) مبني علي حذف حرف العلة، مثله مثل كل أفعال الأمر التي تجئ على حرف واحد مثل "قِ" من الوقاية، ومثل "فـِ" من الوفاء، وما شابههما. و"خالداً" مفعول به أي: الحق يا عمرو خالداً.

والملغزون القدامى يعتمدون على المغالطة الصوتية فينطقون البيت نطقا سليماً، ولكنهم من باب الإلغاز والتعمية يكتبونه كما ينطقونه فتظهر كتابته هكذا:

أقول لخالداً ياعمرو، لما   علتنا بالسيوفُ المرهفاتُ

والباء المسكورة الملحقة بكلمة "السيوف" ليست حرف جر، بل هي جزء من كلمة "نابي" [أي: مفرد أنيابي] ومعنى البيت "لما اشتدت الحرب حتى علت

سيوف الأعداء نابي قلت لعمرو: تول خالدا والحق به" وقد ظهرت الغرابة في وجود كلمتين إحداهما منصوبة بعد حرف الجر، والأخرى مرفوعة بعد حرف الجر.

في حين أن اللام والباء هنا ليسا حرفي جر، وإنما هو التلاعب والتعقيد اللغوي المقصود.

ومن هذا النوع المعتمد على التعقيد اللغوي ما يكون فيه الخداع قائماً على الأداء الصوتي فقط دون الكتابين كما في قول الشاعر:

لقد طاف عبدَ الله بالبيتَ وحج من الناسُ الكرامُ الأفاضلُ

فالمفارقة هنا تظهر من مجيئ كلمة (عبد الله) منصوبة بالفتحة مع أنها فاعل حكمه الرفع بالضمة ، ومن مجيئ كلمة (البيت) منصوبة بالفتحة مع وقوعها بعد حرف الجر (الباء)، وكذلك مجيئ كلمة (الناس) مرفوعة مع وقوعها بعد حرف الجر (من)، وحل هذا اللغز أن في المواطن الثلاثة مداً صوتياً قصيراً وأصل البيت هو:

لقد طاف عبدا الله بي البيتَ سبعةً وحجَّ منى الناسُ الكرامُ الأفضلُ

أي أن للشاعر صديقين من عباد الله طافا به البيت سبعة أشواط وقت أن كان الناس الكرام الأفاضل يحجون إلى "منى".

فكلمة (عبدا) مثنى أضيف إلى لفظ الجلالة فالتقى ساكنان فصار المدّ قصيراً فراراً من التقاء الساكنين لو امتد الصوت بالمد الناشئ عن ألف الاثنين. وكذلك كلمة (بي) التقى المد الناشئ عن ياء المتكلم [المبنية في محل جر بالباء] بألف

الوصل أول كلمة (البيت) فامتنع المد الطويل، وهو الحال أيضا في الألف المقصورة التي تنتهي بها كلمة (منى) حين التقت بألف الوصل في أول كلمة (الناس) فصار المد قصيراً. وهذا البيت في حال إلقائه يثير انتباه من يستمع إليه وقد يستغرق وقتا طويلا في تفسير ما يسمع.

مم يتكون اللغز؟ :

يتكون اللغز عادة من عدد من العناصر تتآلف فيما بينها بهدف تحقيق المفارقة التي تحير فهم السامع أو القارئ، وتستثير اهتمامه، ومن خلال استعراض الكتب القديمة التي جمعت ألواناً من الألغاز وحلولها، يمكن استنباط المكونات الأساسية للغز وهي:

١- المكوِّن البلاغي:

وذلك حين يعتمد اللغز على فن من فنون البلاغة مثل الكناية أو الاستعارة أو الاشتراك اللفظي، أو الجناس، أو التورية، ومن هذا اللون ما رواه العسكري من أن الرشيد سأل أهل مجلسه عن قول الشاعر:

قتلوا ابن عفان الخليفة مُحْرِمَاً ودعا فلم أر مثله مخذولاً

فقال: أي إحرام هذا؟ فقال الكسائي: أحرم بالحج، فقال الأصمعي: والله ما أحرم ولا قصد الشاعر هذا، ولو قلت أحرم: أي دخل في الشهر الحرام كما يقال أشهر:

أي دخل في الشهر لكان أشبه [أي أقرب إلى الصواب]. فقال الكسائي: فما

أراد الشاعر بالإحرام؟ قال الأصمعي: كل من لم يفعل شيئاً يستحق به العقوبة فهو مُحرم. كما قال عدي بن زيد:

قتلوا كسرى بليلٍ محرماً ... فتولى لم يمتَّع بكَفَنْ

فهذا اللغز إذاً يعتمد على مكون بلاغي أساسه الاشتراك اللفظي لأن لفظ (محرم) له ثلاث معانٍ كما رأينا: من لم يذنب ذنباً يعاقب عليه، ومن دخل في أحد الأشهر الحرم، ومن أحرم بالحج.

٢- المكوِّن اللغوي:

وإذا كان المكون البلاغي يعتمد على فنون البلاغة، وهي متعددة، من جناس وتورية واستعارة، ولها جمالها الأخاذ، وبريقها الساحر، وبناؤها المستفز للعقول، فإن هناك لوناً آخر من الألغاز يعتمد على مكون لغوي قوامه ما في اللغة ذاتها من ثراء يتمثل في ظواهر متعددة كالاستقاق والنحت والإضمار والحذف وغير ذلك . فمن ذلك ما رواه الحريري في مقاماته ونص اللغز:

- أين تدخل السين فتعزل العامل من غير أن تجامل؟ وجوابه أنها السين التي تدخل على الفعل المضارع المسبوق بأن الناصبة فتعزل (أن) عن عملها لا تنصب الفعل بل تتحول إلى (أنّ) مخففة كما في قوله تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾ [المزمل: ٢٠] أي أنه علم أنه سيكون منكم مرضى، فصارت (أن) هناك مخففة من الثقيلة وعزلتها السين عن عملها الأصلي وهو النصب.

٣- المكوِّن الكتابي:

وهذا المكوِّن يعتمد على ما يسمى (التصحيف) أي تغيير شكل الكلمة كتابياً، بطرق مختلفة كوصل مالا يوصل، أو فصل ما لا يفصل، أو إهمال وضع النقاط في موضعها، أو وضعها في غير مواضعها. وقد سبق أن مثلنا لهذا اللون من الألغاز بقول الشاعر:

أقول لخالداً يا عمرو لما ... علتنا بالسيوف المرهفات

ومن هذا اللون الذي يعتمد على الخداع الكتابي أو التصحيف قول الشاعر:

وغلام رأيته صار كلباً ... ثم بعد ذاك صار غزالا

وجوابه أن المقصود هنا (صاد) من الصيد، وليس (صار) بمعنى تحول.

ومنه لغز في (الفيل) وكلمة (فيل) تتكون من ثلاثة أحرف وإن كان للفيل أربعة أرجل. هذه الكلمة (فيل) إذا صحفت صارت (ليف) فتكون من ثلاثة أحرف وثلثاها كلمة (لي) وقد صاغ الشاعر هذا اللغز فقال:

ما اسم شئ تركيبه من ثلاثٍ ... وهو في أربع تعالى الإله

"قبل" تصحيفه ولكن إذا ما ... عكسوه يصير "لي" ثلثاه

٤- المكوِّن الصوتي:

وعلى العكس من المكوِّن الكتابي، فهناك المكوِّن الصوتي الذي يعتمد الإلغاز فيه على الخداع الصوتي عن طريق استخدام المد الطويل والقصير والإخفاء والإدغام

التنوين وغير ذلك من مظاهر الأداء الصوتي.. وقد مثلنا له في البداية بقول الشاعر الذي يعتمد على الخداع الصوتي عن طريق المد القصير:

لقد طاف عبدالله بالبيتَ سبعةً   وحج من الناسُ الكرام الأفاضل

ومن هذا اللون الصوتي الذي يعتمد على الإدغام مثل قول الشاعر:

عافت الماء في الشتاء فقلنا   بَرِّديه تصادفيه سخيناً !!

فكيف تعاف الماء في الشتاء لبرودته ثم يطلب منها أن تبرده لكي تجد ساخناً؟.. والخداع الصوتي هنا جاء من إدغام كلمتين هما (بل) و(رديه) – بكسر الراء والدال –: أي (اشربي منه) فصارتا: بل رديه، وعند النطق بهما مدغمتين تصبحان كالكلمة الواحدة: برِّديه. والمعنى: لا تخافي الماء ولا تعافيه. بل اقتربي واشربي فستجدينه ساخناً.

تعليم القواعد النحوية باستخدام الألغاز:

وفي رأينا أن من الممكن استخدام الألغاز في تعليم القواعد النحوية لتحقيق الأهداف التالية:

١- تنمية قدرة التلميذ على الربط بين عدد من القواعد النحوية.

٢- تنمية ملكة التذكر عن التلميذ.

٣- تحيق الترابط بين القاعدة النحوية وتطبيقها.

٤- تنسيط مهارة الاستماع لدى التلميذ أثناء تدقيقه لإدراك ما في الألغاز من

خداع صوتي في إلقائها.

٥- تحسين قدرة التلميذ على استعمال المخارج الصحيحة للحروف.

٦- تمكين التلميذ من إدراك مواضع الفصل والوصل.

٧- تنمية قدرة التلميذ على الإبداع ابتكار ألغاز مماثلة.

٨- توسيع الأفق للتلميذ بتمكينه من الربط بين البلاغة والقواعد النحوية.

٩- زيادة المحصول اللغوي للتلميذ من خلال الألغاز التي تعتمد على الاشتراك اللفظي وحلولها.

١٠- تمكين التلميذ من استخدام الإيجاز في التعبير عملية تطبيقية.

أساليب تعليم النحو بالألغاز:

ومن الممكن استخدام عدة مداخل، أو أساليب لاستخدام الألغاز في تعليم القواعد النحوية. فمن الأساليب التقليدية يمكن الاعتماد على طريقة البطاقات أو الألعاب اللغوية أو التمثيليات القصيرة، وكلها طرائق مألوفة في تعليم القواعد ويبقى أن يتم بناء محتواها بحيث يتضمن اللغز المطلوب حله مؤدًى بطريقة مشوقة، ثم يأتي الحل أيضاً بطريقة مشوقة.

كذلك يمكن الاعتماد على المدخل المسرحي من خلال تأليف مسرحيات مدرسية تتحقق لها أعلى درجة ممكنة من الإثارة والتشويق من خلال الحوار واستخدام الوسائط التعليمية على المسرح بحيث يتضمن محتوى المسرحية ألغازاً

مثيرة للتفكير.

وأما أساليب تعليم النحو الحديثة فيتسع فيها المجال لتعليم القواعد النحوية من خلال الألغاز، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق بناء برامج تعليمية مخصصة لهذا الغرض. كما يمكن استخدام الحاسوب في هذا الميدان بكفاءة، وتصميم برامج تعليمية حاسوبية تتدرج فيها الألغاز من مستوى إلى مستوى تبعاً لتطور المنهج الدراسي.

وإن كنت أرى أن المرحلة الأنسب لاستخدام هذه الطريقة هي المرحلة الثانوية لما تحقق لتلاميذها من نمو عقلي يناسب هذا اللون من التعليم الابتكاري.

صعوبات تعليم القواعد النحوية باستخدام الألغاز:

غير أن هناك صعوبات تكتنف هذه الطريقة لعل من أهمها:

١- كون اللغة العربية في معظم مناهجنا تدرس بوصفها فروعاً مستقلة مما يسهم في تجزيئية الفكر اللغوي عند التلاميذ.

٢- ضعف ثقافة معلمي اللغو العربية التراثية، فهناك ما يقرب من ثلاثمئة مرجع لغوي قديم وحديث تحتوى ألغازاً متعددة معظمها بعيد تماماً عن مناهج كليات التربية والآداب التي تقوم بإعداد المعلمين.

٣- إن اللغز يشير إلى القاعدة إشارة ولا يشرحها، ومن ثم فإن برنامج مقترحاً لتنفيذ هذه الطريقة قد يكون أجدى من الأساليب التقليدية كالتمثيليات

أو البطاقات أو الألعاب.

٤- أن الأسلوب التقليدي لتعليم النحو على هيئة أبواب مستقلة قد يجعل من الصعوبة استخدام الألغاز التي تربط بين أكثر من باب من أبواب النحو في آن واحد.

هل عرف أجدادنا أدب الأطفال ؟

أدب الطفل ، أو أدب الأطفال ، هو تلك الأعمال الأدبية المنتجة خصيصا للأطفال وتشمل الأجناس الأدبية المعروفة فى أدب الكبار من شعر وقصة ومسرحية فهو فى النهاية وجه ثان لأدب الكبار يشترك معه فى الأهداف العامة وهى الإمتاع والتسلية والتهذيب والتثقيف . ويختلف عنه فى الحجم واللغة ، فمن المتعارف عليه أن يكون أدب الأطفال أصغر حجماً إذ لا قدرة للطفل على متابعة رواية متشابكة طويلة ، ولغة الطفل محكومة بنموه اللغوى المحدود فلا يصح أن تكون لغة الأدب الأطفال صعبة المعانى أو مجازية التراكيب .

وإذا كان فنا القصة والمسرح قد وفدا إلى الأدب العربى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين مع الاحتكاك الثقافى بأوربا ، فإن الشعر كان هو الفن الأدبى الأكثر عراقة فى الثقافة العربية . بل إنه كان ديوان العرب وسجل حياتهم ووسيلتهم الإعلامية والتربوية قديماً .

وقد ذهب بعض دارسى تاريخ الأدب العربى إلى أن الشعر العربى القديم تضمن كثيراً من عناصر فنى القصة والمسرحية من حيث الشخصيات والحوار والحبكة الدرامية وكأنهم أرادوا بذلك أن ينفوا أن يكون مولد ذينك الفنين : القصة والمسرحية نتيجة تأثر بالأدب الغربى .

وقياساً على ذلك يمكن القول بأن أدب الطفل ، إذا عددناه فناً أدبيا جديدا له جذور فى تراثنا الشعرى القديم . غير أن مثل هذا القياس لايسلم ، لأن لأدب الطفل ، بمعناه الحديث ، خصائص تميزه من غيره ، وتجعله فنا ذا طابع خاص ومن ثم تصبح نسبته إلى الأدب القديم غير شرعية .

غير أن شعرنا العربى القديم إذا لم يكن قد احتوى أدب الأطفال بوصفه فنا أدبيا خاصا؛ فقد تضمن الكثير من أدب الأطفال بوصفه لوناً شعرياً متميزاً ، أو غرضاً شعرياً عرفته القصيدة العربية ، فقد روت لنا كتب التراث كثيرا من الأبيات أو المقطوعات أو أبعاض القصائد التى تحدث أصحابها فيها عن تربية الأطفال وشؤونهم (كما روت لنا كتب التراث كثيراً من تلك الأرجاز التى كانت النسوة يتغنين بها لأطفالهن ، أو يرقصنهم بها . بل ونسبت كتب التراث ذلك فى بعض الأحيان للرجال ، فكأن الرجل العربى القديم لم يكن متجهماً فظاً غليظ القلب كما تصوره لنا بعض الكتابات . بل كان يشارك زوجه فى خدمة بيته وحمل أطفاله وترقيصهم وتدليلهم إذا دعت إلى ذلك حاجة .

فقد روى الجاحظ فى البيان والتبيين أن الزبير بن العوام كان يرقص ابناً له وهو ينشد مرتجزًا متفاخرًا بابنه الذى ينتسب إلى أبى بكر الصديق :

أبيض من آل أبى عتيق

مبارك من ولد الصديق

ألدُّه كما ألدُّ ريقى

وروى الراغب الأصفهانى فى (محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء) نموذجاً أخر من بحر الرجز لشاعر يصف وجوه أطفاله بأنها كالأقمار جمالاً . وهو يقول إنه لولا هؤلاء الصغار للزم داره ولم يغش تصور الملوك الجبابرة ولكن حاجته إلى المال لرعاية أطفاله ألجأته إلى مدح الملوك :

والله لولا صبية صغار

وجوههم كأنها أقمار

لما رآني ملك جبار

ببابه ، ما طلع النهار

ويروى لنا صاحب " العقد الفريد " أبياتا رجزية أخرى مما كان يستخدم فى ترقيص الأطفال لأعرابى خفيف الظل يشبه حبه لطفله ، بحب بخيل أتاه المال بعد معاناة وفقر شديدين ، فهو يحب ماله حباً جما ، وكلما عنّ له أن ينفق شيئا من ماله ذاك الذى أتاه بعد طول نقر ، بدا له شئ عاقه عن بذل ذلك المال فهوضنين بطفله تماماً كضن ذلك البخيل بماله فيقول ذلك الأعرابى وهو يرقص طفله :

أحبه حبَّ الشحيح ماله

قد كان ذاق الفقر ، ثم ناله

إذا أراد بذله ، بداله

وشاع فى كتب التراث أيضا ذلك الترقيص الذى تغنت به أعرابية :

يا حبذا ريح الولد
ريح الخزامى فى البلد
أهكذا كل ولد ؟
أم لم يلد مثلى أحد ؟

فهذه الألوان السابقة من الشعر يمكن أن نحتسبها جذورًا حقيقية لأدب الأطفال فى تراثنا العربى، ويمكن أن نضيف إليها ذلك القصص الرمزى الذى رواه لنا الجاحظ فى كتاب الحيوان " وكتاب" المحاسن والأضداد " المنسوب له ، أو رواه لنا أبو العلاء فى ثنايا كتابه الضخم " رسالة الصاهل والشاحج " أوما رواه الأبشيهى فى كتابه " المستطرف من كل فن مستظرف " ومن هذا المصدر الأخير نختار القصة الآتية :

قال الشعبى : مرض الأسد فعادته السباع ماعدا الثعلب ، فأراد الذئب أن يكيد للثعلب عند ملك الحيوانات فقال للأسد : أيها الملك . لقد مرضت فعادتك السباع جميعً ماعدا الثعلب ، قال الأسد : فإذا حضر الثعلب فأخبرنى . فلما بلغ ذلك الثعلب جاء ليعود الملك فقال له الأسد : يا أبا الحصين مرضت فعادنى السباع كلهم إلا أنت . قال الثعلب : بلغنى مرض الملك فخرجت أسعى فى طلب الدواء له

فقال الأسد : فأى شئ أصبت ؟ قال الثعلب : قالوا لى : عليك بخرزة فى ساق الذئب ينبغى أن تخرج فيعالج بها الملك . فضرب الأسد بمخالبه ساق الذئب فشقها ، وتسلل الثعلب خارج عرين الأسد ، وبعد قليل مر عليه الذئب يعرج والدم يسيل من ساقه . فقال له الثعلب : يا صاحب الخف الأحمر، إذا قعدت بعد هذا عند سلطان ، فانظر ما يخرج من رأسك !! "

فمثل هذه القصة وغيرها مما روته لنا كتب التراث يصلح أن يكون مادة طيبة لأدب أطفال حقيقى يشتمل على كل الخصائص التى يمتاز بها أدب الأطفال العصرى ، وهذا القصص القديم إلى جانب شعر الترقيص الذى أشرنا إليه ، مما نستطيع أن نعده - دون تجوز - أصولاً عربية حقيقية لأدب الأطفال . فإذا انتقلنا إلى لون آخر من ألوان الأدب القديم المتصلة بالأطفال، وجدنا ما يمت إلى الأطفال بصلة ما ، مثل الحديث عن تربيته وتعليمهم ، والحديث عن تنكرهم - فى بعض الحالات - لآبائهم أو أمهاتهم ، والحديث عن رثاء الأطفال الذين ماتوا صغار فلم تقربهم عيون أهلهم .. إلى آخر تلك الفنون التى نرى أنها تنتمى إلى أدب الكبار أكثر من انتمائها إلى أدب الأطفال ، وما نرى فيها إلا لوناً خاصا من ألوان الفن أو غرضاً جديداً من أغراض الشعر لم يلتفت إليه نقادنا قدر التفاتهم إلى تلك الأغراض الشعرية التقليدية من مرح وفخر وهجاء وغزل .

والحطيئة مع ما جبل عليه من شراسة الطبع ، وتبلد المشاعر ، وحدة الجفاء ، يروون عنه أبياتاً تفيض رقة وعذوبة فى مجال حياته الأسرية كقوله لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين سجنه :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ زغب الحواصل لإماء ، ولاشجر

ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فقد رووا أن الحطيئة هذا الغليظ القلب أراد سفرًا طويلاً فهيأ دابته وأخذ متاعه على راحلته وخرجت زوجته وبناته يود عنه فقال مخاطباً مهددًا إياها بطول الغياب :

عُدّى السنين إذا رحلتُ لرحلتى

ودعى الشهور فإنهن قصار

فأجابته زوجته فى الحال بقولها :

اذكر تحنُّنَنَا إليك وشوَقنا

واذكر بناتك إنهن صغار

فأخذته العاطفة إلى بناته وقال لمرافقيه : حُطوُّا - أى أنزلوا أمتعتى من على الرواحل - فو الله لارحلت أبدًا " .

وهكذا ، يجد المتأمل فى تراثنا الأدبى القديم ثروة وأصولاً طيبة ليس فقط لأدب الأطفال بمعناه العلمى الضيق ، بل ولأدب الأطفال بوصفه باباً واسعاً من أبواب الأدب العربى القديم كما نقول : أدب الكتاب ، وأدب الوزراء بمعنى ما قيل

لهم وفيهم وعنهم وفى مجالسهم من أشعار وقصص ومساجلات ومسامرات وأحاديث . فلا جناح علينا إذًا أن نتسع بمفهوم أدب الأطفال فى تراثنا ليشمل :

أ - القصص الرمزى على ألسنة الحيوانات والطيور فمثل ذلك القصص يصلح للأطفال فى كل زمان ومكان .

ب - مراثى الآباء والأمهات لأبنائهم

ج - شعر الترقيص .

د - مراسلات الآباء والأبناء .

هـ - عتاب البناء العاقّين .

و - قضية وأد البنات وما ورد فيها من شعر تأييدًا أو تفنيدًا .

ز - تعليم الأطفال .

ح - نوادر المعلمين مع الأطفال (كما فى رسالة المعلمين للجاحظ) .

عندما يهجو الشعراء آباءهم !!

من عجائب الدنيا أن يكون بين الوالد وولده من الجفوة وسوء المعاملة ما يكدر صفو الحياة ويحول الحياة الأسرية إلى نكد مستمر، وعذاب متجدد ، وقد يكون الوالد هو السبب في ذلك حين يسئ معاملة ابنه فينشأ الابن عاقاً غليظ القلب متمردا ، بل وخبيث اللسان أيضا فقد قالوا : كان لحنظلة النميري ابن عاق اسمه مرة، فقال له يوماً: إنك لمر يا مرة فقال: أعجبتني حلاوتك يا حنظلة !! ، فقال: إنك خبيث كاسمك، فقال: أخبث مني من سماني به، فقال: كأنك لست من الناس فقال: من أشبه أباه فما ظلم، قال: ما أحوجك إلى أدب، قال:

الذي نشأت على يده أحوج إليه مني، قال: عقمت أم ولدتك، قال: إذا ولدت من مثلك،

قال: لقد كنت مشؤوماً على إخواتك، دفنتهم وبقيت، قال: أعجبني كثرة عمومتي، قال: لا

تزداد إلا خبثاً، قال: لا يجتني من الشوك العنب.

ومن غرائب تراثنا الشعري ما نجده في كتب التراث عند نفر من الشعراء عرفوا بسلاطة اللسان وسوء الخلق، وعقوق الوالدين.

ويأتي على رأس هؤلاء "الحطيئة" الذي هجا نفسه وأمه وأباه ، فقد روى الراغب الأصفهاني في محاضراته أن "الحطيئة" قال يهجو نفسه وقد نظر في بئر فساءه منظره:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما ... بشرٍّ فما أدري لمن أنا قائله

أرى ليَ وجهاً قبح الله خلقه ... فقبح من وجه وقبح حامله

وقال يهجو أمه:

لحاك الله شرا من عجوز ... ولقاك العقوق من البنينا

تنحي واجلسي مني بعيدا ... أراح الله منك العالمينا

أغربالاً إذا استودعت سراً ... وكانوناً على المتحدثينا

ألم أوضح لك البغضاء مني ... ولكن لا إخالك تعلمينا

حياتك ما علمت حياة سوء ... وموتك قد يسر الصالحينا

وقال يهجو أباه:

لحاك الله ثم لحاك حقا ... أبا، ولحاك من عم وخال

فبئس الشيخ أنت على النوادي ... وبئس الشيخ أنت لدى المعالي

جمعت اللؤم لا حياك ربي ... وأبواب المخازي والضلال

وقال أيضا يهجو والديه معا في بيت واحد مخاطبا أمه:

ولقد رأيتك في النساء فسؤتني ... وأبا بنيك فساءني في المجلس

ومما روى الخالديان في "الأشباه والنظائر" قول أعرابي يهجو أباه وقد رآه يتصابى وهو في سن متقدمة ويتخلى عن وقاره وعما يليق بسنه من هيبة وترفع فقال يهجوه:

إذا كانت الآباء مثل أبٍ لنا فلا أبقت الدنيا على ظهرها أبا

إذا شاب رأس المرء أقصر وارعوى وإن أبانا حين شاب تشببا

وروى أبو الفرج في "الأغاني" عن "مطيع بن إياس" الشاعر الماجن المعروف أنه كان عاقا لأبيه شديد البغض له ، وقد رآه يوما مقبلا عليه من بعيد "ومطيع" جالس مع إخوانه يشربون الخمر فلما اقترب منهم "أبو مطيع" قال "مطيع" يهجوه:

هذا إياس مقبلا جاءت به إحدى الهنات

"هوزن" فوه وأنفه "كلمن" في إحدى الصفات

وكأن "سعفص" بطنه والثغر "شين" "قريشات"

لما رأيتك آتيا أيقنت أنك شر آت

وتبدو في الأبيات رائحة الخمر وآفة السكر فهو يسخر من منظر أبيه ويشبهه بمجموعات الأبجدية العربية القديمة (هوز-كلمن-سعفص-قرشت).

ورووا عن أعرابي أنه دخل على كسرى مجلس ملكه فهابه ما رأى من بهاء المقاصير وفخامة الأرائك وصباحة الوجوه ، وتذكر ما يعانيه قومه البدو الأعراب من شظف العيش وسوء الحال وكآبة المنظر فقال:

لَكسرى كان أعقلَ من تميمٍ لياليَ فرَّ من بلدِ الضباب

فأسكن أهله ببلاد رحبٍ وأشجار وأنهار عِذاب

فصار بنو أبيه بها ملوكا وصرنا نحن أشباه الكلاب

فلا رحم الإله هدى تميم فقد أزرى بنا في كل باب

وأما الشاعر "ابن عنين"وقد كان أيضا من المجان المولعين بالهجاء ، وله قصيدة شهيرة سماها "مقراض الأعراض" هجا فيها كثيرا من معاصريه ، أشار إليها "ياقوت الحموي" في "معجم الأدباء" وابن خلكان في "وفيات الأعيان" فقد هجا أباه فقال:

وجنبني أن أفعل الخير والدٌ ضئيلٌ إذا ما عُدَّ أهل التناسل

بعيد من الحسنى ، قريب من الخنا وضيع مساعي الخير جم المعايب

إذا رمت أن أسمو صعودا إلى العلا غدا عرقه نحو الدنية جاذبي

وروى ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة عن الشاعر علي بن محمد بن بسام البغدادي ، وكان شاعرا مجيدا إلا أن غالب شعره كان في الهجاء حتى هجا نفسه وهجا أباه وإخوته وسائر أهل بيته وكان يكنى أبا جعفر فقال:

بنى أبو جعفر داراً فشيدها ومثله لخيار الدور بناء

فالجوع داخلها والذل خارجها وفي جوانبها بؤس وضراء

ما ينفع الدار من تشييد حائطها وليس داخلها خبز ولا ماء

وروى المحبي في خلاصة الأثر عن الأديب أحمد بن شاهين القبرسي الأصل الدمشقي المولد الأديب اللغوي الشاعر المنشى المشهور أصل والده من جزيرة قبرس

بالسين المهملة لا بالصاد كما يغلط فيه العوام جزيرة بالبحر الشامي وهو من الفيء الذي أفاءه الله على الأسلام حين فتحها فأشتراه بعض الأمراء وتبناه وجعله من أجناد دمشق ومكث بعد الأمير يزداد في الرفعة حتى صار أحد الأعيان المشار إليهم بالتقدم وولد له أحمد هذا ونشأ وانتظم في سلك الجند ولما وقعت الفتنة بين علي بن جانبولا ذو العساكر الشامية وانتهى الأمر إلى انهزام العسكر الشامي وقتل منهم من قتل وأسر من أسر كان الشاهيني من جملة من أسر في تلك الوقعة ولما أطلق من ربقة الأسر اعتاض عن الوشيج والحام بالقراطيس والأقلام كما قال :

صبوت إلي حب الفضائل بعدما   تقلدت خطيا وصلت بلهذم

وكان الشاهيني على طريقة ابن بسام ويقفو أثره في عبث اللسان وشكوى الدهر وهجاء أبناء عصره وكان ابن بسام هجا أباه فضرب الشاهيني على قالبه ونسج علي منواله حيث قال في أبيه

أقول لركب من معين وهم على   جناح رحيل دائم الخفقان

أمـــا أنــــه لولا فراق بكورنا   يثبن إلى ردى بجذب عناني

ولولا أبي شاهين قص قوادمي   لكان جناحي وافر الطيران

وقال

لما رأيت العيش من ثمر الصبا   وعلمت أن العفو حظ الجاني

أدركــت مـــالا سولته شبيبتي   وفعلــت مـــالا ظنه شيطاني

ولما مات والده في سنة أربعين وألف حزن لفقده وانعزل عن الناس مدة .

وقال آخر في أبيه:

لي والــــد متحــامل   من غير ما جرم عملته

إن لم يكن أشنى إليّ   من المنون فلا عدمتــه

وقال في أخيه منصور:

أبوك أبي وأنت أخي ولكن   أبي قد كان يبذر في السّباخ

تجاريني فلا تجري كجريــي   وهل تجري البيادق كالرخاخ